جدلية التشوهات ومستقبل وحدة السودان

الجزء الأول

المُستعمِر الزنجي

أحمد آدم المحامي



جدلية التشوهات ومستقبل وحدة السودان

الجزء الأول

المستعمر الزنجي

أحمد آدم المحامي

عنوان الكتاب :جدلية التشوهات ومستقبل وحدة السودان
الكاتب: أحمد آدم أحمد أبكر
تاريخ النشر: الطبعة الأولى 2022
رقم الإيداع: 2022/540

الناشر
دار المصورات
للنشر والطباعة والتوزيع



2 0 2 2

الخرطوم غرب
شارع الشريف الهندي
المتفرع من شارع الحرية
ت:249912294714+
elrayah1995@gmail.com

المدير المسؤول: أسامة عوض الريح
التصميم ولوحة الغلاف:الفنان التشكيلي بكري خضر

فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر - السودان
320.9624 أحمد آدم أحمد أبكر ، 1971 -
أ آ ،ج
جدلية التشوهات ومستقبل وحدة السودان : المستعمر الزنجي :
الجزء الأول / أحمد آدم أحمد أبكر م - ط1. - الخرطوم ; أ. آ. أحمد ، 2022.
160 ص ; 24 سم .
ج1 ردمك : ISBN 978-99988-802-3-8
1. السودان - الأحوال السياسية. أ.العنوان.

حديث شريف

عن جابر بن عبدالله - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (رحم الله رجلاً سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى)

رواه البخاري

الفهرس

شكر و تقدير

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين عونك يا كريم

إلى روح والـدي رحمهمـا اللـه ، والى أرواح عزيـزه ، أعرفهـا أو لا أعرفهـا ، في كل مـكان وزمـان ، تفضلـت عـلي أو عـلى غـيري ، انســان أو حيـوان ، بـأي خـير حتـى وإن كان قطعـة خبـز ، أو شربـة مـاء ، أو ابتسـامة باهتـة لحظـة ضغـف.إلى أسرتـي الصغـيرة والكبـيرة ، وإلى إخـوة عـزاز كان لهـم الفضـل في إخـراج هـذا الكتـاب. و إلى كل مـن علمنـي حرفـاً. وجميـع أصدقائـي وعشـيرتي السـودانيين خاصـة ، وعمـوم افريقيـا والعالـم. اهدي هـذا الجهـد المتواضـع ، ومـا كان فيـه مـن خـير فمـن اللـه ، ومـا كان فيـه مـن شر فمـن نفـسي الأمـارة.

ووفقنا الله وإياكم لكل خير.

المؤلف

المقدمة

في نهايــة الألفيــة الثانيــة ، دوى الانفجــار العظيــم في مركــز. الحــزب الحاكــم _ المؤتمــر الوطنــي _ وكان انفجــارا ذاتيــاً مــن الداخــل بــين القيادة الروحيــة "الترابــي" والقيــادة التنفيذيــة "البشــير" . ولــم يضــع الطرفــان وقتــا إذ حشــد كل طــرف أنصــاره ، لا بتأثــير جاذبيــة البرامــج ، وانمــا باســتحضار روح الأجــداد _ التعايــشي والخليفــة شريــف _ إبــان صراعهمــا الأول ، الموســوم تاريخيــاً بــأولاد الغــرب واولاد البحــر. وتــوالى الاصطفــاف حتــى كدنــا نــرى حمــدان ابــو عنجــه ، محمــد خالــد زقــل ، النــور عنقــرة، الزاكــي طمــل ، عبــد المــولى صابــون وغيرهــم ، وهــم يتجادلــون في شــوارع الخرطــوم ، مهرولــين بــين القــصر والمنشــية!

وبعــد حــين ، لجــأ البعــض إلى الســلاح الاكثــر مكــرا و دمــاراً ، الفتنــة، وأخــرج للنــاس كتابــا أســودا ، حمــل توقيعــا غامضــا ، مســتعرضا حقائق، بقصــد تهييــج أهــل دارفــور وتهيئتهــم لمــا ســيأتي.....للحرب ، لتقبلهــا ، لمســاندة أي حامــل للســلاح طالمــا كان موجهــا نحــو الخرطــوم ، وهلــل البســطاء وكــبروا حتــى حين!

ومــا أن قــرئ الكتــاب حتــى تداعــت الكتابــات والمكاتبــات ،وتزاحمــت القنــوات الإعلاميــة ، بالأخبــار فــكان الخــبر الأهــم لوقــت طويــل في كافــة أنحــاء القطــر. ومــا بــين معــارض ومؤيــد انــداح النــاس ، وهنــاك في البعيــد كان ثمــة متحفــظ لائــذ بالصمــت. عــلى كل ، شــاركت في الكتابــة حــول الأمــر ، في صحيفــة الــرأي الآخــر ، خلال شــهر مايــو للعــام ٢٠٠٠م. بمقــال عنوانــه "جدليــة التشــوهات ومســتقبل وحــدة الســودان". مــن

أربـع حلقـات اسـتعرضت خلالهـا رؤيتـي المتواضعـة حـول المسـألة[1].
وكان ملخصهـا محاولـة لبحـث جـذر الأزمـة بهـدوء ، تمهيـداً لحلهـا بـدلاً عـن التشـنج والانفعـال ، والحشـد للحـرب. ولكـن ، للأسـف انتـصر دعـاة الحـرب ، حيـث أصغـى إليهـم النـاس ، وطربـوا لنـداء القتـال ، وكان مـا كان ، منـذ ذلـك الزمـان حتـى الآن!

عـلى كل ، مؤخـرا خـلال الثـلاث سـنوات الماضيـة فكـرت في تأليـف كتاب ـ مجـزأ ـ عـن الموضـوع ، فمـا وجـدت عنوانـاً افضل ممـا كان. فقـررت له العنـوان ذاتـه "جدليـة التشـوهات ومسـتقبل وحـدة السـودان". وسـيكون هـو العنـوان الرئيـسي للاجـزاء كلهـا ، مـع عنـوان خـاص بـكل جـزء. لـذا سـيحمل هـذا الجـزء الأول عنـوان "جدليـة التشـوهات ومسـتقبل وحـدة السـودان ـ المسـتعمر الزنجي".ومـا يجـب التنبيـه إليـه، ضرورة تفهـم مـا طـرأ عـلى السـاحة العامـة ، وللمؤلـف عـلى السـواء ، خـلال هـذه الفـترة الطويلـة ، مـن تجـدد لبعـض الأفـكار والأحـداث ، وبالتـالي ، قـد اخالـف نفـسي في بعـض الأحيـان عنـد مقارنـة الكتـاب بمـا كتبـت قبـل ٢٢ عامـا ، وهـو خـير ، إن شـاء اللـه ، فالجمـود لا يليـق بالفكـر، وهـو مـن قبيـل التطـور ، ورغـم ذلـك ، ظلـت الفكـرة الأساسـية كمـا هـي ، تـدور حـول بحـث جـذر الأزمة.

جذر الأزمة :

يبحـث هـذا الكتـاب عـن جـذر الأزمـة السـودانية، فمـا المقصـود؟ إن جـذر الأزمـة هـي تلـك المعضلـة التي لـو تـم حلهـا يسـتطيع السـودانيون العيـش في سـلام والتقـدم للأمـام ، بغـض النظـر عـن حجـم المسـاحة أو عـدد السـكان. سـواء بقـي عـلى مـا هـو عليـه ، أو تجـزأ حتـى وصـل إلى مسـاحة قـرى. ذلـك هـو المقصـود بجـذر ، أو جوهـر أزمـة البـلاد.

---

١ ـ صحيفـة الـرأي الآخـر ، العـدد ١١٩٣. بتاريـخ ٢٠٠٠/٥/٤م. والعـدد ١٢٠٠ بتاريـخ ٢٠٠٠/٥/١١م. والعـدد ١٢٠٦ بتاريـخ ٢٠٠٠/٥/١٨م. والعـدد ١٢١١ بتاريـخ ٢٠٠٠/٥/٢٥م.

وينطبق هذا على عموم بلدان افريقيا: ما هي تلك المعضلة التي لو تم حلها يستطيع أي بلد أفريقي النجاة ، ولو انقسم إلى قرى ؟!

يمكن أخذ المثال التالي لإيضاح ماهية جذر الأزمة. وليكن ازدحام المرور في شارع ما. حيث أن عرض الطريق الصالح للسير ، بالكاد يبلغ سبعة امتار. ولنقل أن التحقيقات وصلت إلى أن جذر الأزمة هو ضيق الطريق. ولكن عند إعادة النظر لوحظ اصطفاف السيارات والركشات وعربات الكارو حول الطريق ، بشكل خاطئ ، ما أدى إلى اقتطاع عشرة أمتار منه. كذلك لوحظ تكدس اعداد غفيرة من الباعة المفترشين للأرض حول الطريق ، بصورة عشوائية ، ما أدى إلى فقدان عرض خمسة عشر متراً منه. وكان المارة يمشون عشوائياً على مساحة عرضها ثمانية أمتار تقريبا ، وعند التدقيق تبين اقتطاع أصحاب المحلات التجارية ، بغير حق ،حوالي خمسة عشر متراً من الطريق على الجانبين.كما أخذ الوقوف الخاطئ للسيارات مساحة خمسة أمتار. إذا ، بجمع الامتار نجد أن عرض الطريق قد وصل إلى ستين مترا!

وعند التمعن في المثال أعلاه ، تصدمنا حقائق ثلاث: أولها أن الطريق كان واسعا جدا! وثانيها ، أن الضيق الذي طرأ عليه لم يكن جذرا للأزمة ، وانما نتاجاً لها! والثالثة ، أن اغتصاب الشارع من قبل المذكورين أعلاه ، كان "اغتصابا رسمياً"، إذ صدقت لهم جهات رسمية هذه المحلات في جوف الطريق رغم انف الخرط المصدقة للتخطيط العمراني!

وفي السياق ذاته ، تبدو رؤية سلطات المرور في معالجة الأزمة شديدة البؤس ، تنطوي على هدر عظيم للموارد. فتارة بحشد أكبر عدد من الشرطيين لفك الاختناق ، وأخرى بفرض عقوبات وغرامات

تهـدف إلى الجبايـة لا حـل الأزمـة. وفي بعـض الأوقـات يتـولى الأمـر بعـض الرتـب الكبـيرة التـي تنـزل إلى حيـث الأزمـة وتعمـل بجهـد كبـير متخبـط، يفـك الاختنـاق حـالا ، ولكـن سرعـان مـا يعـود الحـال إلى حالـه! وأحيانـاً يصيبهـم الإحبـاط والقنـوط فيتركـوا الحبـل عـلى الغـارب!

للمــرء أن يتســاءل عــن مــدى الهــدر عندمــا يتــم حشــد عــشرات الشرطيـين لشـارع يفـترض أن تنسـاب فيـه الحركـة دون عائـق ، وحتـى دون الحاجـة إلى شرطـي واحـد! ويتسـاءل عـن الرواتـب التـي تدفـع كل شـهر لمشـكلة لـن تحـل! ويتسـاءل كذلـك ، هـل يتحمـل دافـع الضرائـب رواتـب ومخصصـات رتبـة كبـيرة تـؤدي عمـلا صغـيرا ، يمكـن أن تؤديـه اصغـر رتبـة؟! أليـس ذلـك مـن قبيـل هـدر المـوارد؟ والمدهـش ، اعجـاب كثيريـن بمشـهد ضابـط كبـير يقـف عـلى تقاطـع ليمـرر السـيارات ، ويصفونـه بالتواضـع! إن الأمـر لا علاقـة لـه بالتواضـع ، ولكـن بقيمـة العمـل عندمـا تدفـع الدولـة راتبـاً يكـون مقابـل خدمـة محـددة تـؤدى. فالضابـط الكبـير يفـترض إنجـازه مهمـة تـوازي مـا يأخـذه ، كأن يسـهم في حلهـا عـلى نطـاق واسـع ، عـلى مسـتوى المحافظـة أو الولايـة مثـلا ، وبحلـول تسـتهدف جـذور الأزمـة لا فروعهـا ، بحيـث تنتهـي منهـا تمامـاً، لا امسـاك صافـرة والقيـام بأعمـال صغـيرة جـدا، تؤديهـا أصغـر رتبـة ، وحلـول وقتيـة تـزول بـزوال المؤثـر!

بـدلا مـن هـذا الهـدر ، أليـس الافضـل التفكـير عميقـا في جـذر الأزمـة. ولنفـترض أننـا بصـدد حـل مشـكلة ذلـك الشـارع . فيجـب البدايـة بطرح الأسـئلة الجوهريـة ، ولنبـدأ بالسـؤال : ابتـداء ، مـاذا نعنـي بجـذر الأزمـة؟ وللإجابـة نضطـر إلى طـرح سـؤال آخـر يـدور حـول ماهيـة الغـرض الرئيـسي للشـارع؟ ولنفـترض توصلنـا إلى أن الإجابـة الاكثـر ملاءمـة هـي "السـير". اذا لنركـز عـلى هـذا الهـدف بحيـث ننظـف الشـارع مـن أي شـئ لا علاقـة لـه ب "السـير". وعـلى ضـوء ذلـك ، سـنزيل الاضافـات

التـي وضعهـا اصحـاب المحـلات التجاريـة ، ونحـرم أي شـكل من أشـكال البيـع والـشراء داخل الشـارع ، ونقـرر أنـه حتـى المـاء ليـس ضروريـاً ل"السـير"، إذ يمكـن أخـذه مـن بقالـة بعيـدة عـن الشـارع ، ولا يجـوز البيـع والـشراء إلا داخـل المحـلات التجارية ، والأسـواق. ولا يسـمح لاصحاب المركبـات باخـتراع مواقـف أكثـر ممـا هـي محـددة مسـبقاً ، ونزيـل كل ما هـو خاطـئ. ولـئن فعلنـا ذلـك وحافظنـا عليـه ، لتحـول عـرض الشـارع إلى خمسـين مـتراً عـلى الأقـل ، مـع رصيـف محـترم للمـارة. ولحلـت الأزمـة نهائيـا دون الحاجـة لشرطـي واحد!

ولكـن ،كثـيرا مـا تجابـه مثـل هـذه الحلـول الناجعـه بضـلالات تهزمهـا. مثـال ذلـك ، مـا درجـت المحليـات والولايـات مـن الدفـع بـه في وجـه الإصـلاح ، بحجـة بائسـة ملخصهـا ،أنهـا لجـأت لتصديـق _ في الواقـع اغتصـاب _ تلـك المواقـع امـلأ في زيـادة دخلهـا ، الـذي سـيدعم الناتـج القومـى الإجمـالي للبـلاد! حسـنا ، سـنثبت أنهـا حجـة شـديدة البـؤس والغبـاء تـؤدي لعكـس ذلـك! ولـن نسترسـل كثـيرا ، ونكتفـي بنقـاش صغـير ، يتعلـق بالزمـن المهـدر جـراء الازدحـام الناتـج عـن ضيق الطريـق. ولنفـترض أن عـدد الأفـراد الذيـن يعتمـد عملهـم عـلى حركـة المـرور في جميـع أنحـاء السـودان حـوالي عـشرة مليـون فـرد . ولنفـترض أن متوسـط مـا يخـسره الفـرد مـن وقـت خـلال الوصـول إلى عملـه نصـف سـاعة يوميـاً. ففـي هـذه الحالـة نكـون بصـدد خـسران خمسـة مليـون سـاعة يوميـاً خـلال عمليـة الوصـول فقـط. أي ثلاثـين مليـون سـاعة في الأسـبوع ، أي مائـة وعشريـن مليـون سـاعة في الشـهر الواحـد ، أي مليـار وأربعمائـة وأربعـين مليـون سـاعة مهـدرة في السـنة الواحـدة! ولا حاجـة لنـا بعـد ذلـك للاسترسـال في مقارنـة مـا يـدره "اغتصـاب الشـارع" لهذه الجهـات ، ومـا يهـدره عـلى الناتـج القومـى الإجمـالي للوطـن!

يجسـد لنـا هـذا المثـال الأزمـة السـودانية والإفريقيـة عـلى السـواء.

حيـث ينظــر إلى أسـباب متعـددة باعتبارهــا جـذراً للأزمــة ، وفي الواقــع هــي ليسـت كذلـك ، بـل أحيانـاً تكـون هــي نفسـها نتاجـاً لهـا. وينتـج عــن ذلـك بـؤس طــرق المعالجــة ، والتــي لا تسـتهدف جـذر الأزمــة ، لأنهـا لـم تتوصـل إليـه بعـد. وتـدور هـذه الحلـول البائسـة حـول أسـباب أمـا لا علاقـة لهـا بـه ، أو ثانويـة شـديدة البعـد عنـه، وكثـيرا مـا تحمـل طـرق المعالجـة نفسـها مشـاكل أسـوأ ، وليسـت حلـولا ، لتكـون النتيجـة المبـاشرة بـذل جهـود هائلـة يقابلهـا فشـل ذريـع ، مـع بقـاء الأزمـة كمـا هــي وفي الغالــب مضاعفتهــا!

لــذا ، يسـتهدف هــذا الكتــاب بحــث جــذر الأزمــة للتعــرف عليــه ، ومــن ثــم اجــتراح الحلـول. وقــد خصــص هــذا الجـزء الأول لتتبــع رؤى السـودانيين منـذ وقـت طويـل حــول مــا اعتــبروه جـذراً للأزمــة. وقــد يلاحــظ القــارئ عــدم اهتمــام الكتـاب بالأحـزاب والكيانـات السياسـية إلا في أضيــق الحــدود. ، لأن مــا هــي عليــه هــو ذاتــه نتــاج لجــذر الأزمــة . فضــلا عــن ذلـك ، فــإن تتبعهــا خــلال هــذه المســاحة أمــر غــير مجــدي ، فهــي متجــددة الأشــكال ، مــا أن تقـضي عــلى شرور أحدهــا الا ويحــل كيــان آخــر مكانهــا ويمــارس دورهــا: بــرز الكيــان السـياسي في العهــد التركــي المــصري بإســم الباشــبوزق ويعاونهــم الجهاديــة ، ومــا أن تــلاشى الحكــم التركــي المــصري حتــى تحــول الكيــان السـياسي إلى الانصــاري ويعاونــه الجهاديــة. وفي عهـد عبـود بــرز بمسـمى اخــر. وفي عهـد النمــيري تحــول إلى ”السـدنة“. وفي عهـد الإنقــاذ تحــول إلى ”الكــوز“. وحتــى في عهــد مــا بعــد ثــورة ديسـمبر هنــاك مــن رأى أن ”القحاتي“قــد حــل محــل الكــوز!

وعــلى ضــوء ذلــك ، لــن يجــدي نفعــا الانشــغال بالســادن ، أو الكــوز ، أو القحاتــي ، لأنــه حتمــا ســيظهر غيرهــم إن اختفــوا ، ويحــل مكانهــم ، وســيخلفه مــن يحــل محلــه ، وهكــذا! وبالتــالي ، يكــون توجيــه الاهتمــام نحوهــم كمســك ذيــل ضــب هــرب!

منهج البحث:

مرجعية البحث الرئيسية:

هـي الآيـة الكريمـة "يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آَمَنُـوا كُونُـوا قَوَّامِـينَ بِالْقِسْـطِ شُـهَدَاءَ لِلَّـهِ وَلَـوْ عَـلَى أَنْفُسِـكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْـنِ وَالْأَقْرَبِـينَ إِنْ يَكُـنْ غَنِيًّـا أَوْ فَقِـيرًا فَاللَّـهُ أَوْلَى بِهِمَـا فَـلَا تَتَّبِعُـوا الْهَـوَى أَنْ تَعْدِلُـوا وَإِنْ تَلْـوُوا أَوْ تُعْرِضُـوا فَـإِنَّ اللَّـهَ كَانَ بِمَـا تَعْمَلُـونَ خَبِـيرًا" [٢]. وكـذا "وَيْـلٌ لِلْمُطَفِّفِـينَ * الَّذِيـنَ إِذَا اكْتَالُـوا عَـلَى النَّـاسِ يَسْـتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُـمْ أَوْ وَزَنُوهُـمْ يُخْـسِرُونَ " [٣]. تظـل هـي الفكـرة الأساسـية التـي تـدور حولهـا الاشـياء.

أداة البحث الرئيسية:

التـي ساسـتخدمها هـي العقليـة القانونيـةlegel mentality. وذلـك لسـبب موضوعـي ، هـو أنهـا الخلفيـة المعرفيـة التـي املـك ، فقـد اسـتغرق مجـال القانـون كل حياتـي العمليـة ، وقسـطا وافـرا مـن حياتـي الأكاديميـة. وبالتـالي ، ساسـخر كل ذلـك لدراسـة المشـكلة السـودانية والإفريقيـة، باعتبارهمـا قضيـة قانونيـة ، ممـا يحتـم إعمـال مبـادئ العدالـة ، كأصـل الـبراءة ، وتجريـد القاعـدة القانونيـة. ويسـتفاد مـن تجريـد القاعـدة القانونيـة تسـاوي الكافـة. مثـلا ، عنـد تحليـل حـدث مـا، يتسـاوى في الحكـم جميـع الأشـخاص بتسـاوي ظروفهـم الموضوعيـة ومراكزهـم القانونيـة. وبتطبيـق ذلـك عـلى الدراسـة ، يكـون وصـف الفعل واحـداً ، في ظـل نفـس الظـروف والملابسـات ، وإن صـدر مـن أشـخاص مختلفـين. وبالتـالي ، اذا وصفنـا الفعـل بأنـه "جيد"يكـون هـذا الوصـف ثابتـاً وإن تغـير الموصوفـون ، فالفعـل "جيـد" يبقـى كذلـك ، إن صـدر من آدم ، أو اوهـاج ، أو تـاج الـسر ، أو دينق.وكـذا الفعـل السـئ.

---

٢ - سورة النساء ، الآية ١٣٥

٣ - سورة المطففين ، الآية (١ – ٣)

من حيث تكوين الكتاب :

عــدد الابــواب ، عــدد الفصــول , ينقســم إلى مقدمــة ، خمســة أبــواب (مقســمة الى فصــول ، وبعضهــا قســمت فصولــه إلى مباحــث). والخاتمــة، وكــذا قائمــة المراجــع والمصــادر الأخــرى. وأخــيراً ، الملاحــق ، وتضــم المقــالات الصحفيــة التــي كانــت بدايــة للعنــوان.

وبعــد هــذا ، يعــن لي القــول إنــه جهــد المقــل ، وقــد وفقنــا اللــه العــلي القديــر. ولا ننزهــه عــن نقــص ، أو نرفعــه إلى كمــال ، وحســبنا أنــه جهــد ذاتــي خالــص ، يمثــل رؤيتــي المتواضعــة ، فــإن أصبــت فمــن اللــه ، وإن أخفقــت فمــا أنــا إلا ابــن آدم.

والله المستعان

الباب الأول

الموارد

الباب الأول

الفصل الأول ، الموارد

بلد غني في قارة أكثر ثراء ، وكلاهما فقير ! استشهد د.صلاح آل بندر بافادة[٤]. عن د. منصور خالد حيث جاء فيها:(يجب أن يدرك السودانيون أن الجنوب لا يمثل رصيدا للسودان فقط ، بدليل أن التقارير الدولية حول القحط في افريقيا تشير إلى أن المنطقة الوحيدة التي مازالت غنية ولم تتأثر بالتصحر هي جنوب السودان) [٥].وكتب كذلك ، آل بندر:(وتبلغ كمية المياه المتدفقة على طرفي مستنقعات السدود في منطقة جونقلي ٣٠ مليار برميل سنويا إلى يوم الدين) [٦].

وفيما يتعلق بدارفور (أكدت الدراسات الجيوفيزيائية التي تمت في حوالي ٧٥-١٩٧٧م. أن كمية مياه الروافد اليومية التي تصب في البحيره الجوفية في منطقة ساق النعام ، التي تقع على بعد ٤٢كلم ، جنوب شرق مدينة الفاشر عاصمة ولاية شمال دارفور تعادل عشر امثال المياه الجوفية المخزنة في جميع سدود السودان) [٧]. ونقل ،كذلك، عن العالم المصري د.فاروق الباز ، خلال محاضرة ألقاها في الخرطوم في يوليو من العام ٢٠٠٧م.أن هناك بحيرة جوفية أخرى للمياه ، شمال دارفور مساحتها حوالي ٣٠ ألف كيلومتر مربع ، وتخزن من المياه ما يقدر وهي مليئة ب ٢٥٣٠ كلم مكعب ، اي ٢٥٣٠ مليار متر مكعب من المياه. [٨].

---

٤ - في حوار في «المجلة»، أجرته الصحفية نورا فاخوري ،في تاريخ ١٩٨٥/١٠/٢م

٥ - د. محمد سليمان محمد. السودان، حروب الموارد والهوية. تحقيق واستهلال/د.صلاح ال بندر. الناشر/دار كيمبريدج للنشر. الطبعه الاولى. ، ص٥٩ .

٦ - نفس المرجع ، ص٢٦.

٧ - عبد الجبار محمود دوسه. دارفور وأزمة الدولة في السودان. الناشر/ مكتبة جزيرة الورد. الطبعه الاولى ٢٠١٣م.، ص١٩

٨ - نفس المرجع ، ص١٩.

كمــا قيــل عــن الحــوض النوبــي ، في شــمال الســودان:(هذا الحــوض عبــارة عــن مثلــث تمتــد أضلاعــه مــن حلفــا ، فدنقــلا ، فجبــل عوينــات ، فحلفــا مــرة أخــرى. يمكــن تقريبــا تحديــد الرقعــة التــي تغطيهــا المســاحة الرئيســية التــي يشــغلها الحــوض بمــا لا يقــل عــن ١٠ مليــون فــدان ، عــلى اقــل تقديــر ، اذا اضفنــا إليهــا الشريــط الزراعــي عــلى الأراضي النيليــة الفيضية.ويوجــد في هــذا الحــوض اكــبر مســتودع للميــاه الجوفيــة في افريقيــا والــشرق الأوســط ، وهــي صالحــة لبيعهــا كميــاه صحــة ، دع عنــك الزراعــة و الاســتخدامات المنزليــة الاخــرى _ المنظمــة العربيــة للتنميــة الزراعيــة ١٩٨٣م _ تقبــع هــذه الميــاه الجوفيــة الهائلــة في أعمــاق لا تتجاوز الخمســين مــترا بــاي حــال ، بينمــا تنخفــض حتــى ١٥ مــتر- المنظمــة العربيــة للتنميــة الزراعيــة ١٩٩٠) [٩].

فــإذا كانــت هــذه هــي كميــة الميــاه في بعــض أجزائــه ، حتــى بعــد انفصــال الجنــوب ، فمــاذا عــن بقيــة اجزائــه؟ ومــاذا عــن مصــادر الميــاه الأخــرى مــن أنهــار ومجــاري و بحــيرات ، وكل هــذه الميــاه لا تمثــل إلا جزء مــن الثــروة الوطنيــة! وهــو مــا نــكاد نــراه في معظــم بلــدان افريقيــا.

وعــلى ضــوء ذلــك ، يطــرح الســؤال : أي واقــع يعيشــه الســودان ، وأي واقــع تعيشــه أفريقيــا؟ ويمكــن اختــزال الجــواب "في بؤســهما معــا"، خاصــة بعــد صدمــة الارتفــاع المفاجــئ لأســعار النفــط ، وانهيــار اســعار الســلع والمــواد الأوليــة ، مطلــع ســبعينيات القــرن المــاضي ، حيــث بــدأ تدهــور معظــم بلــدان افريقيــا ، ومــازال ، جــراء الصدمــة المزدوجــة ، الأمــر الــذي ألقــى بظلالــه عــلى مجمــل اقتصادهــا ، فتــاكل احتياطــي عملاتهــا ، وزاد تضخمهــا ، واختــل ميزانهــا التجــاري لصالــح دول العالــم الاول ، ولــم تنــج الا دول قليلــة العــدد.

٩ - محمد جلال هاشم. منهج التحليل الثقافي،الدولة الوطنية السودانية وظاهرة الثورة والديمقراطية. الراوي للنشر والتوزيع. الطبعه الثامنه ٢٠١٨م ، ص٥١.

الواقع السياسي :

يكاد يطابق الواقع السياسي السوداني الواقع السياسي الافريقي لكثير من بلدانها ، وقد قيل (إن السودان يدخل القرن الحادي والعشرين وهو يكابد جراحات انهيار كل مشروع قومي تم طرحه ، باعتقاد أنه سوف يوحد أهله حول حد أدنى يحفظ مصالحهم الاستراتيجية ، ويعزز أمن بلادهم القومي. فقد سقطت كل المشروعات القومية التي طفحت على سطح حياتهم ، باختلاف ألوان الطيف السياسية من نهوض الثورة المهدية ٨٥-١٨٩٨م. مرورا بعهود الديمقراطيات الكسيحة و الديكتاتوريات المقيتة ، ونهاية بتصورات الحزب الغالب ، والكيان الجامع ، واتحاد قوى الشعب العاملة ، والى زمن الحقبة الانقاذية.... الخ) (١٠).

وقيل كذلك :(وصلت دست الحكم في ظل هذه الأنظمة فصائل من القوى الطائفية ، ورجال الإدارة الأهلية ، والتجار ، والمثقفين الليبراليين ، والتكنوقراط عسكريين ومدنيين ، والمثقفين العقائديين ، والثوار ، بل وبعض التنظيمات الإقليمية المسلحة. ولكن ، ومع تعاقب المراحل والقائمين عليها ، الا أن أيا من المشاريع أو الشرائح الحاملة لها ، لم تتمكن من أحداث الاختراق الذي ينهض بالسودان من الكبوة التي تدرج في اتونها. وعلى الرغم من صحة القول بأن الديمقراطيات لم تحظ بالوقت الكافي للحكم عليها إلا أن هشاشة نظمها وضعف جذورها في المجتمع، وعدم قدرتها على الصمود أمام الانقلابات العسكرية ، تشكل في حد ذاتها ظاهرة تتطلب الدراسةوالتمحيص والبحث) (١١).

وقد كان ذلك تلخيصا جيدا للواقع السياسي السوداني ، حيث

١٠ - د. محمد سليمان محمد. السودان، حروب الموارد والهوية. تحقيق واستهلال/د.صلاح ال بندر. الناشر/دار كيمبريدج للنشر. الطبعه الاولى. ، ص٥. المقدمه. د. صلاح آل بندر.

١١ - د. النور حمد. السودان ، آفاق الوعي بالذات. الناشر/مشروع الفكر الديمقراطي ، سلسلة قرأءة من أجل التغيير.رقم ١٨ _ الطبعة الأولى ٢٠١٤م ، ص٩. المقدمه. بقلم المحرر/شمس الدين ضو البيت.

فشـــل الجميـــع في إدارة البـــلاد ، وهـــذا معلـــوم ، لكـــن الســـؤال : لمـــاذا؟!

قـــد نجـــد إجابـــة جزئيـــة فيمـــا نقلـــه د.محمـــد ســـليمان عـــن الرئيـــس الكنغـــولي ساســـو نجويســـو ، خـــلال مقابلـــة لـــه مـــع صحيفـــة الـــشرق الأوســـط ، بتاريـــخ ١٢/١٢/١٩٩٨م.حيـــث قـــال:(كان القـــادة الأفارقـــة مســـؤولين بدرجـــة كبـــيرة عـــن إيجـــاد نظـــم اســـتبدادية ، وغالبـــا فاســـدة ، عبثـــت بثـــروات بلادهـــم ودمـــرت التآلـــف الاجتماعـــي الافريقـــي) [١٢]. مـــا يجعـــل الســـؤال معلقـــا عـــلى حالـــه : ولمـــاذا كل ، أو عـــلى الأقـــل معظـــم، القـــادة الأفارقـــة فاســـدون؟!

الواقع العسكري :

لا يدهـــش المـــرء اذا وجـــد مطابقـــة بـــين الواقـــع العســـكري الســـوداني والافريقـــي. فالجيـــش الافريقـــي غالبـــا ، أمـــا في حـــروب حدوديـــة عبثيـــة ، مـــع دولـــة جـــارة ، أو ضـــد بعـــض أبنائـــه المتمرديـــن عليـــه ، مدعومـــين مـــن دولـــة جـــارة أو صديقـــة، او في حـــال اشـــتباك داخـــلي هنـــا او هنـــاك ، أو في وضـــع توثـــب للانقضـــاض عـــلى الســـلطة ، أو غـــير ذلـــك مـــن أوضـــاع مهدرة للمـــوارد لصالـــح دول العالـــم الاول ، خـــلال تمويـــل عمليـــات شراء الســـلاح والعتـــاد الحربـــي ، أو رهـــن القـــرار الســـياسي للخـــارج. وكل ذلـــك ينعـــش اقتصـــاد الـــدول العظمـــى ، وفي الوقـــت ذاتـــه ، يفقـــر الاقتصـــاد الإفريقـــي.

كان الســـودان تحـــت وزر مـــا يقـــارب العشريـــن مليشـــيا مســـلحة ، في الوقـــت الـــذي كانـــت أرضـــه مسرحـــا لمليشـــيات تتبـــع دولا مجـــاورة : تشـــاد ، اثيوبيـــا ، ارتريـــا ، يوغنـــدا والكونغـــو ، تقاتـــل دولهـــا مـــن عمـــق الأراضي الســـودانية. وقـــد بلـــغ عـــدد هـــذه المليشـــيات في وقـــت مـــا حـــوالي ٤٥ مليشـــيا مســـلحة.[٢] [١٣]. وكانـــت الكنغـــو تعانـــي الحـــال ذاتـــه إذ يتقاتـــل في أرضهـــا (٧ جيـــوش تنتمـــي إلى ٧ دول افريقيـــا تختلـــف في سياســـاتها ومصالحهـــا، وتتبايـــن ارتباطاتهـــا مـــع الأطـــراف الكنغولية المتناحـــرة ، وكل

١٢ - د. محمد سليمان محمد. السودان، حروب الموارد والهوية. تحقيق واستهلال، د.صلاح ال بندر. الناشر/دار كيمبريدج للنشر. الطبعه الاولى. ، ص ٧١/هامش ١٠٥.

١٣ - نفس المرجع ، ص١٩.

منها مسنودة بدولة غربية ، وعدد كبير من شركات عالمية واحتكارات الأسلحة ، بالإضافة إلى ممويلها من خارج الحدود والطامعين في مناجم البلاد ، ناهيك عن تواجد قوات ٤ مليشيات كبيرة مناهضة لحكومات كل من السودان ويوغندا وانغولا وروانـدا ، في فترة نقاهة و تدريب) [١٤].

الاثر على المجتمع المحلي :

أدى ذلك إلى تصدع المجتمع المحلي الافريقي عموما ، والسوداني خصوصا . لقد قتل في نزاعات افريقيا الأهلية خلال الفترة مابين ١٩٦٠ _ ١٩٩٠م. حوالي ٧ مليون نسمة ، وزاد عدد اللاجئين على ٢٠ مليون نسمة. وقد كان هذا العدد اكبر من نصف عدد اللاجئين في كل العالم البالغ ٢٦ مليون نسمة [١٥]. وخلال الفترة المذكورة تم رصد أكثر من ٢٥ حرب أهلية ، فضلاً عن ١٢ نزاعا اهليا ملتهبا في عدد من بلدان القارة [١٦].

وفي دارفور ، خلال عقد واحد "١٩٩٠م. _٢٠٠٠م." كان هناك خمسة عشر نزاعا مسلحاً ،اخرها بين المساليت و العرب في مارس ١٩٩٨م. [١٧]. وفيمابين عامي ٢٠٠٥م. _٢٠٠٦م. انعقد حوالي ٣٣ مؤتمرا للصلح بين القبائل في جنوب دارفور ، وقد شمل هذا الصلح ما يقرب من ٩٠ قبيلة [١٨]. تورطت في النزاع الحدودي ، فيما بينها ، بصورة أو أخرى.

١٤ ـ نفس المرجع ، ص ١٩.

١٥ ـ كانت هذه الإحصائيات في العام ١٩٩٤م

١٦ ـ د. محمد سليمان محمد. السودان، حروب الموارد والهوية. تحقيق واستهلال، د.صلاح ال بندر. الناشر/دار كيمبريدج للنشر. الطبعه الاولى. ص ٧١.

١٧ ـ د.يوسف سليمان سعيد تكنه. دارفور، صراع السلطة والموارد. ١٦٥٠ ـ ٢٠٠٢م. دراسة في السياسة والحكم والإدارة٢٠١٣م. الناشر/ دار مدارك للنشر. الطبعة الأولى ٢٠١٤م ، ، ص ١٠٩.

١٨ ـ نفس المرجع ، ص ١٧٤.

الفصل الثاني

مدرسة ما قبل الاستقلال

إن المتتبـع ، لا بـد مـن خلوصه إلى السـؤال: مـا سـبب التناقـض بـين واقـع القـارة المـزري ووفـرة مواردهـا؟! وذلـك يشـمل السـودان، بالطبـع ، لـذا نحـاول الإجابـة مـن خلالـه. وفيـه يمكـن القـول إن المتابـع للأطروحـات المبذولـة في هـذا الصـدد ، يلاحـظ كثـرة الأسـباب المتسـبب بهـا ، وتناقـض كثـير منهـا. مهمـا يكـن ، فقـد غـدت مـدارس متشـعبة ، ومذاهـب متعـددة ، لـذا ، تيسـيرا للبحـث ، لأغـراض هـذه الدراسـة ، نقسـمها ، بصـورة أساسـية إلى مدرسـتين : مـا قبـل الاسـتقلال ، ومـا بعـد الاسـتقلال.

أولا ، مدرسة ما قبل الاستقلال وتنقسم إلى:

❋ فترة الاستعمار التركي.

❋فترة الاستعمار البريطاني.

وعنـد فحـص هاتـين الفترتين نجـد أن القاسـم المشـترك بين السـودانيين، كان اعتقادهـم أن سـبب البـلاء هـو هـذا الاسـتعمار. وعـلى ضـوء ذلـك ، نخـوض في تحليـل الأمـر .

*** فترة الاستعمار التركي:**

خـلال سـنوات العهـد التركـي المـصري ، كاد السـودانيين أن يجمعـوا على أن اس مشـاكلهم إنمـا عائـد لهـذا الاسـتعمار ، ولا شي سـواه ، فالفقـر ، المـرض ، الجهـل ، الظلـم ، وكل قبيـح بالـضرورة ناتـج عـن هـذا السـبب.

ذلك الحكم الأجنبي البغيض ، فاتجهوا في نشاط لهدمه ، مؤملين الوصول إلى الضفة الأخرى حيث تقع الجنة. وفي ثقة ، عند هبوبها ، وعدت الثورة المهدية الناس بملء الأرض عدلا بعد جور ، فاشتعلوا حماسا ، رافضين سداد ما عليهم من ضرائب متمردين على السلطان ، وارتفعت عقيرتهم هادرة بالشعار المهيب "عشرة رجال في تربة ولا ريال في طلبه". لقد هاجوا ملتفين حول المهديين لاقتلاع أس البلاء ، وان هي إلا هنيهة حتى فعلوا ، فاقتحموا الخرطوم ، قطعوا رأس سيدها ، وآلافا من الارؤس الأخرى. وملكوا البلاد ، وكان حكما وطنيا صرفا ، عادت السيادة خلاله للسودانيين. فهل تعافت قروح الوطن؟

(كان الحكم التركي المصري واحداً من أكثر النظم قسوة و وحشية، من ناحية القهر وجمع الضرائب)[١٩]. لكن، هل صلح الحال بعد زواله ؟ المفارقة ، ساء أكثر ، فقد زاد القهر وعادت الضرائب أكثر تنوعا ، وأعظم مقدارا ، كانت في الأصل عشرا لكن ،عند جمعها ، قد تستغرق نصف البضاعة.كتب ويلفريد سكاونت بلنت Wilfrid Scawen Blunt، خلال تقريره عن السودان ، في أغسطس ١٨٩١م :(إن الخليفة يأخذ العشر نوعا ، ولكن البقارة المكلفون بالتحصيل من قبل الحكومة يستبدون خلال التنفيذ. وايضا ، ان احدا لا يجازف بإظهار ثرائه ، فكل زيادة في الثراء مصيرها إلى بيت المال....وان زادت أموالهم فما عليهم إلا اخفاؤها تحت الارض[٢٠].

إذا ، أنجز السودانيون ثورة ، فقدوا فيها عشرات الآلاف من الأنفس – الأرجح مئات الآلاف – املأ في القضاء على مصدر الأزمة ، فتحصلوا على استشراء مضاعف من القهر والفساد ، حمل كثيرين على التحسر على عهد الاستعمار التركي المصري ، رغم استبداده ، الذي بدأ أكثر

١٩ - د.شريف حرير. ود.تيرجي تفيدت. السودان ، الانهيار أو النهضة. ترجمة/مبارك علي عثمان _ مجدي النعيم. الناشر/ مركز الدراسات السودانية. الطبعه الاولى ١٩٩٧م ، ص٢٥

٢٠ - ب. م. هولت. المهدية في السودان. ترجمة/د.جميل عبيد. مراجعة/د.احمد عبد الرحيم مصطفى. الناشر،ملتزم الطبع والنشر/دار الفكر العربي. مطبعة الاستقلال الكبرى ، . ص ٢٢٠.

رحمة. يلخص نكال المهدية بقطاع كبير من السودانيين ، لأسباب يصعب حصرها ،حقيقة فساد النظام واهترائه ، ولم يكن مدهشا شمول هذا النكال طائفة من القادة المهديين أنفسهم ، وعلى رأسهم الزاكي طمل ، أيقونة النظام ،وثلاثة من رؤساء القضاء ، وطائفة من أمناء بيت المال ،فضلا عن عدد معتبر من رؤساء القبائل ، تم تدشين مذبح الثورة بهم ، مثل المنا اسماعيل ، الذي أطاح المهدي برأسه مع شروق شمس الثورة رغم كونه أحد أبرز قادتها آنذاك!

فإذا كان سبب رزء البلاد ذلك الاستعمار البغيض ، لماذا بقيت الرزايا ، بعد زواله؟ اذا كان ذلك عائداً إلى التركية المصرية الفاسدة ، لماذا لم يذهب فسادها وضرائبها الفاحشة معها؟! فهل كان الاستعمار، على سوئه، جوهر الأزمة؟!

ثمة سؤال مؤرق : لماذا اختارنا الاستعمار للاستعمار ؟! أو بتعبير اخر : لماذا وقع اختيار الباشا علينا ، كهدف للغزو ؟ لماذا نحن تحديدا؟!

في الواقع ، لم يخترنا الباشا للغزو خبط عشواء ،وانما كان عملا متقنا مدروسا، حفزته محفزات عديدة ، على قمتها توفر أهدافه "المال والرجال". ومع ذلك، لم يكن ليجرؤ على تنفيذ مغامرته ، إذا لم يضمن نجاحها ، فالمؤكد أن احتمال الخسارة العسكرية، الاقتصادية، والسياسية ، سيجعله مترددا حيال تنفيذ مغامرته ، والأرجح صرف النظر عنها. لذا كانت وفرة الأهداف في حاجة لمحفزات تشد من ازر النجاح، وقد كفيناه مؤنة ذلك ، بما تطوعنا بتقديمه للباشا الشره ، ولسان حالنا يستعطفه لغزو بلادنا!

اهم محفزات السودانيين للباشا لغزو ديارهم :

المحفز الاول :

تمثل في تأكيد وفرة الرقيق في بلادنا ، خلال احصائيات تقريبية لحجم الرقيق المصدر إلى مصر والحجاز . لقد رأى محمد علي باشا

كثـرة رقيـق السـودان في مـصر ، كانـوا بـين الجنـود الفرنسـيين ، وكانـوا بـين فـرق الجيـش المـصري ، حيـث درج ضبـاط المماليـك عـلى شراء الاطفـال وتربيتهـم صغـارا ، وبعـد بلوغهـم سـن الخدمـة العسـكرية ، يدخلونهـم الجنديـة ويقبضـون رواتبهـم [٢١]. وفي الواقـع ، تأسـس الجيـش المـصري نفسـه بجنـود سـودانيين ، فقـد قيـل (أن الملـك بـادي السـادس كان قـد ارفـق ولاءه للحكـم المـصري بهديـة قدرهـا ٧٧٦٤ عبـدا)[٢٢]. ومـن هـذه الهديـة السـخية تأسـس الجيـش المـصري ، الـذي كان اعظـم مهماتـه ، عـلى الاطـلاق ، غـزو السـودان والقضـاء عـلى منبـع الهديـة ، دولـة الفونج"السـخية!

قبـل سـبع سـنين مـن الغـزو ، في ١٨١٤م. قـدر الرحالـة ج.ل. بركهارت عـدد الارقـاء في مـصر بنحـو (٤٠,٠٠٠) أربعـين ألـف رأس، ثلثهـم انـاث وبقيتهـم ذكـور [٢٣]. كذلـك شـجع الباشـا ، وأكـد لـه نجاحـه في قنـص الرجـال ، خاصـة مـع فـرق جيشـه المتطـور جـداً ، بمقاييـس زمانـه ، ومرجـع ذلـك امتلاكـه السـلاح النـاري ، عظيـم النـدرة في السـودان. كمـا اسـتخلص ، خـلال دأبنـا عـلى تصديـر ابنائنـا _الرقيـق _ إليـه بتلـك الهمة ، أننـا أمـة منقسـمة ، يبيـع بعضهـا بعضـا ، ولا محفـز لعـدو أفضـل مـن انقسـام امة!

المحفز الثاني :

وكان المحفـز الثانـي ، شـدة انقسـام الرهـط المسـيطر ، مـن هـذه الأمـة المنقسـمة – الاحـرار – فقـد كان الشـايقية مسـيطرين تمامـا عـلى مـن حولهـم ، في إخضـاع تـام ، وكان الخاضعـون يكرهونهـم ، وكان الخاضعون يكرهـون بعضهـم بعضـا ، وكان الكارهـون بعضهـم بعضـا ، يكرهـون بعضهـم "الصغـير" ! لقـد أنتـج ذلـك شـيئا مميـزا هـو الحـرب ، حيـث

٢١ ـ احمد احمد سيد احمد. تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصري. ١٨٢٠ _ ١٨٨٥م. رسالة دكتوراه تحت إشراف الدكتورين/ محمد فؤاد شكري ومحمد أنيس ، ص٦٢.

٢٢ ـ نفس المرجع، ص ٦٣.

٢٣ ـ محمد ابراهيم نقد. علاقات الرق في المجتمع السوداني. الناشر/الشركة العالمية للطباعة والنشر ١٩٩٥م ، ص٦٩

كان القتال يدور بين كل تلك القبائل ، من ناحية (الرباطاب ، الميرفاب ، الشكريه ، البطاحين ، الكواهله ، الحسانيه....) وداخل القبيلة نفسها بين أفرعها وبيوتها الصغيرة من ناحية أخرى (الجعليين النمراب والجعليين السعداب..الخ). كان الفضاء من ديار النوبة شمالا حتى سنار جنوبا مسرحا لعبث قبلي ، مزق البلاد شر ممزق. وجدير بالذكر أن ذلك لم يقف على الشمال والوسط ، وانما كان ذات الوضع مكررا في ربوع الوطن، ففي الغرب لم يكن الحال افضل ، إذ كانت القبائل مشتبكة مع سلطنة الفور في صراع دائم، وكذا غيرها من السلطنات والمشيخات ، وكانت كذلك فيما بينها كقبائل ، وفي داخلها كافرع قبيلة !وما كان للشرق ان ينفرد خارج هذا المستنقع الاسن. أما قبائل الجنوب فقد كانت في تربص دائم ببعضها. وزاد المشهد ارباكا احتلال دارفور كردفان في ١٧٨٥ – ١٧٨٦م.وكذا محاولة جاويش ملك الشايقية احتلال المنطقة حتى سنار [٢٤]. وفي خضم ذلك ، لم يكن حال رجال الدين افضل حيث نالوا حظهم من الصراعات المهلكة حول السلطة الدينية،ولم تكن الطريقة المجذوبية الا نموذجا سافرا يعكس حال البلاد والعباد ، قبيل وقوع الغزو!

المحفز الثالث:

لقد كان الباشا عالماً ، عبر جواسيسه ، بكل ما وقع ، وبعد ذلك لم يحتج إلى هؤلاء الجواسيس ، لسبب بسيط هو تولي أهل الشأن إيصال كل شاردة وواردة إليه ، لقد أدى صراع الأجنحة داخل القبيلة الواحدة ، إلى تقديم طلبات رسمية إليه. فقد مثل بين يديه زعماء قبائل سودانيه ، تتوسله ، ليس غزو الوطن الكبير فحسب ، وانما غزو قبائلهم ومحاربتها ، لأجل نزع ود القبيلة عن الزعامة ، ووضعهم مكانه! كان ممن توسلوا الباشا (الزبير ، أحد أمراء دنقلا

---

٢٤ - د.ابكر ادم اسماعيل. جدلية المركز والهامش. الناشر/منظمة حقوق الإنسان والتنمية HODO الطبعة الثانية،
ص ٩٥/عن القدال ص٢٣.

، نـصر الديـن الصـادق الميرفابـي مـن بربـر ، وادريـس ود نـاصر مـن سـلالة العنـج في سـنار ، وادريـس ود عـدلان مـن فازوغـلي ، وود هاشـم مـن كردفـان ، وبشـير العقـدي مـن شـندي) [٢٥].

كان أقـوى حافـز لمحمـد عـلي باشـا توسـل هـؤلاء الزعمـاء السـودانيين، ولا أظـن أن ثمـة اغـراء لطامـع اعظـم مـن مثـول بعـض زعمـاء الديـار المطمـوع فيهـا ، في ذل وصغـار ، متوسـلين غـزو ديارهـم الكبـيرة (السـودان)، واجتيـاح أوطانهـم الصغـيرة (ممالكهـم القبليـة) فقـط لاجتثـاث ود القبيلـة المنافـس ، ووضعهـم مكانـه ، مـع حفظ كامـل الحقوق للغـزاة. وبالفعـل ، بـدأت المكافـأة بمجـرد اجتيـاح الغـزاة الحـدود، حيـث تـم خلـع غـير المرغـوب فيهـم ، وتوليـة أهـل التمكـين الجـدد . لا بـد أن نصرالديـن الميرفابـي ، كان عـلى قـدر عظيـم مـن الـسرور ، يـوم خلـع زعيـم الميرفـاب واذلالـه ، وختـم ذلـك بجلوسـه عـلى عـرش الميرفـاب ، تحـت بنـود رايـات الغـزاة!

المحفز الرابع :

فضـلا عـن الحافـز المعنـوي ، ترتـب عـلى مثـول اولئـك الزعمـاء ، عـلى تلـك الهيئـة الزريـة، دليـل مـادي قـوي يؤيـد الباشـا في أحلامـه. كان لذلـك الحافـز قيمتـه المخابراتيـة ، حيـث أكـد للباشـا صحـة تقاريـر جواسيسـه حـول هـزال دولـة الفونـج ، ووصولهـا مرحلـة خـرف الدولـة التـي لا حـول لهـا ولا قـوة. ولـم تـك مثـل تلـك المعلومـات القيمـه لتفـوت عـلى نمـر متوثـب كالباشـا، فـإذا لـم تكـن السـلطنة العجـوز في أرذل عمرهـا ، لمـاذا أتـى كل هـؤلاء مسـتنجدين بـه بـدلا عـن سـلطان سـنار!؟ وتلـك كانـت الحقيقـة المؤلمـة لدولـة تخـوض وحـل أيامهـا الأخـيرة ، غارقـة في سفاسـف النزاعـات حتـى خـارت قواهـا ، لدرجـة اعجزتهـا عـن المقاومـة عندمـا اسـتباحوا عاصمتهـا ، ليستسـلم ملكهـا في صغـار ، وتبـدأ مرحلـة جديـدة مـن عمـر البـلاد اسـتمرت لسـبعة عقـود ، عرفـت بالحكـم التركـي المـصري.

---

٢٥ - احمد احمد سيد احمد. تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصري. ١٨٢٠ - ١٨٨٥م، ص ٥٣.

ونخلـص مـن ذلـك ، أولا، أن الاسـتعمار عندمـا وقـع علينـا ، لـم يجدنا ، في الأسـاس ، مجتمعـا صالحـا ليفسـدنا. ونخلـص ثانيـاً ، أن الاسـتعمار لـم يكـن سـببا رئيسـيا لبؤسـنا، الـذي كان موجـودا اصـلا ، وانمـا العكس صحيـح ، وهـو أنـه - الاسـتعمار - كان نتاجـا لسـلوكنا تجـاه بعضنـا ، وتصرفنـا تجـاه الوطـن!

الفصل الثالث
الغزو الثنائي الانجليزي المصري

بعد عقد وبضع سنين ، فكر. المصريون وخلفهم الإنجليز في إعادة غزو السودان ،فما كان حافزهم لإعادة المغامرة؟

المحفز الأول:

كان أول ذلك ، ما وقر في نفوسهم ، من امتلاكهم أرض وشعب السودان ، وفقا لقواعد القانون الدولي خلال القرن التاسع عشر. حيث كانت تقر بحق الفتح ، وحق السيادة على الآخرين [٢٦]. وبما أن غزو الآخرين ، من الشعوب المستضعفة، كان حقا مشروعا ، اعتقدوا بتملكهم الحق القانوني والشرعي ، بموجب غزو الباشا الكبير في ١٨٢١م. وبالتالي ، حق لهم استعادة ما سلب منهم!

المحفز الثاني:

وكان محفزهم الثاني وجود بريطانيا فوقهم كسلطة احتلال. إذ قر مكرهم على انه ، طالما لا طاقة لهم لإخراج المحتل الغاشم ، وتحرير بلادهم ، فليوجهوا مقتهم وشجاعتهم الكذوبة لاستعمار السودان. وقد رافق ذلك الاستعانة بسلطة الاحتلال في ممارسة ما تجيده ، احتلال الشعوب. ومن هذا الباب تستطيع استجداء تكلفة الغزو من خزينة المحتل الصديق. وفي الوقت ذاته ، تستطيع استخدام جيوشه ، بدلا من جيشهم المهلهل بعد حله رسميا من قبل المستعمر بعد ثورة عرابي ، وإعادة تجنيد جيش متواضع.

---

٢٦ - د.عبدالعظيم رمضان. أكذوبة الاستعمار المصري للسودان.الناشر/مكتبة الاسرة _ مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦م ، ص ٨٠

المحفزالثالث:

عــودة البــلاد في ظــل الحكــم المهــدوي إلى ذات حالهــا أواخــر عهــد الفونــج ، مــن ضعــف وانهــاك بســبب كثــرة تنــازع أهلهــا وخلافاتهــم. لقد أنفقــت الســلطة المهديــة جــل مواردهــا الماديــة والبشريــة في قمــع حــروب وتمــرد ، هنــا وهنــاك. في كل صقــع قاتــل المهدويــون الشــعب وقاتلهــم: الغــرب ، الجنــوب ، الوســط ،الشــمال ، والــشرق. وكانــت تكلفــة باهظــة أثــرت عــلى اســتقرار الأوضــاع ، خاصــة في مجــال الأمــن ممــا انعكــس ســلبا عــلى منشــطي الرعــي و الزراعــة ، عمــاد مــوارد الدولــة. في الواقــع ، عــادت البــلاد في ظــل الحكــم المهــدوي إلى حــال أســوأ مــن أواخــر أيــام حكــم الفــور والفونــج!

المحفز الرابع :

كذلــك ، كان مــن المحفــزات الأساســية تآمــر الســودانيين ضــد وطنهــم. وســجل المخابــرات الحربيــة المصريــة حافــل بعــدد معتــبر مــن مخاطبــات زعمــاء ســودانيين للغــزاة لإعــادة الكــرة. وكــذا ،اضطلــع كثــيرون غيرهــم، بــذات الــدور. وزادوا عليــه بالتخريــب الإقتصــادي المنهــج.اذ لــم تدخــر مــصر جهــدا لانهــاك البــلاد تمهيــداً للانقضــاض عليهــا. وفي ســبيل ذلــك جنــدت كامــل طاقتهــا لنهــب المــوارد وتهريبهــا. وكانــت أكثــر وســائلها جرمــا ووضاعــة صهــر العملــة الســودانية (ريــال الخليفــة وكان ذهبــاً خالصــا) وتهريبــه إلى مــصر ، إلى جانــب الوســيلة المعتــادة ، وهــي تزويــر العملــة الســودانية لإغــراق أهلهــا في البــؤس والمســغبة. في الواقــع ، يصعــب عــلى أي اقتصــاد النجــاة مــن مثــل هــذه الضربــة المزدوجــة: تخريــب مبــاشر للاقتصــاد ونهــب للخــيرات في آن!

المحفز الخامس:

وتجســد في الحــرب الحبشــية الســودانية التــي بلغــت ذروتهــا في العــام ١٨٨٨م. وقــد كانــت انموذجــا صارخــاً لتجســيد مفهــوم العلاقــات

الخارجية ، ومبدأ حسن الجوار في الذاكرة الأفريقية المشوهة، والتي ما زالت ، للأسف ، مسيطرة على الفضاء الافريقي ! وللانصاف ، كان ملك الحبشة يوحنا أكثر وعيا وتفهما للسياسة الدولية من المهديين ، وقد أثبت التاريخ تجنبه الحرب ما وسعه ذلك ، إلا أنه خاضها نهاية أمره مضطراً ، وقضى نحبه خلالها ، لتتصدع دولته ، التي كانت ، للسخرية ، ترس أمان للدولة المهدية نفسها ضد النفوذين الايطالي والفرنسي ، مما سهل على ايطاليا إحتلال كسلا بعد أقل من خمس سنوات في ١٨٩٣م.

مهما يكن ، تناحرت الدولتان الافريقيتان الجارتان بدلا من تعاونهما ، وانتصر السودانيون وخسرت افريقيا! انتصر السودانيون ، لكن بتكلفة اقتصادية ، عسكرية، وإنسانية باهظة، فقد أهدرت الدولتان الافريقيتان موارد مادية وبشرية مهوولة ، كانت كافية ، أن رصدت للتنمية تغيير حال البلدين ، وإنعاش اقتصادهما ، وبالطبع ، تغيير مصير القرن الأفريقي. لكن حدث العكس حيث غرقا في دوامة اقتصادية هائجة ، فقد أدى ذلك مباشرة بمجرد الانتهاء من الحرب إلى اشهر مجاعة سودانية ، وهي مجاعة سنة ستة (١٣٠٦) والتي وافقت عام ١٨٨٨ -١٨٨٩م. والتي قضت ربما على عدة مليون نسمة، أو على الأقل مئات الآلاف من الأنفس البريئة.

فضلاعن ذلك ، كانت التكلفة العسكرية لا تقل أهمية حيث (ابيد فيها الجهاديون الأصليون الأوائل عماد جيشه القوي.اؤلئك الذين تمثلت فيهم روح الجيش الحديث النظامي المدرب)[٢٧].

وبالطبع، قضت هذه الحرب على عدد عظيم من فرسان القبائل ، من الجيوش غير النظامية التي كانت تدخر سندا احتياطيا للجيش الرسمي. وقد عنت إبادة هذه الجيوش ، وجيش الجهادية خصوصا

٢٧ - عصمت حسن زلفو. كرري. تحليل عسكري لمعركة ام درمان. الناشر/مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي. الطبعة الرابعة ٢٠١٢م ، ص ٨٠.

، للمخابـرات الحربيـة المصريـة أن ظهـر السـودان قـد كـسر ، وان الوقـت قـد حـان لبـدء المغامـرة ، واسـتعادة السـودان لأهلـه المصريـين !

المحفز السادس:

كانـت معركـة توشـكي هـي المحفـز السـادس للغـزو الثنائـي. وقـد كانـت محفـزا ذا خصوصيـة وأهميـة بالغـة للمخابـرات الحربيـة المصريـة ، فقـد قدمـت دليـلا ماديـا قاطعـاً ، عـلى مـا حوتـه تقاريـر جواسيسـهم بعـد الحـرب الحبشـية ، مـن هـزال الدولـة السـودانية. فقـد انكـسر جيـش النجومـي انكسـارا مهينـا أمـام الجيـش الانجليـزي المـصري ، بـدد أسـطورة جيـش السـودان القـوي ، قاهـر جنـرالات الإمبرياليـة البريطانيـة العظمـى مـن لـدن هكـس باشـا حتـى غـردون! بعـد توشـكي ، فقـط ، ثبـت لهـم عيانـا أن الجيـش السـوداني لـم يعـد موجـوداً للدفـاع عـن دولتـه ، وقـد ازفـت الازفـه!

المحفز السابع:

وتمثـل في التقاريـر الاسـتخباراتية الكثيفـة والدقيقـة المتحصـل عليها من أسرى توشـكي. وتعتـبر اول عـون مبـاشر للحـرب القادمـة عـلى البـلاد ، اوجـز عصمـت زلفـو الأمـر حيـث كتـب (إن آلاف الأسرى الذيـن سـقطوا في أيـدي الجيـش المـصري أمـدوا ونجـت مديـر مخابـرات الجيـش المـصري ، بذخـيرة لأ تنفـد مـن المعلومـات، عـن دقائـق الخليفـة وجيشـه ،لـم يتوفـر مثلهـا الا بعـد سـنوات طويلـة ، وذلـك عنـد هـروب سـلاطين) [٢٨].

اذا ، كانـت تلـك بعـض أهـم "محفزاتنـا الوطنية"المسـاعدة للغـزاة لإعـادة مغامرتهـم ، والتـي لولاهـا ، لصعـب عليهـم ابتـداء التفكـير بشـأنها وهـم موقنـين مـن فشـلها. لكـن ، قدمـت لهـم هـذه المحفـزات كامـل الدعم والتشـجيع ، إن لـم تكـن الضمانـات ، لمبـاشرة الغـزو ، وهذه المحفـزات هي التـي سـهلت عـلى المصريـين اقـتراض التمويـل المـادي للغـزو. كمـا سـهل

٢٨ - عصمت حسن زلفو. كرري. تحليل عسكري لمعركة ام درمان ، ص ٨٦

لهـم غطـاء دبلوماسـياً ، وأخـيراً ، حشـد عتـاد عسـكري ودعـم لوجسـتي ،كان الأضخـم عالميـاً يومـذاك.

ونخلـص ، كذلـك ، أن الاسـتعمار الثنائـي الانجليـزي المـصري ، عندمـا جثـم علينـا كنـا أصـلا عـلى حـال مـن السـوء ، والأزمـات الوطنيـة الطاحنة.وبالتـالي ، يصـح القـول إن الاسـتعمار لـم يكـن سـببا جوهريـا لازمتنـا الوطنيـة ، وانمـا العكـس صحيـح، حيـث أنـه كان هـو نفسـه - الاسـتعمار - نتيجـة طبيعيـة لسـلوكنا تجـاه بعضنـا بعضـا ، وممارسـاتنا السياسـية تجـاه الوطـن !

الفصل الرابع
فترة الاستعمار الثنائي

كان اعتقـاد السـودانيين ، إبـان حقبـة الحكـم الثنائـي ، مطابقـا لاسـلافهم في حقبـة الحكـم التركـي المـصري ، حيـث صدقـوا بقناعـة مدهشـة ، أن اس بلائهـم هـو الاسـتعمار ، دون سـواه ، وقـد ترسـخ ظنهـم هـذا لأكثـر مـن نصـف قـرن مـن الزمـان. ومـع ذلـك ، كان ثمـة تطـور ملفـت إزاء فهمهـم لمصطلـح "اسـتعمار" ، إذ كان يعنـي عنـد بعضهـم أن المقصـود منـه دولتـي الاسـتعمار ، انجلـترا ومـصر ، بينمـا كان يعنـي عنـد البعـض الآخـر أن المقصـود منـه انجلـترا فحسـب ، إذ لا يشـمل المصطلـح المصريـين! ثمـة ملاحظـة عجيبـة عنـد النظـر إلى تاريخنـا المرتبـط مـع مـصر ، وهـي أنـه مـن النـادر أن ينظـر السـودانيون إليهـا كمسـتعمر ، لـكأن المصطلـح لا يشـملهم ، فالمصريـون الذيـن شـاركوا الاتـراك في غزوهم نـكاد لا نراهـم حـين نقـول "العهـد التركـي المصري"وكثـيراً مـا تـؤول الجملـة إلى "العهـد التركـي"أو "عهـد الاتـراك"أو "التركيـة السـابقة". فالاتـراك وحدهـم مسـتعمرون أمـا المصريـون ف"أصحـاب حـق"! ويفسر ذلـك أول ثـورة لجنـود سـودانيين بـدء أيـام الحكـم الانجليـزي المـصري، غـداة توقيـع اتفاقيـة الحكـم الثنائـي بـين مـصر وبريطانيـا في ينايـر ١٨٩٩م.[٢٩] فقـد غضـب المصريـون مـن تقاسـم بريطانيـا لهـم اسـتعمار السـودان ، الـذي يرونـه حقـا خالصـا ، وبتحريـض خبيـث ، اوعـزوا للفرقـة السـودانية التمـرد ضـد الحـدث ، وقـد كان أن غضبـت الفرقـة السـودانية لغضـب "أصحـاب الحـق". وسـنتناول ثـورة ١٩٢٤م. لاحقـا ،

٢٩ - ب. م . هولت. المهدية في السودان ، ص ٢٧٤.

إن شـاء اللـه ، لنجـد أن شـعارها الرئيـس كان التنديـد بالتـاج البريطانـي وتمجيـد التـاج المـصري ! وبالتـالي ،لـم يكـن هدفهـم تحريـر السـودان فحسـب ، وانمـا تحريـره مـن المسـتعمر البغيـض "الإنجليـز" ووضعـه تحـت التـاج المـصري ، اي تسـليمه إلى أهلـه! لمـاذا أخفـت مناهـج التعليـم هـذه الحقيقـة ، ولـم تضعهـا عاريـة بـين يـدي جيـل لـم يسـمع بهـا إلا كمـا يسـمع الاسـاطير؟ لمـاذا ، لـم تحدثهـم أن عـلي عبداللطيـف ، وزيـن العابديـن عبـد التـام وصحبهـم الكـرام ، كانـت شـعاراتهم الأساسـية "تحيـا مصر"والاسـوأ منهـا "عـاش ملـك مـصر والسـودان"!

كان الميرغنـي حليفـا مؤكـدا وداعمـا للغـزو ، ومـع ذلـك سرعـان مـا دفـع ثمـن الـصراع المحتـدم بـين الشريكـين المسـتعمرين المتشاكسـين ، إذ حسـبه الإنجليـز حليفـا مؤكـدا للمصريـين ،ونكايـة في ذلـك ، دعمـوا وريـث المهديـة اليافـع ، السـيد/عبد الرحمـن المهـدي، .وقـد هـدف الانجليـز إلى تحقيـق شـيئين : ايقـاف المـد الاشـتراكي ، والنفـوذ المـصري عـلى السـواء. وتـم لهـم ذلـك (عـبر تخصيـص الأراضي والسـلفيات الهائلـة ، وتغـير وضـع عبـد الرحمـن المهـدي بشـكل مذهـل[٣٠]. والمفارقـة كانـت في شـمول الدعـم حتـى المطالبـة بخـروج الشريكـين ، اي المنـاداة بالاسـتقلال التـام ، وخـروج المصريـين والانجليـز معـا! وبعـد سـنوات ، ونتيجـة تطـورات معلومـه، في العـام ١٩٤٥م. تـم تاسـيس أول حـزب سـياسي ، مـن قبـل دعـاة الاسـتقلال التـام ، أطلـق عليـه حـزب الأمـة. ومن بعـد ، أسـس دعاة الوحـدة مـع مـصر حزبهـم ، واسـموه حـزب الأشـقاء ، وكان شـعارهم وحـدة وادي النيـل – السـودان ومـصر – تحـت التـاج المـصري.!

كان الخريجـون منقسـمين حـول هذيـن الحزبـين ،ومـع ذلـك ،اتفقا على قاعـدة ذهبيـة هي(مناهضـة كل مـا تؤيـده حكومـة السـودان)[٣١]. انطلاقـا

٣٠ - د.فرانسيس دينق. D.Francis M. Deng صراع الرؤى ، نزاع الهويات في السودان. ترجمة/د.عوض حسن محمد احمد. الناشر/١٩٩٥ The Brookings Institution Washington D. C مركز الدراسات السودانية. الطبعة الثانية ٢٠٠١م ، ص ٦٠.

٣١ - احمد خير المحامي. كفاح جيل. ألناشر/الدار السودانية للكتب ٢٠٠٢م ، ص ٨٤

مـن دوافـع متباينـة : حيـث يراهـا الاسـتقلاليون "حكومـة مصريـة إنجليزيـة مسـتعمرة"، بينمـا يراهـا الوحدويـون "حكومـة إنجليزيـة مسـتعمرة"!

عـلى كل ، أدت رؤيـة الاسـتعمار كجوهـر البـلاء إلى الكفـر بـكل مـا أتـى منـه ، وإن كان خـيرا، لقـد قاطـع السـودانيون مؤسسـات الدولـة التي كانت موجهـة لخدمـة المجتمـع. فرغـم أن المجلـس الاستشـاري لشـمال السـودان كان فيـه مكاسـب للحكومـة ، لكـن المكسـب الاعظـم كان تدريـب شـعب، لأول مـرة في تاريخـه ، عـلى مؤسسـات الحكـم المدني.ومـع ذلـك أعـرض عنهـا المتعلمـون ، ومـلأت الحكومـة الفـراغ بـالادارة الأهليـة وموظفيهـا. نعـم كان مصـدر المجلـس الاستشـاري الحكومـة ، لكـن جـدول أعمالـه كان موجهـا لخدمـة المجتمـع. لقـد افتتـح المجلـس الاستشـاري أعمالـه بقانـون الخفـاض ولوائـح تعاطـي الخمـور [٣٢]. ومـع أهميـة التشريعـين ، آنـذاك ، إلا أن السـخرية كانـت هـي المقابـل مـن رأي عـام تسـيطر عليـه النخبـة غـير المسـتبصره. واليـوم ، بعـد سـبعة عقـود ، مـا زال الخفـاض لعنـة تطـارد كثـيرا مـن الفتيـات البائسـات ، وتطـورت الخمـور لتتحـول إلى أنـواع أخـرى مـن الادمـان المدمـر !

يجـدر بـي التوقـف قليـلا ، عـلى سـبيل النقـاش العابـر ، عنـد مشـكلة مسـتحكمة في الشـخصية السـودانية ، وهـي "الرفضيـة". فعنـد اتخـاذ القـرار لا تفعـل ذلـك بعقـل منفتـح ،يسـتخلص الحكمـة مـن أي شـئ ، أو جهـة أو شـخص. وانمـا تتقبلهـا أو ترفضهـا متأثـرة بظـروف لا علاقـة لهـا بالأمـر. وهـو سـلوك غـير رشـيد. فالاصـل أن يكـون العقـل منفتحـا ، بحيـث يمكنـه الاسـتفادة مـن فكـرة جيـدة ، وإن أتـت مـن عـدو! ولناخـذ مثـلا ، إذا حـذرك عـدو مـن السـقوط في النـار ، أو أي خطـر وشـيك ، فهـل تتجاهـل التحذيـر لصـدوره منـه؟!

---

٣٢ ـ نفس المرجع ، ص٧٨.

هـــذا بالضبـــط مـــا فعلـــه آبـــاء الاســـتقلال ، حينمـــا كانـــوا يـــصرون عـــلى رفـــض كلمـــا جـــاء مـــن حكومـــة الســـودان. وهـــو ســـبب رفضهـــم غـــير الموفـــق للانخـــراط في المجلـــس الاستشـــاري لشـــمال الســـودان ، وإثـــارة المشـــاكل حـــول الجمعيةالتشريعيـــة. لقـــد خـــسرت البـــلاد كثـــيرا بمثـــل ردود الفعـــل تلـــك. نعـــم ، كانـــت لهـــم حججهـــم وتحفظاتهـــم ، ومـــع ذلـــك ، الـــم يكـــن مجديـــا انخراطهـــم في هـــذه المؤسســـات الديمقراطيـــة ليتعلمـــوا ممارســـتها؟ إن فكـــروا بعقـــل منفتـــح ، كانـــوا ليعتبروهـــا فـــترة تدريـــب عـــلى النظـــم الديمقراطيـــة ،ولـــئن فعلـــوا ، لكانـــوا قـــد أكملـــوا دورتـــين ، عـــلى الأقل ، قبـــل الاســـتقلال تكـــون لهـــم نبراســـا بعـــده.

إن تجاهـــل النخبـــة التشريعـــين المذكوريـــن _ قانـــون الخفـــاض ، ولوائـــح تعاطـــي الخمـــور _ لـــم يغـــير مـــن الواقـــع شـــيئاً ، ذلـــك الواقـــع الـــذي ظـــل يؤكـــد معانـــاة البـــلاد مـــن هاتـــين المشـــكلتين منـــذ وقـــت طويـــل. فالخمـــر كانـــت قـــد أخـــذت حيـــزا كبـــيراً ، مـــن جهـــد الدولـــة المهديـــة ممـــا يثبـــت أنها كانـــت مشـــكلة خطـــيرة آنـــذاك. وبعـــد الاســـتقلال لـــم تكـــن الخمـــر مشـــكلة محليـــة فقـــط ، وانمـــا عانـــى منهـــا العالـــم. فقـــد انـــب ســـكرتير الحـــزب الشـــيوعي الســـوفيتي الشـــعب ، خـــلال مؤتمـــر الحـــزب في العـــام ١٩٧١م ، عـــلى كثـــرة تعاطـــي الخمـــور ، الســـبب الـــذي أدى إلى ضمـــور الإنتـــاج [٣٣].

لقـــد كان الاسراف في شرب الخمـــر أزمـــة حـــاضرة بعـــد الاســـتقلال. حتـــى أنهـــا تحولـــت إلى أحـــد أهـــم قضايـــا الـــرأي العـــام خـــلال الســـتينات والســـبعينيات مـــن القـــرن العشريـــن. والأغـــرب أن الإنتـــاج تضاعـــف عندمـــا وضعـــت مصانـــع التقطـــير تحـــت يـــد الســـودانيين بعـــد قـــرارات التأميـــم! كتـــب مزمـــل غنـــدور مذهـــولا (فقـــد ضاعفنـــا إنتاجنـــا مـــن الخمـــور والكحـــول في الســـتة أشـــهر الأولى بـــين ســـنتي ١٩٦٩ _ ١٩٧٠م. ثـــم ازداد الإنتـــاج بنفـــس القـــدر ، أي أصبـــح في ســـنة ١٩٧١م. ثلاثـــة أضعـــاف مـــا

---

٣٣ ـ مزمـل سلمان غنـدور. مشـكلات الريـاح. الناشـر/ الـدار السـودانية للكتـب. الطبعـة الأولـى ١٩٧٤م ، ص١٢.

كان عليـه في سـنة ١٩٦٩. وليـس مـن المعقـول أن يكـون كل هـذا الإنتـاج قـد خـزن أو صـدر ، بـل مـن المعقـول حقـا أن يكـون هـذا الإنتـاج قـد استهلك بواسـطة مواطنـي جمهوريـة السـودان الديمقراطيـة، وان زجاجـه الفـارغ قـد جمـع بواسـطة حامـلي الزجـاج الذيـن كثـر عددهـم في الاونـه الأخـيرة مـع كثـرة الزجـاج ، ورواج السـلعة ، وأصبـح صياحهـم _ المـا قـزاز _ لا ينقطـع عـن الاذان في كل مـكان) [٣٤].

وأمـا الخفـاض ، فـكان واقعـاً مؤلمـاً يحتـاج علاجـا جذريـاً. ومـن فـرط خطورتـه ، اخـذ مسـاحة مقـدرة مـن وقـت حاكـم السـودان في العهـد التركـي المـصري ، إذ يقـال إن الحكمـدار جعفـر مظهـر سـعى إلى إبطـال عـادة الخفـاض الفرعونـي عنـد البنـات ، في سـتينيات القـرن التاسـع عشر ، وكان يقـاضي النسـاء اللاتـي يتولـين إجراءهـا [٣٥].

فهـل يعقـل أن ينتبـه الحكمـدار التركـي لمشـكلاتنا الحقيقيـة ، قبـل قـرن تقريبـا ، ويـشرع في علاجهـا ، ولا تنتبـه النخبـة بعـد مائـة عـام مـن انتباهـه؟! وهـل يعقـل أن تكـون السـخرية هـي المقابـل ، مـن رأي عـام تسـيطر عليـه النخبـة غـير المسـتبصره؟!واليوم ، بعـد سـبعة عقـود ، مـا زال الخفـاض لعنـة تطـارد كثـيرا مـن الفتيـات البائسـات وتطـورت الخمـور لتتحـول إلى أنـواع أخـرى مـن الادمـان المدمـر!

مهمايكـن ، اتفـق السـودانيون ، خـلال عهـد الحكـم الثنائـي ، عـلى أن الاسـتعمار ، دون سـواه ، هـو اس البـلاء ، واجتهـدوا حتـى اخرجـوه ، ومـع ذلـك بقيـت الأزمـة تـراوح مكانهـا ولـم تخـرج معـه. في الواقـع ، سـاءت الأحـوال أكثـر خـلال الحكـم الوطنـي ، بعـد نيـل الاسـتقلال التـام !

---

٣٤ ـ نفس المرجع ، ص١٣.

٣٥ ـ د. أحمد سيد أحمد ، تاريخ مدينة الخرطوم ، ص٣٧٣.

الفصل الخامس
ملاحظتان مريكتان

على ضوء المسرود ، نخلص إلى ملاحظتين محيرتين ، هما تقدم البلاد في ظل الحكم الاستعماري ، وتخلفها خلال عهد الحكم الوطني بعد الاستقلال. ويشمل ذلك مقارنة عهد الاستقلال الأول – الحكم المهدوي – بالحكم التركي المصري. وكذا ، حكومة الحكم الثنائي بحكومات ما بعد الاستقلال.

ومن منطلق عام ، يمكن ملاحظة فارق أساسي بين المستعمر والحكم الوطني يتجسد في الرؤية. فالمستعمر ، غالبا ، يمتلك رؤية واضحة ، وتركيز شديد على هدفه المحدد مسبقا ، وهو ما تفتقر إليه الثورات الشعبية، التي في الغالب تكون رؤيتها مشوشة لدرجة التشوه ، وبالتالي ، تشتت الأهداف. إن المستعمر لا يبدأ مغامرته ، على الأرجح ، الا بعد دراسة متأنية ، وهو ما نجده في الاستعمار الأوروبي عموما ، الذي ظل لعقود طويلة ، يدرس ما حوله من شعوب قبل غزوها. لقد جابت سفن الكشوف الجغرافية أعالي البحار لأكثر من قرن ، على الأقل ، قبل هبوط الاستعمار على اليابسة ، وقد أنجز خلالها مئات البحوث حول كل ما يلزم : الأرض ، السكان ، حتى الأمراض والنباتات ، وغير ذلك. ومن بعد ، وفد الرحالةالذين جابوا الفيافي وكتبوا عن كل شيء، ونشرت مطابع اوربا الشرهة كل شيء ، والتهمت العقول ما طبع ، لذا كان الغزو الاوربي شديد التركيز على أهدافه على نحو ما قرأنا.

وذات الأمر ، رأيناه في غزو محمد علي باشا ، الذي تم الإعداد له ، قبل سنوات طويلة من بدئه. لقد أرسل جواسيسه لسنوات متخفين تارة في شكل بعثات علمية ، وأخرى في شكل بعثات تجارية ، دبلوماسية ، دينية وغيرها. وحتى قبيل الغزو كانت بعثاته تجوب فضاء البلاد. وفي خاتمة المطاف ، اعد حملتيه على سنار وكردفان ، ونجح نجاحاً كبيراً.

كانت النتيجة المباشرة لوضوح رؤية الاستعمار هي التطور المادي والفكري للبلاد المستعمرة. حتى يصح القول إن التطور هو العرض الجانبي للاستعمار. وتفسير ذلك بسيط للغاية : فهو يرغب في استغلال خيرات البلاد التي استعمرها ، وليس بمقدوره فعل ذلك إلا بأن يقوم ، مرغما ، بتطوير البنى التحتية اللازمة. بذا ، لم يكن اهتمام محمد علي باشا بالزراعة ، الصناعة ، والتعليم ،إلا لخدمة اهدافه ، وهي استغلال الخيرات الوفيرة ، ولا يتأتى له ذلك إلا بتسهيل عمل موظفيه.

اذا، لئن (كان الحكم التركي المصري واحداً من أكثر النظم قسوة و وحشية من ناحية القهر وجمع الضرائب) [٣٦]. فإن هذا لا يجرده من حسناته ، في الإدارة ،والتنمية الاقتصادية، والتجارة والزراعة، فضلا عن إدخال وزراعة قصب السكر وشجرة النيله على نطاق واسع ، حتى غدت النيله أحد المحاصيل الرئيسية التي يصدرها السودان قبل سيادة الاصباغ الصناعية [٣٧].

وفي هذا السياق ، تبدو رؤية الباشا واضحة جداً ، خلال مخاطباته لموظفيه في السودان ، فقد جاء في إحداها :(ومن أجل تعمير الزراعة في سنار التي فتحناها بجهد كبير ، نحتاج الى فنيين لهم دراية ، فلا

٣٦ ـ د.شريف حرير. ود.تيرجي تفيدت. السودان ، الانهيار أو النهضة. ترجمة/مبارك علي عثمان _ مجدي النعيم. الناشر/ مركز الدراسات السودانية. الطبعه الاولى ١٩٩٧م ، ص٢٥

٣٧ ـ محمد أحمد محجوب ، الديمقراطية في الميزان ، ص٢٤.

تهملوا هذا الأمر وإلا ستندموا عليه كثيرا) [٣٨]. وكذا، كتب للمسؤولين في الخرطوم وبربر وكافة الأهالي :(كونوا مجتهدين غاية الاجتهاد في الحراثة والزراعة ، فإنها موجبة إلى عمار بلادكم و والأوطان) [٣٩]. وفي ١٨٥٧م. صدرت اللائحة السعيدية للاطيان - نسبة إلى وإلي مصر محمد سعيد باشا - وهي بمثابة قانون الزراعة اليوم، فأحدثت تطورا وتنظيما للنشاط الزراعي. وكذا ، تم ابتعاث الفنيين من مصر الى السودان لتدريب الأهالي على أساليب متطورة. وابتعاث بعض السودانيين لدراسة الزراعة في مصر لمدة ثلاث سنوات [٤٠]. بعد عام ١٨٦٥م. تطورت خدمة البريد فكان يصل إلى الخرطوم خلال أربعة أيام ، ومن الفاشر إلى الخرطوم خلال ١١ يوم. [٤١]. وفي عام ١٨٦٧م. شارك السودان في معرض باريس الدولي ببعض الصناعات. [٤٢]. كذلك، كان السودان متطوراً في صناعة البواخر التي تصنعها دار الصناعة - الترسانة - ولم يكن السودانيون يعرفونها قبل ذلك [٤٣]. وكانت الحكومة تمتلك ١٧ باخرة ومراكب خشبية كثيرة (كانت البواخر ، عدا ثلاث مستورده من انجلترا) [٤٤]. وكانت مشروعات السكك الحديدية قيد الدراسة عندما هبت أعاصير الثورة المهدية. [٤٥]. كانت التجارة منتعشة بفضل التجارة المفتوحة مع الخارج. وأسهم وجود تجار اجانب خبراء في كثير من الصناعات مثل الزيوت والصابون الذي كانت الكاملين اهم مدينة لصناعته. وكذا ، انتعشت صناعة الذهب وغيرها وجلب مستر ماركيت من أوروبا آلة تعمل على تصنيف

---

٣٨ ـ د.ابكر ادم اسماعيل.جدلية المركز والهامش.الناشر ، منظمة حقوق الإنسان والتنمية (HODO). الطبعة الثانية ٢٠١٥م. ، ص ٢١٦. نقلا عن القدال.

٣٩ ـ المرجع نفسه ، ص ٢١٦. نقلا عن القدال.

٤٠ ـ المرجع نفسه ، ص ٢١٧. نقلا عن القدال.

٤١ ـ د. أحمد أحمد سيد أحمد ، تاريخ مدينة الخرطوم.ص ٢٢٣.

٤٢ ـ د. أحمد أحمد سيد أحمد ، تاريخ مدينة الخرطوم. ص١٥٥.

٤٣ ـ د. أحمد أحمد سيد أحمد ، تاريخ مدينة الخرطوم. ص ١٣٥

٤٤ ـ د. أحمد أحمد سيد أحمد ،تاريخمدينة الخرطوم. ص١٦٧.

٤٥ ـ د. أحمد أحمد سيد أحمد ، تاريخ مدينة الخرطوم. ص ٢٢١.

وتنظـــيف الصمـغ العربــي حســب نوعــه وحجــم قطعــه[٤٦]. فضــلا عــن صناعــة الذخــيرة وغيرهــا مــن صناعــات التســليح. لقــد تضــاءل كل ذلــك ، وتوقــف أكثــره ، عندمــا هبــت ريــاح الثــورة المهديــة!

ومــع ذلــك ، كان أهــم تطــور للدولــة الســودانية الحديثــة ، عــلى الإطــلاق ، هــو توقيــع اتفاقيــة منــع التجــارة بالــرق عــام ١٨٧٧م. في خواتيــم عهــد الاســتعمار التركــي المــصري ، حيــث تكللــت جهــود أكثــر مــن قــرن ، أمضاهــا أنــاس عظمــاء في محاربــة التجــارة الملعونــه. وبالتــالي ، تلــك كانت بدايــة ميــلاد الدولــة الســودانية الحديثة(رغــم عــدم الاكــتراث بالحــدث وتاريخــه ، والمفارقــة ، حتــى مــن غــلاة دعــاة حقــوق الإنســان وحرياتــه اليــوم)! ولادراك عظــم هــذا التطــور ، نقــارن بــين خطابــي مؤســس الدولــة التركيــة المصريــة في الســودان ، الباشــا الكبــير لقادتــه إبــان الغــزو ،خــلال الســنوات الأولى مــن عمرهــا. وبــين خطــاب أحــد أحفــاده الذيــن تولــوا حكــم مــصر بعــده بعقــود. كانــت خطابــات الباشــا الكبــير لقادتــه تــدور ، بوضــوح شــديد ، وتركيــز كبــير حــول "صيــد العبيــد" ، ويحــث عــلى جلبهــم بــاي كيفيــه ، لأن جلبهــم هــو المــراد، وغــير ذلــك مــن خطابــات فجــة قميئــة. وعنــد مقارنــة ذلــك مــع خطــاب حفيــده ، وإلي مــصر ، الصــادر ك"أمــر عالي"بتاريــخ ١٥/ربيــع ثاني/١٢٩٧هجريــه. الموافــق مارس/ ١٨٨٠م.(قبــل ســنة تقريبــاً مــن انــدلاع الثــورة المهديــة). ويتعلــق بتعيــين رؤوف باشــا حكمــدارا عــلى الســودان. وممــا جــاء فيــه : (رابعــا ، مــن المعلــوم أن مســألة "منــع تــداول وبيــع الرقيق"هــي في غايــة الأهميــة. أولا ، أن بيــع الرقيــق أمــر مخالــف للإنســانية ، ويخــل باحــترام بنــي ادم المنصــوص عليــه بالتكريــم. ثانيــاً ، مــن الواجــب المتعــين علينــا إبقــاء شرائــط المعاهــدة المعقــودة بــين حكومتنــا الخديويــة والحكومــة الانجليزيــه في إبطــال تجــارة الرقيــق ، ولــو أن مــا نعلمــه ونثــق بــه مــن أفكاركــم في هــذه المســألة ،ومــا أنتــم عازمــون عليــه مــن المســاعي الحميــدة لمحــو

---

٤٦ ـ المرجع السابق ، ص ١٥٤.

آثــار هــذه التجــارة الذميمــة لا يســتوجب تكــرار التأكيــد، إنمــا رأينــا مــن الواجــب علينــا أيضــا إثبــات مــا نحــن عليــه مــن شــدة العــزم والثبــات في هــذه المســألة لتوفقــوا أعمالكــم في مــا تتخذونــه مــن الوســائط المؤثــرة، والاحتياطــات اللازمــه لذلــك ، لكــي لا يســمع مــن الآن فصاعــدا بحصــول أمــر مغايــر مــن هــذا القبيــل في كافــة البــلاد والطــرق المودعــة تحــت ادارتكــم)[٤٧].كان ذلــك الخطــاب ، في تقديــري ، أول ميــلاد لتأســيس الدولــة الســودانية الحديثــة ، وأكثــر لحظــة مضيئــة خــلال تاريخــه ، مضيئــة حتى مــن لحظــة رفــع علــم الاســتقلال. فهــي ، في الواقــع ، بدايــة الاســتقلال الحقيقــي ، يــوم اعــترف بالإنســان ، لأول مــرة ،بكونــه انســان. ففــي يــوم الاســتقلال تــم اســترداد كرامتنــا السياســية ، بينمــا في ذلــك اليــوم ، يــوم توقيــع اتفاقيــة منــع التجــارة بالــرق ، تــم اســترداد كرامتنــا الإنســانية ، ولا يجرمنــا شــنان أن وقــع ذلــك بايــدي الاســتعمار! لقــد كانــت تلــك اللحظــة بدايــة الطريــق المــشرف للأمــة الســودانية ، الــذي قطعــه ، إعصــار الثــورة المهديــة!

الثورة المهدية :

كانــت ميزتهــا أنهــا حكــم وطنــي خالــص ، لا مــكان فيــه لاجنبــي ، ولهــا حســنات لا تنكــر أهمهــا دمــج الســودانيين في اكــبر شــكل ممكــن ، فجــأة اتصــل الــكل بالــكل ، شــعوب وقبائــل ، ظــل أثــره قائمــاً إلى اليــوم . ففــي هــذا العهــد عــلى قــصره ، تحولــت قبائــل بأكملهــا إلى بقــاع لــم تكــن تالفهــا ، خــلال الحــرب والســلام ، فنشــات مــدن هنــا وهنــاك ، فــكان ســببا حقيقيــاً لتمــازج بــين النــاس إلى يومنــا هــذا.

ومــع ذلــك ، تميــز العهــد المهــدوي جميعــه _ عهــد المهــدي وخليفتــه _ بشــدة التدهــور الاقتصــادي والاجتماعــي والإنســاني. أمــا التدهــور الاجتماعــي فقــد (كانــت المهديــة ، في حملاتهــا الاولى ، ومــا حــدث بعــد قيام دولتهــا مغامــرة باهظــة الثمــن لأن تدهــور القانــون ، والنظــام والمجاعــة

٤٧ ـ نعوم شقير. جغرافية وتاريخ السودان. الناشر/دار الحياة للنشر والتوزيع ، ص ٦٥٥.

الناتجة عن الجفاف و الحرب ، وعدم مقدرة الدولة لمجابهة الطوارئ ، والحالة الهوبسينية العامة ، أي الاقتتال التي عمت كل أنحاء القطر ، تجعل ما حدث في الصومال والبوسنة بالمقارنة أموراً طفيفة) [٤٨].

وعلى النول ذاته ، نسج د.تكنه ، واصفا المهدية في دارفور خلال سنوات ١٨٨٢ _١٨٨٩م. بأنها سنوات الحزن والخراب بدارفور ، وهي السنوات التي مازال يطلق عليها فترة "ام كواكيه" . وهو تعبير عند أهل دارفور بالذات لدى البقارة، يعني الفوضى العارمة والتخلي عن ضوابط العرف والقانون ، والركون إلى القوة المجردة.[٤٩] فإذا أضفنا إلى ذلك ما حدث في الوسط ، الشمال ، الجنوب والشرق إبان حكم المهدية ، تأكدنا أن المجتمع السوداني كان آمنا في ظل الحكم الاستعماري ، مفزوعا مرعوبا ، خلال الحكم الوطني!

أما التطور الاقتصادي والصناعي الذي تحقق في عهد الحكم التركي المصري فقد غدا أثرا بعد عين ، حيث تضاءلت التجارة لأقصى حد ممكن ، حتى المكاده "تجار الحبشة" انكمشت تجارتهم تجارتهم ، بفعل افاعيل حمدان ابي عنجه وخليفته الزاكي طمل وزبانيتهما!

التدهور السياسي :

حيث سبق أن أوضحنا مدى اهتراء النسيج السياسي الداخلي ، بقتال المهدويين الشعب في كل مكان ، وقتال الشعب إياهم. أما التدهور السياسي الخارجي ، فقد كان سمة فارقة للدولة المهدية وعلامة مميزه. فيكفي أن نعلم أنها لم يكن لها علاقة طبيعية ، إقليميا أو دولياً ، بدولة أخرى ، حتى لو كانت دولة واحدة! وسبب ذلك أنها قسمت العالم فسطاطين ، لا ثالث لهما ، دار الحرب ودار

---

٤٨ - د.فرانسيس دينق. D.Francis M. Deng صراع الرؤى ، نزاع الهويات في السودان ، ص ٥٥

٤٩ - د.يوسف سليمان سعيد تكنه. دارفور، صراع السلطة والموارد. ١٦٥٠ _ ٢٠٠٢م ، ص٦١.

الاسلام: فكل بلاد لا تدين بالإسلام هي بالضرورة دار حرب ، ابتعث المهدي لدعوتها للدخول في الاسلام او مقاتلتها حتى تعطي الجزية عن يد وهي صاغرة ، ولم ينته عدوانها عند أبواب دار الحرب ، وانما امتدت إلى دار الإسلام حين فرضت على أهلها التعامل معها بنسختها الخاصة من الإسلام ، فما كان من عجب حين شملت انذاراتها الموجهة لحكام الكفار (الملكة فكتوريا والملك يوحنا) حكاما للمسلمين ، على رأسهم خليفة المسلمين في تركيا ، والخديوي في مصر ، وغيرهم. ويعود ذلك إلى نهج المهدية الذي كان شديد الخصوصية فيما يتعلق بفهم النصوص. يقول د. منصور خالد عن تطبيق قواعد الدين وفق مفاهيم المهدية (قام نظام الحكم فيها أساساً على الكتاب والسنة. إلا أن إنفاذ الكتاب والسنة ظل محكوماً في المهدية بتفسير الامام ، ومن بعده خليفته لهما. وقد اعتبر الخروج على ذلك التفسير كفرا ونكرانا ، لا اجتهادا نقيضا)[٥٠]. وتلك كانت قمة المأساة لدولة تحبو على عتبات عصر جديد لحقوق الإنسان ، وبروز قانون دولي جديد. وبذلك كان نصيبها أسوأ علاقة بجار ، ألقى ذلك جميعه تبعاته المهلكة على الوطن والمواطن!

وضعية الإنسان :

أما فيما يتعلق بوضعية الإنسان وحرياته فقد هوت مرة أخرى إلى مستنقع الاسترقاق مباشرة ، فبعد ذلك الخطاب العظيم من الخديوي لحكمدار السودان رؤوف باشا ، تبدد في الهواء قوله (إن بيع الرقيق أمر مخالف للإنسانية ، ومخل باحترام بني ادم المنصوص عليه بالتكريم). بعد كل هذا التطور المذهل في عهد المستعمر البغيض ، انزلقت مكانة الإنسانية إلى درك سحيق في عهد الحكم الوطني ، الذي ابتدأ من يومه الأول ببناء زريبة ضخمة يزرب فيها الإنسان ، بعد أن أعيدت تسميته رقيقا ، وأصبح الخطاب الرسمي من مؤسسات

٥٠ ـ د. منصور خالد. الفجر الكاذب ، نميري وتحريف الشريعة. الناشر/دار الهلال ، ص ٢١.

السلطة الوطنية يناديه ب"حر وعبد" ، ويشرعن المسألة بصورة أكثر تفصيلا الي "جاريه ، سريه ، خادم ، خليله" وغيرها من المسميات. واعيد بيع الإنسان على مرمى حجر من غرفة نوم المهدي ، ومن بعد خليفته ، وقاضي قضائه ، ومن هم دونهم ، ولا عزاء لاتفاق ١٨٧٧م الوضيء !

الحكم الثنائي :

دون عناء يجد المرء أن أعظم مشاريع البلاد قد أنجزت ، أو على الأقل ، تم تخطيطها في عهد الاستعمار ، وأول ذلك استعادة اتفاقية منع تداول وبيع الرقيق ١٨٧٧م. لكن في نموذج أكثر تطور ، حيث تحولت من مجرد اتفاقية بين حكومتين اجنبيتين(حكومتا الخديوي وبريطانيا) إلى تشريع وطني في شكل قانوني صارم يحرم ويجرم تجارة الرقيق ، وينص ، سرا ، على أن كل مولود في ، أو بعد ، العام ١٨٩٨م. يعتبر ، حكما ، أنه قد ولد حرا. ومع أننا هنا لسنا بصدد الغوص في أعماق قضية الرق ، والتي سنتعرض لها لاحقا ، إن شاء الله ، يقتصر جهدنا هنا على تبيان الفرق بين حكم وطني يشرعن ، ويمارس رسميا بيع واستغلال بعض مواطنيه ، وبين حكم استعماري بدا منذ وصوله في تحريم وتجريم ذلك!

ربما جسدت سكك حديد كتشنر ابلغ تعبير عن كون التطور والإعمار اعراض جانبيه ملازمة للاستعمار. . فعندما قرر كتشنر إبادة أسلافنا ، بنى سكك حديد تمكن عبرها من تحقيق هدفه ، فتناثرت اشلاؤهم على سفوح جبال كرري لوقت طويل ، وبعد وقت أطول هلك كتشنر وجنوده اجمعين ، وبعد وقت أطول مازالت سكك حديده أحد أهم مكتسبات الاحفاد اليوم ، تحملهم وبضائعهم فرحين ، ولولاها لاصابهم ضنك شديد. من يصدق ، اليوم ، أن ثعبان كتشنر الحديدي هذا تحول إلى أحد اعز ايقوناتنا الوطنية ، وتاج فخرنا ، ولئن

كنـت في شـك مـن ذلـك فأسـال "البلابل"عـن قطـار شـوقهن الحنـين!

السـؤال المؤلـم ، هـو كيـف لكتشـنر وهـو في سـبيل الحـرب والتدمـير أن يبنـي ، بينمـا نحـن نهـدم حـين نبنـي؟! أن سـك الحديـد التـي شـيدها ، كان هدفهـا الأسـاسي قصـير المـدى يتمثـل في كسـب الحـرب ، الخـراب والدمـار. ومـع ذلـك لـم يتلاعـب في مواصفاتهـا الهندسـية ، بـل جعلهـا الامتـن ، الاقـوى لدرجـة تحولهـا بعـد إنجـاز مهمتهـا الأساسـية "الحـرب والخـراب" إلى أهـم معـول بنـاء ونمـاء لأكثـر مـن قـرن ، واليـوم ، نحـن مفضوحـين في أي كـبري انشـاناه ، أو طريـق رصفنـاه ، ومـا كـبري "الجرذان"منـا ببعيـد! لأجـل نهـب خيراتنـا اسـتند المسـتعمر عـلى أسـس علميـة سـليمة ، فشـيد كليـة غـردون التذكاريـة ، والتـي تحولـت لاحقـا إلى أهـم جامعـة في البـلاد ، ورفدتهـا بكفـاءات عـلى مـدار عقـود ، وكانـت سـبباً في إنشـاء مزيـد مـن دور التعليـم . وهـو مـا فعلـه المصريـون ، فرغـم أن دافعهـم الأسـاسي لإنشـاء جامعـة القاهـرة فـرع الخرطـوم ، كان الاسـتمرار في إخضـاع البـلاد ، إلا أن خيرهـا عـم السـودان حيـث رفدتـه باجيـال مـن الكفـاءات المتميـزة.

وفي السـياق ذاتـه ،تمثـل التطـور في عهـد الاسـتعمار في منظومـة التشريعات الحديثـة التـي تنتمـي للعـصر ، وقـد اسـتجلبها معـه. لقـد تـم اسـتيراد قانون لـكل شيء : الأدويـة والسـموم ، المخـدرات و المؤثـرات العقليـة ، المقابـر ، وحتـى كيفيـة التخلـص مـن الجراد"قانـون إبـادة الجـراد"، وغيرهـا مـن قوانـين حديثـة تنتمـي للعـصر ، لا يسـع المجـال لحصرهـا. لقـد حقـق الإنجليـز بذلـك هدفـين أولهمـا تطويـر النظـم التشريعيـة الوطنيـة. وثانيهمـا مـلء الفـراغ : فالبـلاد كانـت تحكمهـا تشريعـات المهديـة وقـد أصبحـت ملغيـة بإلغـاء دولتهـا. وكانـت مـصر تـرى أن عليهـا مـلء هـذا الفـراغ بتشريعاتهـا التـي كانـت المهديـة قـد الغتهـا ، ولكـن بريطانيـا قصـدت قطـع هـذا السـبيل أمامهـا حيـث نصـت المـادة الخامسـة مـن اتفاقيـة الحكـم الثنائـي عـلى عـدم تنفيـذ النظـام القضائـي المـصري بالسـودان. كمـا نصـت المـادة ٨ منـه عـلى

عـدم تنفيـذ نظـام القضـاء المختلـط إلا في مدينـة سـواكن [٥١]. واذا قارنـا ذلـك بمـا كانـت عليـه الدولـة المهديـة مـن تشريعـات فرديـة مـن نسـخة إسـلامية شـديدة التشـوه ، تصـدر وفـق كل حالـة عـلى انفـراد ، مسـتبعدة قواعـد الفقـه (في الواقـع لـم تكـن المهديـة تعـترف بالمذاهـب الفقهيـة الأربعـة وغيرهـا!). ولـم تكتـف الحكومـة الاسـتعمارية باسـتيراد تشريعـات وقوانـين اجنبيـه ، وانمـا طـورت التشريعـات الوطنيـة مـن منطلـق بسـيط هـو (بمـا أن البـلاد مسـلمة فيجـب اعتبـار حكومتهـا مسـلمة)[٥٢]. وللمفارقـه ، اعـادت الحكومـة الاسـتعمارية للفقـه الاسـلامي اعتبـاره ووقـاره ، فاسـتطاع ابـو حنيفـة مـد رجليـه في شـارع النيـل ، بعـد أن كان المهـدي قـد حـرم عليـه ذلـك! ووجـد المسـلمون فسـحة في شـؤونهم مـن زواج ،طـلاق ، إنفـاق ، مـيراث ، وغيرهـا. لقـد انعكـس ذلـك عـلى حيـاة النـاس ، فعـاد الهـدوء نسـبيا ألى المجتمـع ، وارتفـع وعيـه بتسـلل التعليـم إلى ربوعـه ، واختلفـت تطلعـات الإنسـان عمـا كان عليـه خـلال حقبـة الحكـم المهـدوي .

ومـع ذلـك ، لـم يكـن عهـد الحكـم. الثنائـي خاليـا ممـا يكـدره ، فقـد حدثـت فيـه مجـزرة دينـكا عاليـاب[٥٣]. ومثلهـا ، الانتقـام المـروع مـن أهـل قـرى عديـدة في دارفـور لمقتـل مفتـش نيـالا وموظفـين حكوميـين عـلى يـد الثائـر الفكـي السـحيني ١٩٢٢م.[٥٤] وفي خواتيـم عهدهـم حدثـت واقعـة عنـبر جـودة ، التـي سـقط بسـببها أكثـر مـن مائتـي شـهيد مـن غمـار المزارعـين ، ممـن لاحـول لهـم ولا قـوة![٥٥]

٥١ ـ د. منصور خالد. الفجر الكاذب ، نميري وتحريف الشريعة. الناشر/دار الهلال ، ص٢٠/٢١.

٥٢ ـ د.فرانسيس دينق. D.Francis M. Deng صراع الرؤى ، نزاع الهويات في السودان ، ص٥٨.

٥٣ ـ نفس المرجع ، ص٧٨

٥٤ ـ د.يوسف سليمان سعيد تكنه. دارفور، صراع السلطة والموارد. ١٦٥٠ _ ٢٠٠٢م ، ص٣٢٣.

٥٥ ـ عنبر جودة. حسن العبيد مدني. الشركة العالمية للطباعة والنشر ٢٠٠٨م ، ص ٥.

الفصل السادس
ما بعد الاستقلال ، الحكم الوطني

لا حاجـة للاسـتطالة في شرح الفـرق بـين إدارة الاسـتعمار البريطانـي للبـلاد والإدارة الوطنيـة ، ويمكـن اختـزال المسـألة في فشـل كافـة حكوماتنا الوطنيـة في اجـتراح طريقـة لـلإدارة ، تضـع البـلاد عـلى الطريـق الصحيح ، بعـد اسـتغنائها عـن النظـم الإداريـة البريطانيـة المحكمـة. يمكـن تلخيـص المسـألة في عجـز حكوماتنـا الوطنيـة عـن تخطـي إنجـازات أنجزتهـا الإدارة الاسـتعمارية قبـل قـرن تقريبـا ، في ظـل تكنولوجيـا وبيئـة فقـيرة مقارنـة بمـا نحـن عليـه اليـوم. أن مـشروع الجزيـرة ، الموانـئ البحريـة ، الخطـوط الجويـة، السـكك الحديديـة ، وغيرهـا ، جميعـا أنجـزت خلال تلـك الظروف الموصوفـة . والمفارقـة ، أننـا ، ونحـن نعيـش عـصراً متقدمـاً ، تفوقنـا عليهـم في إنجـاز اسـتثنائي تمثـل في تجريـد الموانـئ البحريـة والخطـوط الجويـة مـن ناقلاتهمـا ، ونهـب وبيـع قضبـان السـكك الحديديـة ، وكل مـا يسـتطاع بيعـه أو نهبـه مـن مـشروع الجزيـرة ، وباختصـار ، تفوقنـا في التخلـص وتبديـد كل مـا كان يجـب المحافظـة عليـه!

إذا ، لـم نتخـط تفـوق المسـتعمر فيمـا هـو خـير ، وتفوقنـا عليـه ، بتميـز ، في كل شر! فـاذا كان مـا ارتكبـه في دينـكا عاليـاب ، قبائـل دارفـور ، ومزارعـي عنـبر جـودة يسـمى مجـازر ، فقـد أنجزنـا خـلال العهـود الوطنيـة مجـازر افضـل ، فعـدد ضحايـا عنـبر جـودة نحصـل عليـه ، فجـاة ، خـلال سـاعتين ، بحـرق قريـة آمنـة في معيشـتها (الآن ، وانـا أكتـب ، تطايـرت الأنبـاء باجتيـاح وحـرق قريـة في غـرب دارفـور ، لـم يسـمع بهـا اغلـب السـودانيين قبـلا ، لعـل اسـمها كرينـق ، وتفيـد احصـاءات

أولية بعدد مقارب لعدد ضحايا عنبر جودة). وبضع من الآلاف المقتولين في عهد الحكم الاستعماري ، تضاعفوا في عهد الحكم الوطني إلى أكثر من ثلاثمائة ألف ضحية في دارفور ، وأكثر من اثنين مليون ضحية ، قضت عليهم مهلكة الجنوب قبل الانفصال. وما لا يقل عن المائتي ألف ضحية جديدة ، على الأقل، في دولة جنوب السودان بعد تأسيسها ، فضلا عن عدة آلاف الجزيرة أبا في سبعينيات القرن الماضي ، وضحايا احداث الانقلابات العسكرية ، ومناوشات أصغر هنا وهناك بين القبائل!

وعلى ضوء ذلك ، هل كان ، فعلا ، أس المشكلة هو الاستعمار ؟! واذا كان كذلك ، لما لم يخرج السوء معه ، بل حدث العكس زاد بعد خروجه ! إن ذلك يفرض سؤالاً مهما هو : من كان يحكمنا ، فعلا ، خلال عهود الاستعمار؟

عند تمحيص تاريخنا الافريقي على وجه العموم ، والسوداني على وجه الخصوص، نصل إلى حقيقة مؤلمة هي أن مصطلح "المستعمر"يكاد يخلو من الدقة ، ويقصر عن الشمول ، فعند استعراض وتحليل ممارسة هذا المستعمر على أرض الواقع ، يكاد يختفي ويحل مكانه سودانيون/افارقه ، يتولون عنه الاستعمار ، أو بمعنى آخر ، يختفي هذا "المستعمر الابيض"ويقوم مقامه "المستعمر الزنجي". وعندما ننجح في طرد "الاستعمار"بثورة ، انتفاضة ، أو أي نشاط ونسترد كرامتنا ، نكتشف ، بعد حين ، أننا نجحنا فقط في طرد وإخراج "المستعمر الابيض"وفشلنا في طرد وإخراج "المستعمر الزنجي" ، ونكتشف أن كل ذلك حدث لسبب بسيط هو كون "المستعمر الزنجي"كان قائد ثورتنا المباركة!

الباب الثاني

المستعمرالزنجي

الفصل الاول
المستعمرالزنجي

كان عـدد جيـش اسـماعيل باشـا لغـزو سـنار حـوالي ٤٠٠٠ مقاتـل ، يرافقهـم ثلاثـة علمـاء يمثلـون المذاهـب الثلاثـة : الحنفية،المالكيـة ، والشـافعية [٥٦]. ورافـق الحملـة عـدد ضئيـل جـداً مـن الموظفـين المدنيـين لأغـراض محـددة. وفي سـنار قضـت الدسـنتاريا عـلى عـدد كبـير مـن هـذا الجنـد ، فقـد قضـت في يـوم واحـد (١٦/اكتوبـر/١٨٢١) على نحـو ١٥٠٠ جنـدي ! ورغـم المـدد المرسـل مـن مـصر بقيـادة الأمـير ابراهيـم باشـا إبـن محمـد عـلي باشـا إلا أن العـدد بالـكاد بلـغ ٢٧٠٠ مقاتـل هـو كل عـدد الغـزاة في حملـة سـنار [٥٧]. فهـل يكفـي لإدارة البـلاد ، بعـد الاسـتيلاء عليهـا ، مـن سـنار إلى حـدود مـصر؟!

حسـنا ، كان عـدد جنـود الحملـة الأخـرى ، حملـة كردفـان بقيـادة الدفـتردار ، حـوالي ٤٠٠٠ مقاتـل [٥٨]. وبالطبـع ، تكبـد خسـائر مـن هـذا الجنـد خـلال معركتـه الشرسـة ضـد المقـدوم مسـلم حاكـم دارفـور عـلى كردفـان ، مـا يجعـل العـدد الـكلي التقريبـي المتبقـي مـن جنـود الحملتـين مـا بـين ٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ تقريبـاً ، لا علاقـة لمعظمهـم بالخدمـة المدنيـة ، فكيـف تمكنـوا ، مـع قلـة الأيـدي والشـح الإداري ، مـن النجـاح في إدارة البـلاد الشاسـعة؟!

كانـت تلـك عقبـة حقيقـة أمـام الغـزاة ، فرهـق الخدمـة المدنيـة لا

---

٥٦ ـ نعوم شقير. جغرافية وتاريخ السودان. الناشر/دار الحياة للنشر والتوزيع ، ص٥٢٧.
٥٧ ـ المرجع نفسه ،ص ٥٣٥.
٥٨ ـ المرجع نفسه ،ص ٥٤٠.

يناسب المقاتلين، كما أنها تشغلهم عن دورهم الاول وهو حفظ الأمن ومنع الاضطرابات في بلد تمكنوا منها قسراً. تلك كانت معضلة عويصة ، تغلبوا عليها بحل بسيط عبر صيغة ذكية يمكن أن يطلق عليها «الشراكة الاستعمارية»!

الشراكة الاستعمارية :

منذ فجر التاريخ ، كانت الادارة المدنية لشؤون الناس ، أهم عقبة تواجه الغزاة بعد ازاحتهم السلطة الوطنية والحلول مكانها. كان ذلك على درجة من العسر لا تقل عن الغزو نفسه. فكيف تمكنوا عبر التاريخ من حلها ؟!

كان الغزاة يجتاحون البلدان ، يقضون على السلطة الوطنية ويولون عليها إدارة عليا منهم ، بينما تكون الإدارة الفعلية في يد طائفة من أهل البلد ، لاحقا ، بصورة تلقائية ، تكون هذه الطائفة طبقة جديدةهي «المستعمر المحلي». وبالتعاون اللصيق بينها وبين المستعمر الأجنبي تنجح في إدارة البلاد ، مدعومة بالآلة العسكرية للغزاة ، وعلى ذلك تنشأ شراكة استعمارية. لقد استخدم هذا النهج على اوسع نطاق خلال التاريخ البشري ، وكان وسيلة التحكم الرئيسة للامبراطوريات ، وهو كذلك وسيلة تحكم للسلطنات الصغرى التي تدار عبرها الممتلكات المستحوذ عليها.

ما كان لسلطنتي الفور والفونج الحكم زهاء الأربعة قرون لولا هذه السياسة الإدارية. فقد كانوا يغزون القبائل ويولون عليها إدارة من داخلها ، مدعومة بفرسان السلطنة ، عند اللزوم ، تكون لها السيطرة. ولأجل ضمان استمرار فعالية هذه السياسة في الهيمنة على القبائل الخاضعة (لجأ سلاطين الفور ومنذ عهد السلطان تيراب، على إنشاء مدرسة تتبع للقصر بالفاشر يتم فيها تنشئة وتدريب أبناء رؤساء القبائل ـ وتدريجهم ـبعد وفاة آبائهم . وبهذا تضمن

السلطنة أن حكام هذه القبائل هم ابناء مؤسساتها ، ولا تخشى انفلاتهم)[٥٩].وكانت ذات السياسة متبعة من قبل دولة الفونج ، حيث كانت مؤسسة السلطنة تعمد إلى احتجاز أبناء زعماء القبائل في القصر ، كرهائن ، وفي الوقت ذاته ، للتعليم والتدريب والتربية والانضباط. وذلك للتمكن من السيطرة عليهم عندما يصبحوا قادة لقبائلهم. وهو ما جاء في ترجمة سبولدنق لكتاب الرحالة الشهير كرمب حول مشاهداته في مملكة سنار [٦٠].لقد كان أحد أسباب نجاح سلطنة الفونج اعتمادها على هذه السياسة ، والتي قامت على حكم المشيخات المستقلة ، إذ كانت تترك للحكام المحليين ، حكام المشيخات ، حرية واسعة في إدارة اهلهم ، ولا تفرض عليها إلا بعض الواجبات على رأسها حماية طرق التجارة ، ودفع الاتاوة[٦١].

كانت هذه السياسة هي الوسيلة الفعالة للمستعمر الابيض حينما غزا أفريقيا. وتعكس العلاقة بين مملكة البانتو والبرتغاليين ، خلال القرن الخامس عشر انموذجا ساطعاً. ففي أواخر القرن الخامس عشر جرى تعميد زعيم البانتو (نزينجا كنوو Nzinga Knawu بإسم الملك يوحنا الاول ، وعقد معاهدة مع يوحنا الثاني ملك البرتغال بوصفهما عاهلين متساويين ، وانشئت مستعمرة أوربية صغيرة في مبانزا ، وهي المقر القبلي)[٦٢].

ومن بعد ، أخذ البرتغاليون ولي العهد "مبيمبا نزينجا "إلى البرتغال "المنفى " . وبعد عشر سنوات أصبح برتغاليا مثقفا ، وانقطعت صلته تماماً بأساليب البانتو[٦٣].وبعد وفاة والده ، أتخذ نزينجا

٥٩ - د.يوسف سليمان سعيد تكنه. دارفور، صراع السلطة والموارد. ١٦٥٠ _ ٢٠٠٢م ، ص١١٣.

٦٠ - محمد ابراهيم نقد. علاقات الرق في المجتمع السوداني ، ص ٦٣.

٦١ - د. أحمد أحمد سيد أحمد ، تاريخ مدينة الخرطوم ، ص ٤٠.

٦٢ - ١٩٦٢ .Donald Wiedner تاريخ افريقيا. ترجمة/د. راشد البراوي. الناشر/ مكتبة الوعي العربي. دار الجيل للطباعة ، ص ٦٧.

٦٣ - ١٩٦٢ .Donald Wiednerتاريخ افريقيا ، ص ٦٧.

اسـم الفونسـو الأول (واخضـع الحـكام الوثنيـين الذيـن اغتصبـوا ميراثـه ، وأطلـق عـلى عاصمتـه "مبانـزا" إسـم سـاو سـلفادور. وجـاء مزيـد مـن رجـال الارسـاليات في ١٥٠٨م. لدعـم برنامـج الفونسـو في إدخـال الحضارة الأوروبيـة. ولكـن ، نـادراً مـا جـرى تذكـر الفونسـو ، وتحـول النشـاط البرتغـالي إلى غـزو المحيـط الهنـدي في عـام ١٥٠٩م.) [٦٤].

اذا ، عـلى مـر العصـور ، وفـرت الشراكـة الاسـتعمارية للغـزاة عنـاء الإدارة المدنيـة ، وحمـل عبئهـا. وهـي الأسـاس الـذي اسـتند عليـه اللـورد لوقـارد في تطويـر مفهـوم الحكـم غـير المبـاشر ، الـذي كان سـنداً للانجليز في عـدة بلـدان منهـا السـودان. سـنناقش ذلـك لاحقـا ، إن شـاء اللـه.

وعنـد العـودة إلى شـأن حملتـي سـنار وكردفـان مـع الإدارة المدنيـة لشـؤون البـلاد بعـد غزوهـا ، نجـد أنهـا لـم تكـن مشـكلتهم وحدهـم ، وانمـا ، كذلـك، كانـت مشـكلة أهـل البـلاد. حيـث أن تعيـين إدارة اجنبيـه عـلى مؤسسـاتهم المحليـة _ مناطـق نفـوذ القبائـل _ كان يعنـي إنهـاء سـطوة الزعمـاء القبليـين، أو عـلى الأقـل ، تحجيمهـا كثـيرا ، وفي الوقـت ذاتـه ، سـتبدو غريبـة وأجنبيـة مـن وجهـة نظـر الأهـالي _افـراد القبائـل _ ماقـد يـؤدي إلى نتائـج غـير مرغوبـة. لـذا ، كانـت الشراكـة الاسـتعمارية ، أو الحكـم غـير المبـاشر وصفـة جيـدة تناسـب الجميـع : حيـث احتـاج الغـزاة لمـن يمثـل لهـم واجهـة في الإدارة المحليـة ، واحتـاج الزعمـاء لسـابق نفوذهـم وسـطوتهم عـلى مجتمعاتهـم المحليـة ،ومكاسـبهم الموروثـة. واحتـاج الأهـالي إلى شـخص منهـم يتـولى أمرهـم ، فتمـت المباركـة ، وكان اسـتعمارا زنجيـا كالـح السـواد ، لا يغطـي جسـده سـوى "قبعـة. بيضـاء"!

في براعـة، ودونمـا حيـاء ، حلـت الادارة التـي كانـت تديـر سـلطنة الفونـج لأكثـر مـن ثلاثـة قـرون في الإدارة التركيـة المصريـة الجديـدة ، مـا اختلـف سـوى قمـة الهـرم ، واسـتمرت هكـذا حتـى آخـر لحظـة للدولـة

٦٤ ـ نفس المرجع ، ص ٦٨.

التركيـة المصريـة الاسـتعمارية. مـن بـلاد النوبـة حتـى جبـال فازوغـلي ، التحقـت إدارة دولـة الفونـج البائـدة بالدولـة الاسـتعمارية الجديـدة المظفـرة. منـذ بـدء الغـزو تـم اسـتيعاب إدارة سـودانية خالصـة ، كان الإجـراء غايـة في البسـاطة ، يعلـن الزعيـم القبـلي استسـلامه ، وعـبر طقـس بسـيط يعـود إلى ذات منصبـه ليمـارس حكمـاً مطلقـا ، لا تقيـده الا الادارة الاسـتعمارية الفوقيـة. انتهـى الأمـر إلى ذلـك ، حتـى بالنسـبة لمـن قـاوم في البدايـة كالسـكوت ، والشـايقية ومـن سـواهم.[٦٥]

لـم تقتـصر حوجـة الغـزاة إلى مـلء الوظائـف الدنيـا فحسـب ، وانمـا احتاجـوا للزعمـاء المحليـين لمـلء وظائـف عليـا. ففـي عهـد عثمـان بـك ـ ١٨٢٥م. ـ عـين الشـيخ شـنبول في منصـب المشـيخة ، ليحـوز سـلطة تمتـد مـن حجـر العسـل إلى جبـال الفونـج.[٦٦] تكـون كلمتـه فيهـا هـي العليـا ، ولا يخضـع لأحـد سـوى الحكمـدار. وكان مـن أوائـل الـشركاء الاسـتعماريين الشـيخ محمـد ود الاربـاب ، الـذي شـارك في وضـع النظـام الضريبـي ، وشـارك في إحـدى الحمـلات عـلى التـاكا. وتطـوع الشـيخ عبـد القـادر ودالزيـن شـيخ مشـايخ سـنار ، ومعـه سـبعة وعشريـن مـن مشـايخ الخطـوط ، بالقـدوم إلى الخرطـوم ، وتطوعـوا بتكويـن مجلـس (لمعاونـة الحكـم الجديـد ، للنظـر في الأمـور الماليـة والإداريـة ، ومنهـم الشـيخ احمـد الريـح العركـي ، والشـيخ محمـد ايـلا ناظـر الحلنقـه. وتطـور هـذا التعـاون فاحتفـظ الأتـراك بشـيخ الحلـة او شـيخ البلـد ، وضمـوا المنصـب إلى نظامهـم الإداري. وكان اولئـك المشـايخ يمثلـون الشريحـة العليـا في المجتمعـات الزراعيـة الريفيـة ، فكانـوا صلـة وصـل بين الحكومـة والأهـالي ، واصبحـوا يـد الدولـة في تنفيـذ سياسـاتها في القـرى ، أسـاس تحديـد وجمـع الضرائـب)[٦٧].

لقـد قسـم الأتـراك (المديريـات إلى وحـدات إداريـة ، وكانـت اصغـر

٦٥ ـ نعوم شقير. ص ٥٢٨

٦٦ ـ د.ابكر ادم اسماعيل. جدلية المركز والهامش. ص ١٨٦/١٨٥. عن القدال ص٥٨.

٦٧ ـ نفس المرجع ، ص ١٨٦ عن القدال ص ٥٨.

وحـده هـي القريـة ، ويتـولى شـؤونها شـيخ القريـة. ثـم جمعـت كل عـدد مـن القـرى في وحـدة أكـبر تسـمى خطـا ، وعـلى رأسـه شـيخ ،ويـشرف عـلى كل مجموعـة مـن الخطـوط شـيخ مشـايخ الخـط. وجمعـت تلـك المجموعـات في اقسـام _ كاشـفليك _ وعليـه كاشـف أو رئيـس القسـم. ويـشرف عـلى كل الاقسـام في المديريـة شـيخ مشـايخ المديريـة. ويمثـل القسـم صلـة الوصـل بـين الأتـراك والأهـالي ، ويتعامـل شـيخ القسـم مـع القـادة المحليـين مبـاشرة أو عـن طريـق موظفـين...........وكان مشـايخ القـرى والخطـوط والأقسـام مـن القيـادات المحليـة الذيـن يعينهـم الأتراك. وكان في كل خـط وقسـم مجموعـة مـن الموظفـين الديوانيـين مثـل القـاضي والكتبـة ورئيـس الحسـابات). [٦٨].

وعـلى ضـوء ذلـك ، مـن كان الحاكـم الفعـلى للبـلاد؟ اذا كان المسـؤول عـن القريـة الواحـدة يسـمى شـيخ القريـة ، وهـو سـوداني.واذا كانـت مجموعـة مـن هـذه القـرى تكـون إدارة تنفيذيـة اكـبر تسـمى خـط ، وهـذا الخـط عليـه مسـؤول يعـرف بشـيخ الخـط ، وهـو سـوداني. واذا كانـت مجموعـة مـن هـذه الخطـوط تكـون إدارة تنفيذيـة اكـبر تسـمى إدارة مشـائخ الخطـوط ، وهـذه الإدارة المسـؤول عنهـا يسـمى شـيخ مشـايخ الخـط ، وهـو سـوداني. واذا كانـت مجموعـة مـن هـذه الإدارة التنفيذيـة تكـون إدارة تنفيذيـة اكـبر تسـمى القسـم – كاشـفليك – ويراسـها رئيـس القسـم (كاشـف) وهـذا المنصـب أيضـا يتـولاه سـوداني. واذا كانـت مجموعـة مـن هـذه الأقسـام تكـون إدارة تنفيذيـة اكبر تسـمى إدارة الاقسـام ، والموظـف المسـؤول عنهـا ،يسـمى شـيخ مشـايخ المديريـة، وهـذا المنصـب يتـولاه اجنبـي . أي أنـه الأجنبـي الوحيـد في سـياق هـذه المنظومـة الإداريـة الاسـتعمارية. كمـا أن كل معاملاتـه مـع الأهـالي تتـم عـبر مسـؤولين سـودانيين ابتـداءً مـن رؤسـاء الأقسـام وانتهـاء بشـيخ القريـة. فهـل هـذه إدارة اسـتعمارية؟ وإذا كانـت اسـتعمارية ، فهـل هـي اسـتعمارية بيضـاء ، أم اسـتعمارية زنجيـة؟!

لقـد شـارك السـودانيون المسـتعمر كل شيء ، حتـى مجلـس دعـاوى

٦٨ - د. ابكر اسماعيل، المرجع ، ١٨٦ عن القدال ٥٨.

التجـار ، وهــو يمثـل مجالــس التحكيــم القضائيــة اليــوم، وقــد أنشــئ لمعالجــة تكــدس الدعــاوى التجاريــة في خمســينيات القــرن التاســع عــشر ، إذ كان أغلــب تجــار الخرطــوم أجانــب ، ومــع ذلــك لم يســتبعد الســودانيون مــن عضويتــه[٦٩].

لــم يكــن الســودانيون _ والأفارقــة _ مغلوبــين عــلى أمرهــم ، كمــا صورتهـم لنـا كتـب التاريـخ. وانمـا كانـت لهـم سـطوة ونفـوذ ، باعتبارهم ، بصـورة أو أخـرى أصحـاب حـق "كشريـك مسـتعمر". وكانـت للمشـايخ والأعيـان كلمـة تحـترم ، حتـى لـدى الباشـا الكبـير ، فخـلال زيارتـه إلى السـودان في ١٨٣٨م. اسـتمع الى شـكاويهم وملاحظاتهـم (وكان مـن نتائـج ذلــك اســتدعاء عــدد كبــير مــن كبــار الموظفــين أمــام لجنــة تحقيــق وارجــاع البعــض إلى مــصر).[٧٠] وفي ١٨٥٠م. بمجــرد وصــول الحاكــم العـام الجديـد ، الحكمـدار عبـد الطيـف باشـا (١٨٥٠ _ ١٨٥١م.) انهالـت عليـه الشـكاوي في حـق سـلفه (الحكمـدار السـابق) فألقـى القبـض عليـه وأرسـله إلى مـصر ، وازال المظالـم.[٧١]

وقــد اســتمرت ســطوة الزعمــاء المحليــين لا يوقفهــم شــئ. وكان بــاب الخديــوي مفتوحــاً أمــام شــكاويهم ، ففــي مواجهــة اعــلى ســلطتين في البــلاد رفعــوا شــكاويهم أمــام بــلاط الخديــوي ، فقــد شــكوا مديــري عموم بحــري وقبــلي الســودان معــا.، فجــاءت لجنــة خاصــة منتدبــة مــن مــصر للنظــر في الشــكاوى والتحقيــق في شــأنها. وقــد أثبــت التحقيــق تحكــم أقــارب مديــر بحــري الســودان حســين بــك خليفــه في الأهــالي وظلمهــم إياهــم[٧٢]. أمــا مديــر قبــلي الســودان فكانــت التهمــة المنســوبة إليه الرشــوة

---

٦٩ ـ كان المجلـس يتكـون مـن رئيـس وخمسـة تجـار أحدهـم يمثـل الاوربيـين ، والثانـي يمثـل المصريـين ، والثالـث السـودانيين ، والرابـع عـن طائفـة اليونـان ، والخامسـة عـن طائفـة القبـط. تاريـخ مدينـة الخرطـوم ، ص٣٨٤

٧٠ ـ د. أحمد أحمد سيد أحمد ، تاريخ مدينة الخرطوم ، ص ٣٤٦.

٧١ ـ نعوم شقير، ص٥٦٠.

٧٢ ـ د. أحمد أحمد سيد أحمد ، تاريخ مدينة الخرطوم،ص ٣٦٨ .

والاختلاس ، خاصة من نصيب الحكومة في أموال القطن[٧٣]. فعزل واودع السجن في الخرطوم انتظاراً للتحقيق ، لكنه مات في سجنه قبل وصول اللجنة. [٧٤].

ومع ذلك ، لم تقف سطوة الزعماء المحليين ، كشريك مستعمر، عند شكاية الحكام ، وانما امتدت إلى التدخل في السياسة الإدارية العامة. ففي خمسينيات القرن التاسع عشر، قررت السلطة الخديوية في القاهرة تقسيم السودان إلى مديريات مستقلة عن بعضها ، وصارت الخرطوم ، مثل غيرها من المديريات ، تتبع للخديوي مباشرةً ، وليس لها سلطة على غيرها من المديريات (وهو ما يسميه المصريون ، فيما يتعلق بإدارة السودان ، الحكم المركزي). ومنذ نهاية الخمسينيات كثرت شكاوى الزعماء المحليين ضد هذه السياسة الإدارية رافضين إياها ومطالبين بعودة النظام اللامركزي (والذي يعني عند المصريين ، فيما يتعلق بإدارة السودان، عوده الحكمدارية ، وإعادة منصب الحكمدار، الذي يحكم مديريات البلاد كافة ، اي مثل منصب الحاكم العام) وأمام سيل شكاويهم، لم يجد اسماعيل باشا _ والذي كان قائمقاما لعمه الخديوي سعيد باشا الذي كان مريضا _ خيارا إلا إعادة النظام القديم ، الحكم اللامركزي ، بإعادة نظام الحكمدارية ، وإعادة منصب الحكمدار حيث عين موسى حمدي بك حكمدارا في مايو ١٨٦٢[٧٥]. وامتدت سطوة الزعماء المحليين "كشريك مستعمر" إلى منازعة الخديوي سلطته العليا في التعيين ، فقد أنكر عدد منهم ، على رأسهم مشايخ الشكرية أمر الخديوي سعيد باشا الصادر بتعيين اراكيل بك الأرمني مديراً على الخرطوم ، بحجة أنه نصراني ، وارادوا الثورة عليه ، لكن المدير الجديد تعامل معهم بحكمة حين ذهب إليهم مستسلما ، منيخا بعيره بين مضاربهم ، متوسلا إليهم

٧٣ ـ نفس المرجع ، ص٣٦٨.

٧٤ ـ نفس المرجع ، ص٣٦٨.

٧٥ ـ د. أحمد أحمد سيد أحمد ، تاريخ مدينة الخرطوم ، ص٣٦١.

:(إن كنت أنا السيب في عصيانكم ، فها أنا الآن بين يديكم ، فافعلوا بي ما تشاؤون على أن تعودوا إلى الولاء ، إذ يعز على أن تخرجوا عن طاعة ولي أمركم بسببي)[٧٦]. فاعجبوا بشجاعته ورضوا به مديراً عليهم. ومع أن الخديوي حاسبهم على فعلتهم حيث طلب إرسال الزعماء المعترضين ، فأرسلوا إلى مصر شيخ الشكرية أحمد أبا سن ، والفقيه عبد الدافع ، فأمر بسجنهم فترة ، ثم أطلق سراحهم. إلا أن ذلك يبدو تسامحاً كبيراً بالنظر إلى ما اقترفوه من تحد لأعلى سلطة في مصر. وأغلب الظن أن عقوبة مثل ذلك هي التنكيل بهم وقبائلهم المتورطة في المعارضة ، لكنه كان ينظر إليهم بعين العطف ك "مستعمر شريك" لا يستحب اغضابه!

ولم يقتصر دور المستعمر الشريك على بداية الحكم التركي المصري فقط ، وانما استمر تقلد السودانيين وظائف كبري حتى آخر لحظة من عمر النظام. ففي ستينيات القرن التاسع عشر ، في عهد موسى باشا حمدي تم تعيين احمد بك ابو سن _ المذكور _ مديراً على الخرطوم، وقد استمر في منصبه عشرة سنوات ، ومنحه الخديوي سيفا ذهبياً ، اعترافا منه بكفاءته و "اخلاصه" وكان علامة رضا عنه[٧٧]. وهكذا ، توالت سيطرة السودانيين على الوظائف الدنيا والعليا على السواء ، حتى الرمق الاخير من عمرها . وما أن هبت رياح الثورة المهدية ، حتى كان كبار رجال الدولة البادئة في الافول ، من السودانيين ، على استعداد للقفز على ظهر اي مركب باق على السطح. فعندما اشتدت الثورة كانوا في انتظار غردون باشا ، وكانوا يغلظون له الحلف بالوقوف معه إذا عاد. وعندما وصل بربر ، وألقى خطابه الشهير الذي أكد فيه أن الإستعمار سيخرج ويسلم البلد إليهم ، وأنه لم يأت بقوة لقتال الثورة المهدية. وما أن سمع انصار الحكم التركي المصري ذلك الخطاب حتى أسرعوا في القفز من المركب الغارق ملتحقين بالمهدي. يقول بروفيسور

---

٧٦ ـ نعوم شقير ، ص ٥٦٦.

٧٧ ـ د. أحمد أحمد سيد أحمد ، تاريخ مدينة الخرطوم ، ص ٣٨٨.

هولت (فأحد كبار الزعماء الدينيين ، وهو الشيخ العبيد ود بدر من ام ضبان تخلى عن حياده عندما علم أن غردون لم ترافقه قوات ، وأنه يهدف إلى إخلاء البلاد . كما أن الشيخ المضوي عبد الرحمن غير موقفه من جديد ، وانضم إلى عائلة ألشيخ العبيد) (٧٨).اما شيخ المهدي الذي سبق أن طرده شر طردة ، وكان من أشد المؤلبين للحكومة ضده ، فما أن تأكد من رجحان كفة تلميذه _ الذي كان لا يشرفه _ حتى أطلق ساقيه يسابق الريح اليه ، راجياً عفوه ، متوسلا الانضمام إلى ركب الثورة المباركة (٧٩).أما آل ابو سن ، اولئك المتمرسون في شؤون الحكم فقد اتخذوا أسلوباً بسيطا للغاية ، حيث انقسموا بين النظام البادئ في الافول ، والثورة الهادرة ، وهكذا ، بقي الشيخ عوض الكريم ابو سن مخلصا للحكومة الاستعمارية ، بينما انحاز ابنه عبد الله عوض الكريم ابو سن إلى الثورة المهدية (٨٠).وقد أتت الخطة أكلها ، فكانوا ضمن قادة الثورة الجديدة ! أما بطل الثورة الجديدة الذي تولى حصار مديرية بربر فكان الشيخ احمد الخير ، الذي عرف عنه كونه الصديق المقرب لمديرها حسين بك خليفه ، لكنه نفض يده منه في اللحظات الأخيرة ، هارباً إلى المهدي ، الذي قبله في جيشه وأرسله قائداً لحملة حصار المديرية (التي كان يقضي في مكاتبها وقتا أطول مما يمكثه في بيته!). وكان على رأس محاصري مديرية الابيض مديرها السابق الياس باشا امبرير ، الذي قفز إلى مركب الثورة الجديدة. وكان الزعيم مأدبو على رأس المقاتلين للحكومة الاستعمارية في دارفور ، مع أنه كان حتى قبل لحظات أحد اتباعها الخلص ، فقد عمل مع الأتراك في وظيفة شيخ مشايخ حتى فصله الإيطالي ملياني فذهب إلى المهدي متمردا ، ليعود بعدها قائداً مبجلا (٨١).

٧٨ ـ ب. م . هولت. المهدية في السودان ، ص ١١٣.

٧٩ ـ سلاطين باشا «كارل رودلف. السيف والنار في السودان. تعريب/جريدة البلاغ عن الطبعة الأولى «طبعة البلاغ»سنة ١٩٣٠م. الناشر/مكتبة الآداب ، القاهره ، ، ص ١٤١.

٨٠ ـ ب. م . هولت. المهدية في السودان ، ص ١٨٣.

٨١ ـ سلاطين باشا «كارل رودلف. السيف والنار في السودان ، ص ١١٢.

وبمجـرد إسـقاط الحكـم التركـي المـصري ، تـسرب المسـتعمر الزنجـي إلى النظـام الجديـد كالزيـت إلى بصيـلات الشـعر : النـور عنقـره ، اليـاس باشـا امبريـر ، حمـد ود أم مريـوم ، محمـد الخـير ، الإخـوان كركسـاوي ، حمـدان ابو عنجـه ، الزاكـي طمـل ، وغيرهـم كثـر! قفـز عـلى ظهـر المركـب حتـى اقـرب قـادة الدولـة البائـدة. فبعـد دفـاع مسـتميت استسـلم فـرج اللـه باشـا قائـد حاميـة امدرمـان إلى المهـدي ، ونـزع الكاكـي ولبـس الجبـة المرقعـة ونـال رتبـة أمـير امـراء في الحكـم الجديـد ، وقـرر لـه مرتبـا قـدره عـشرون ريـالا !

وكان محمـد خالـد زقـل نائبـا لحاكـم دارفـور ، سـلاطين باشـا ، وفي اللحظـة قبـل الأخـيرة ، قفـز إلى مركـب الثـورة ، وعـاد إلى دار فـور مترقيـا إلى المنصـب الاول ، حاكـم دارفـور ، وبالطبـع ، لـم يعـد وحـده ، وانمـا عـاد معـه مـا كان يفعلـه في العهـد البائـد (وفي صبـاح الغـد ، أمـر الحاكـم الجديـد الأهـالي بالخـروج مـن منازلهـم ، ثـم فتـش هـذه المنـازل وأرسـل مـا بهـا إلى بيـت المـال ، وكل مـن اشـتبه في حيازتـه مـالا كان يجلـد بـلا رحمـة ، أو تقيـد قدمـاه ، يربـط إلى الحائـط ، ورأسـه مـدلى حتـى يغمـى عليـه)[٨٢]. ولـم تقـف أسـاليب إدارتـه الاسـتعمارية التركيـة المصريـة عنـد حـد البطـش بالمواطـن الأعـزل ونهـب أموالـه ، وانمـا ارتفـع بممارسـة أسـاليب هـذه الإدارة إلى مسـتوى أعـلى ، حيـث (كان يحتفـظ لنفسـه بمعظـم الإيـرادات ، ويرسـل مـن وقـت لآخـر هدايـا للمهـدي والخلفـاء ، وكانـت هدايـاه فتيـات وسـيمات ، أو بعـض خيـول عتيقـة ، أو بعـض الجمـال ، وذاك لكـي يبقـى محمـود الذكـر عنـد مـولاه وولي نعمتـه). [٨٣].

إذا ، ذاك كان تلخيصـا موجـزا لثـورة هـادرة زهقـت عـشرات الآلاف مـن الأنفـس _ مئـات الآلاف عـلى الأرجـح _ قطعـت رأس غـردون وخلعـت حاكـم دارفـور ، ذاك المسـتعمر الأبيض.... سـلاطين باشـا ، وكبلتـه بالحديـد .....ورقت نائبـه ...ذاك الزنجـي.... محمـد خالـد زقـل ، وكأفأتـه بمنصـب الحاكـم!

---

٨٢ ـ سلاطين باشا «كارل رودلف. السيف والنار في السودان ، ص١١٣.

٨٣ ـ نفس المرجع ، ص١١٦.

الفصل الثاني
الضرائب

الضرائب في الدولة التركية المصرية:

يــكاد يجمــع النــاس عــلى أن أبــرز ســبب للانتفاضــة عــلى الحكــم التركــي المــصري في الســودان كان هــو الضرائــب الباهظــة . ولمــا كان هنــاك شريــك مســتعمر ، يكــون أوفــق إذا ســلطنا ضــوءا عــلى هــذا الجانــب ، وليكــن ذلــك في عجالــة.

لقــد بــدأ خطــأ محمــد عــلي باشــا في تقديــر ثــروات البــلاد مــن الذهــب والرقيــق واضحــا حيــث كان تقديــرا مبالغــا فيــه. وقــد اتضــح ذلــك مــن اول وصــول للحملــة إلى مناطــق اســتهداف هــذه الثــروات. ففــي يــوم ١/ينايــر/١٨٢٢م. استســلم الملــك حســن ملــك فازوغــلي وجبالهــا . ومــن بعــد فــرض عليهــا إســماعيل باشــا ضريبــة مقدارهــا ألــف اقــة ذهــب ، والفــا عبــد ذكــر [٨٤].وكان ذلــك بنــاء عــلى مــا ورد إليــه مــن معلومــات . لكــن، بعــد وصولــه بنــي شــنقول وإجــراء أبحــاث علميــة خــاب أملــه ، وأدرك أن المعلومــات كان مبالغــا في تقديرهــا. وقــد وقعــت في ذات ســوء التقديــر لجنة تقديــر الضرائــب التــي كونهــا مــن اثنــين مــن رجالــه والاربــاب دفــع اللــه ، إذ اســتكثر النــاس تقديراتهــا ، ولمــا وافــق ذلــك اشــاعة مقتــل اســماعيل باشــا ، بــدأ أهــل ســنار في الثــورة ، فعــاد إلى ســنار ، وعفــا عنهــم _ عــدا قائدهــم ود عجيــلاوي _ وأمــر بالرفــق في تحصيلهــا. [٨٥]

٨٤ ـ نعوم شقير، ص ٥٣٦.

٨٥ ـ .نعوم شقير، ص ٥٣٦.

وعليـــه ، يتضـــح مـــن تكويـــن لجنـــة الضرائـــب المذكـــورة اهتمـــام المســـتعمر منـــذ وصولـــه بـــإشراك الســـودانيين في مســـألة جمـــع الضرائـــب. وهـــو يـــبرز خـــلال عضويـــة اللجنـــة التـــي مثـــل أهـــل ســـنار ثلثهـــا الـــذي مثلـــه الاربـــاب دفـــع اللـــه. وكـــذا التنبيـــه بالرفـــق في تحصيلهـــا يؤكـــد أن ثمـــة مراعـــاة للأوضـــاع. ورغـــم صحـــة القـــول بـــأن الحـــكام الاســـتعماريين لـــم يكونـــوا جميعـــا مراعـــين للأوضـــاع في شـــأن جمـــع الضرائـــب ، إلا أن أكثرهـــم كان مراعيـــا. وربمـــا كان أكثـــر مـــن جنـــى عـــلى ســـمعة الحكومـــة التركيـــة فيمـــا يتعلـــق بـــإدارة وتحصيـــل الضرائـــب هـــو الحكمـــدار عثمـــان بـــك ، فرغـــم قـــصر مـــدة ولايتـــه (١٨٢٥ _ ١٨٢٦م) إلا أنـــه كان الأكثـــر توحشـــا. فقـــد اشـــتهر بشـــدة القســـوة في جمـــع وتحصيـــل الضرائـــب حتـــى هـــرب كثـــيرون مـــن ديارهـــم مبتعديـــن عـــن ســـلطته قـــدر الإمـــكان. وقـــد أنعـــم اللـــه عليهـــم بوفاتـــه العاجلـــة ، بعـــد مـــرض مهلـــك الـــم بـــه ومـــات في الخرطـــوم غـــير مأســـوف عليـــه. وبمجـــرد وفاتـــه ، اســـتعان خلفـــه محـــو بك (١٨٢٦م.) بالاهـــالي – الاعيـــان والعمـــد _ لأجـــل فـــرض تقديـــر معقـــول[٨٦]. وشـــعروا بالارتيـــاح وتوســـموا خـــيراً كثـــيرا. وقـــد انتهـــج بعـــده الحكمـــدار خورشـــيد باشـــا نهجـــه ، فطلـــب مـــن الأعيـــان اختيـــار ممثـــل عنهـــم لديـــه لتعديـــل الضرائـــب تمشـــيا مـــع الأوضـــاع. فاختـــاروا الشـــيخ عبـــد القـــادر وقلـــده المشـــيخة مـــن حجـــر العســـل إلى االفونـــج. [٨٧]وقـــد أشـــار الشـــيخ عبـــد القـــادر إلى خورشـــيد باشـــا بإعفـــاء الفقهـــاء والأعيـــان مـــن الضرائـــب، حثـــا لهـــم عـــلى تأمـــين الأهـــالي للعـــودة إلى ديارهـــم. فعمـــل بمشـــورته ، وعاد كثـــير مـــن الهاربـــين مـــن قســـوة عثمـــان بـــك الى أوطانهـــم[٨٨].

جديـــر بالملاحظـــة ، أن هـــذه المشـــورة الســـودانية الخالصـــة ، المقدمـــة مـــن قبـــل الشـــيخ عبـــد القـــادر إلى خورشـــيد باشـــا ، والتـــي أوصـــت بإعفـــاء الفقهـــاء والأعيـــان مـــن الضرائـــب ، كانـــت احـــد اهـــم المنافـــذ الرئيســـية التـــي

---

٨٦ ـ نعوم شقير، ص ٥٥٠.

٨٧ ـ نعوم شقير. ص ٥٥٢.

٨٨ ـ نعوم شقير، ص ٥٥٣.

دخـل منهـا الفسـاد إلى الدولـة الاسـتعمارية الجديـدة في السـودان. ويبـدو ذلـك ، حتـى بعـد أكثـر مـن سـتين سـنة ، في تقريـر لجنـة سـلاطين باشـا التـي كونهـا غـردون باشـا بشـأن معالجـة الفسـاد الضريبـي ، وذلك قبيـل الثـورة المهديـة بأقـل مـن ثـلاث سـنين . فقـد توصـل سـلاطين باشـا في تقريـره إلى أن تهـرب / اعفـاء هـولاء الأعيـان والفقهـاء ، إلى جانـب المسـتعمر الابيـض ، وجميعهـم مـن كبـار المـلاك مـن الضرائـب [٨٩]. كان سـبباً رئيسـياً في إرهـاق المواطنـين الفقـراء . إذ يضطـر الجبـاة والمحصلـين إلى تغطيـة الفـارق الضخـم للغايـة مـن هـؤلاء الفقـراء ، فـكان وضعـا ضريبيـا معكوسـا ، يدفـع فيـه الفقـراء ضريبـة أربـاح الأغنيـاء . واليـوم، بعـد قـرن ونصـف مـازال هـذا التقريـر طازجـا ، ومـازال الحـال عـلى حالـه!

عـلى كل حـال ، مـا حـوى التقريـر يعـد احـد الأسـباب الحقيقيـة لسـوء سـمعة الضرائـب إبـان حكـم الدولـة التركيـة المصريـة في السـودان. وقـد رأينـا أن مصـدره كان فتـوى ممثلنـا لـدى الحكمـدار خورشـيد باشـا! وربمـا اعـترض البعـض بـأن الشـيخ عبـد القـادر كان يقصـد ، وقـت إعطـاء مشـورته ، حـل مشـكلة آنيـة ملحـة ، وهـي هـروب النـاس مـن ديارهـم وهجرهـم مزارعهـم ومراعيهـم ، ممـا أدى إلى خفـض مـوارد الدولـة الماليـة. وهـو قـول سـليم ، لكـن الحـل (الفتـوى) كان انتهازيـا ، تسـيطر عليـه العقليـة "الغنيميـة" ، هـذه العقليـة التـي مازالـت مسـيطرة عـلى فضـاء البـلاد ، وهـي أسـاس مـا نحـن فيـه اليـوم. لقـد تضمـن هـذا الـرأي مفهومـا بسـيطا للحـل قوامـه عقـد اتفـاق بـين الحكومـة والأعيـان والفقهـاء أساسـه شرطـان متقابـلان: (ارجـع عشـيرتك أو مريديـك إلى ديارهـم ، ليدفعـوا ضرائبهـم ، وتعفـى انـت وأسرتـك مـن أي ضريبـة مـن أي نـوع)! الـم يكـن الاكثـر رجاحـة وعـدل ، أن يشـير إليـه ، مثـلا، بإعفـاء العائديـن جميعـا مـن ضرائـب سـنة أو سـنتين ، أو تخفيضهـا للجميـع

٨٩ ـ سلاطين باشا «كارل رودلف. السيف والنار في السودان ، ص ٣.

بنسبة مقدرة ؟ كانت تلك معادلة بسيطة ، سليمة ، تعيد الناس إلى مواطنهم على حال من السرور. وهو مالم يحدث ، وانما حدثت تلك المشورة التي اهلكت الأمة سنين عددا ، وما تزال!

ما علاقة ذلك ، اليوم ، بعملية الانتخابات التي تجرى في بلادنا، منذ سبعة عقود ، ولا تنتج سوى الفشل ؟! وما علاقة ذلك بقادة الأحزاب السياسية ، والحكومات على السواء ، في شراء ولاء الزعماء والأعيان ، وتلك ليست مشكلة كبرى فهي أصواتهم ، لكن تنتج المشكلة الكبرى عندما يكون "الثمن" حمل كافة أفراد القبيلة ، أو المريدين وغيرهم ممن يمكنه التأثير عليهم ، على الإدلاء بأصواتهم لجهة محددة !

في العام ١٨٧١م. كان الدناقلة موظفي غردون في الاستوائية ، حيث (عملوا على تحصيل الضرائب ، والمحافظة على النظام ، وشراء سن الفيل ، واحيانا الفصل في المنازعات بوصفهم قضاة محليين أو شعبيين)[٩٠]. ويبدو أن الجمع بين هذه السلطات القوية الواسعة في يد مثل هؤلاء وفي تلك الانحاء البعيدة لن ينتج سوى الفساد. لقد أستغل المستعمر الزنجي النظام الضريبي لابعد مدى ، ففي العام ١٨٧٣م. كانت الضرائب المرسلة إلى الخديوي من حكمدار السودان اسماعيل باشا ايوب مليون جنيه (واستولى محصلوا الضرائب الجشعون على ما يعادل ذلك تقريبا) [٩١]. ومع أن تقرير لجنة سلاطين باشا كان صادقا إلا أنه كان ناقصا ، نعم كان كل من ذكرهم يسرقون الدولة ،وكذلك كل من اتيحت لهم الفرصة ، حتى الفقراء. فالمسؤول الكبير كان ينهب ، وكذا التاجر ورجل الدين. وأما شيخ الحلة والشرطي والجندي الصغير فكانوا يأخذون قطعا صغيرة ، لكنها كقضمات سمك الفيرانا (كثيرة ، متتابعة ، وقوية تحول التمساح إلى هيكل عظمي في لحظات). لذا ، لأجل

٩٠ ـ سيرجي سمرنوف. دولة المهدية من وجهة نظر مؤرخ سوفييتي. ترجمة/هنري رياض. الناشر/دار الجيل، بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٤م ، ص ١٧.
٩١ ـ نفس المرجع ، ص ٢٥.

هـذه القضمـات ، كان هـذا المسـتعمرالزنجي ، يمـارس التعذيـب المنهجـي عـلى الأهـالي ، بصـدق العابـد الزاهـد!

مهمـا يكـن ، كانـت ثمـة إشراقـات لحـكام المسـتعمر ، فيمـا يتعلـق بفـرض ضرائـب معقولـة. يذكـر منهـا التاريـخ مـا ادخلـه الحكمـدار مـوسى باشـا حمـدي(١٨٦٣ _ ١٨٦٥م.) مـن إصلاحـات فقـد أعطـى كل فـلاح سـيركي في يـده ، وقسـم الضريبـة عـلى أقسـام ثلاثـة ، وألـزم كل صراف بتسـجيل مـا سـدده الفـلاح في هـذا السـيركي الـذي يحتفـظ بـه الفـلاح كايصـال مـالي ، وكـذا عـين السـودانيين نظـار اقسـام وأعـوان وتحسـن الحـال [٩٢].وقـد اخـذت الضرائـب حيـزا كبـيراً خـلال العهـد التركـي المـصري ، فقـد اتخـذت مكانـا بـارزا في أمـر تعيـين آخـر حكمـدار عـلى السـودان _ رؤوف باشـا _ حيـث كان مما جـاء فيـه :(وكمـا لا يخفـى ، لفظـة الماليـة تشـمل كل مـا يلـزم ويمكـن تقريـره وجعلـه مـن الأمـوال والفوائـد ، بطريقـة لا يتأتـى منهـا الأضرار بحالـة الأهـالي ، ولا الاجحـاف بحقـوق الخزينـة) [٩٣].

الضرائب في الدولة المهدية:

تميـزت الدولـة المهديـة باختفـاء المسـتعمر الابيـض تمامـاً ، فالرجـل الكبـير قطـع رأسـه ، وبقيـة اتباعـه انتهـى بهـم الأمـر إلى القتـل أو الاسر أو الفـرار . تغير النظـام مـن رأسـه إلى أخمـص قدميـه ، فدلفـت الجبـة والـسروال إلى قـصر الحاكـم العـام ، وانتهـت حفـلات الموسـيقى الصاخبـة المسـتجلبة مـن القاهـره ولنـدن إلى قـراءة راتـب الإمـام المهـدي آنـاء الليـل وأطـراف النهـار . وكان دخـول الخرطـوم أو سـقوطها علامـة فارقـة ، فقـد كان سـقوطها (مؤذنـا بسـقوط النقـاط التـي كانـت لا تـزال تقـاوم في البـلاد وهـي سـنار وكسـلا . وانهيـار الإمبراطوريـة المصريـة في السـودان . كمـا كان لـه دوي كبـير في مـصر وانجلـترا وأوربـا. ورأت فيـه بعـض الصحـف الألمانيـة بدايـة النهايـة للامبراطوريـة البريطانيـة) [٩٤].

---

٩٢ ـ نعوم شقير، ص ٥٦٧.

٩٣ ـ نعوم شقير، ص ٦٥٣.

٩٤ ـ د. أحمد أحمد سيد أحمد ، تاريخ مدينة الخرطوم، ص ٤٣٧].

اذا ، خـلا الجـو مطلقـا للمسـتعمر الزنجـي في العهـد المهـدوي ، مـن حلفـا إلى تخـوم بحـر الغـزال ، ومـن أقصى الغـرب الى البحـر الاحمـر _ عدا سـواكن _ فماهـي النتيجـة؟ ظهـرت النتيجـة بمجـرد وصـول السـلطة. فعندمـا (دخـل الثـوار الخرطـوم نـزل خليفـة المهـدي عبداللـه التعايـشي في سراي الحكومـة وسـكن سـائر الامـراء في بيوتهـا الكبـيرة ، واسـتمر امين بيـت المـال شـهرا يجمـع الأمـوال والذهـب والفضـة ، ويجـبر السـكان عـلى إظهـار المخبـأ منهـا) [٩٥]. يبـدوا أنـه لا جديـد ، فقـط تحـول الباشـبوزق في العهـد البائـد إلى الانصـاري في العهـد الجديـد ، الاول ينهـب النـاس تحـت غطـاء الخديويـة ، والثانـي يفعـل بتأييـد مـن المهـدي "خليفـة رسـول اللـه صـل اللـه عليـه وسـلم. بينمـا الجهـادي في ذات موقعـه وموقفـه مـن المواطـن البائـس ، وكل مـا اسـتجد مـن امـره ، أنـه كان حليفـا للباشـبوزق في السـلب والنهـب ، فصـار حليفـا للانصـاري ، بـذات المسـمى الوظيفـي القديـم!

لقـد تأكـد خـلال الدولـة المهديـة أن المسـتعمر الزنجـي لـم يكـن أقـل ضراوة عـلى العبـاد مـن شريكـه "الابيـض". كان مـن حسـنات طـرد وإخـراج "الابيض"مـن الدولـة السـودانية تمامـاً في عهـد الحكـم المهـدوي ، كشـف المسـتعمر الزنجـي عـلى حقيقتـه. فقـد وضـح ، بمـا لا يـدع مجالا للشـك ، أنـه كان شريـكا أصيـلا لا مجـرد شـاهد ملـك ، كمـا كان يدعـي . كيـف لا ، وقـد كـشر الفسـاد عـن أنيابـه ، وعـاث الانصـاري والجهـادي نهبـا مفضوحـا ، لدرجـة أن تهمـة جرائـم الفسـاد المـالي كانـت وسـيلة مضمونـة ضـد خصـوم النظـام ، صدقـا أو كذبـاً ، وقـد طـال العقـاب عـددا مـن القـادة البارزيـن عـلى رأسـهم عـدد مـن وزراء الماليـة (مسـؤولي بيـت المـال) وثلاثةمـن رؤسـاء القضـاء (قـاضي الاسـلام). وعـدد معتـبر مـن القـادة العظـام ، عـلى رأسـهم الزاكـي طمـل رغـم أن عمـر الدولـة لـم يـزد عـن العقـد الواحـد إلا قليـلا! !

---

٩٥ ـ نفس المرجع ، ص ٤٤٠]

لـــم يلتـــزم جبـــاة الضرائـــب في عهـــد المهديـــة بالعـــشر المفـــروض مـــن الخليفـــة ،وانمـــا كانـــوا يأخـــذون مـــا قـــدروا عليـــه مـــن المواطنـــين البؤســـاء. أمـــا الأثريـــاء ، غـــير المحميـــين ، فكانـــوا يعانـــون صنوفـــا مـــن الابتـــزاز كأن يؤمـــروا بتقديـــم قـــروض للحكومـــة ، وبالطبـــع لـــم تكـــن مســـتردة! (٩٦).

عنـــد قـــراءة مـــا ســـبق بتـــأن ، نجـــد أن جوهـــر المشـــكلة لـــم يكـــن فـــرض الضرائـــب ، إذ لا غنـــى عنهـــا لإدارة أي نظـــام يحكـــم البـــشر ، وخـــير دليل على ذلـــك لجـــوء النظـــام المهـــدوي إليهـــا منـــذ عهـــد الثـــورة ، بـــل في أيامهـــا الأولى ، حيـــث كان يوعـــز للمواطنـــين ، بصـــورة أوأخـــرى ، التـــبرع لدعـــم الجهـــاد. ومـــا أن تحولـــت إلى دولـــة حتـــى أنشـــأت لهـــا هيئـــة ماليـــة متكاملـــة إســـمها بيـــت المـــال ، في المركـــز والاقاليـــم ، وحيثمـــا وجـــد تجمـــع بـــشري كان يلـــزم بســـداد مـــا عليـــه تحـــت اي مســـمى مناســـب : زكاة ، ضريبـــة ، مكـــس..... الخ.

اذا ، أيـــن كانـــت المشـــكلة؟! كانـــت في هـــذا الموظـــف الفاســـد ، جامـــع الضرائـــب ، وليســـت الضرائـــب في حد ذاتهـــا: المســـتعمر الزنجي (الباشـــبوزق الشـــايقية ، الدناقلـــة ، الجهاديـــة ، شـــيخ الحلـــة ، شـــيخ الخـــط ، رئيـــس القســـم ، شـــيخ مشـــايخ المديريـــة وغيرهـــم). كانـــوا جميعـــا فســـدة ، لـــذا كانـــت التركيـــة فاســـدة ! نعـــم ، فرضـــت التركيـــة عـــلى الشـــعب الســـوداني ضريبـــة قدرهـــا مليـــون جنيـــه ، لكـــن فـــرض المســـتعمر الزنجـــي اثنـــين ، ثلاثـــة ، أربعـــة مليـــون فكيـــف لا تكـــون مرهقـــة وباهظـــة؟! هـــذا هـــو أس البـــلاء أكثـــر مـــن الاســـتعمار نفســـه ! تخيـــل لـــو ترفق هـــؤلاء الاســـتعماريون الزنـــوج باهلهـــم مكتفـــين بمـــا فـــرض مـــن الحكومـــة ، هـــل ثمـــة رهـــق عـــلى عاتـــق ؟! وهـــل لذلـــك علاقـــة بمـــا نحـــن فيـــه اليـــوم حـــين يطـــير التاجـــر فرحـــا بـــأي زيـــادة حكوميـــة عـــلى ســـلعة ، كونهـــا ســـتربحه مرتـــين : ربـــح عـــلى الســـلعة ، وربـــح عـــلى زيادتهـــا. حشـــفا وســـوء كيلـــة! واذا مثلنـــا

---

٩٦ ـ سيرجي سمرنوف. دولة المهدية من وجهة نظر مؤرخ سوفييتي ، ص ١٤٠.

لذلــك بســلعة قيمتهــا عــشرة جنيهــات ، ورفعتهــا الحكومــة ، جزافــاً ، الي عشريــن جنيهــا. فالتاجــر هنــا لا يســعى إلى إضافــة هــذه الجنيهــات التــي زيــدت عــلى القيمــة الأساســية ، وانمــا يضــع هــو أيضــا ، جزافــاً ، مــا عــن لــه مــن إضافــة قــد تعوضــه ثمانــين أو مائــة جنيــه!

إن المنطــق يؤكــد أنــه حــال اكتفــاء الجامعــون الشرهــون بمــا فرضتــه الحكومــة فحســب ، لــن يعجــز أحــد عــن الســداد ، أو لــن يعجــز كثــيرون . وهنــا لــن يكــون فــرق عجــز التحصيــل كبــيراً ، وبالتــالي ، لــن تحتــاج الحكومــة إلى ســياطها ، قططهــا ، خازوقهــا وبقيــة ادواتهــا التأديبيــة! ولكــن ، لمــا عظمــت، عظمــت اعــداد العاجزيــن ،فلــزم الســلطة اســتخدام الســوط ، القــط ، والخــازوق ، فكانــت التركيــة المصريــة وحشــية مــن ناحية القمــع في جمــع وتحصيــل الضرائــب !

الفصل الثالث
الجيش

لـم يكـن جيـش الغـزاة كافيـا لفـرض النظـام ، وفضـلاً عـن ذلـك تكبـد خسـائر كبـيرة جـراء الأمـراض والأوبئـة ، وبالطبـع خسـائره الناتجـة عـن المعـارك. فـكان طبيعـي أن يحتـاج إلى عضـد محـلي يمـارس القمـع وفـرض النظـام نيابـة عنـه ، فـبرز المسـتعمر الزنجـي كشريـك مسـتعمر. وفي الواقـع لـم يكـن الجنـدي السـوداني غريبـاً عـن الجيـش المـصري الـذي ذكرنـا ، آنفـا ، أنـه كان يلحـق بـه بوسـائل مختلفـة. ومـا أن وطـأ الغـازي أرض السـودان حتـى وجـد هـذا العضـد طـوع بنانـه. ويبـدو أن أول عسـكري تـم اسـتيعابه كان ملـك الشـايقية جاويـش ، الـذي تـم تعيينـه عـلى حـوالي ١٤٠ مـن رجالـه في ١٥/ينايـر/١٨٢١م. وكـذا تـم تعيـين الشـيخين الازيـرق وعبـود شـيخ باديـة السـواراب وربـط لهـم مرتبـات معينـة ، وكان هـذا أول دخـول الشـايقية الباشـبوزق في جيـش الحكومـة التركيـة المصريـة في السـودان ، وقـد بقـوا فيـه إلى قيـام الثـورة المهديـة [٩٧].

وفي عهـد عثمـان بـك الحـق الجهاديـة بالجيـش التركـي المـصري ، وهـم بمثابـة الجيـش الحديـث الـذي درب عـلى أسـاليب متطـورة [٩٨]. وقـد تـم اسـتخدام الجهاديـة مبكـراً خـلال الأعـوام ٢٧ _ ١٨٣٣م. مـن قبـل الحكمـدار خورشـيد باشـا في حمـلات اسر الرقيـق أو لتأديـب شـيخ متمـرد عـلى سـلطانه[٩٩]. وقد اعتمـدت الحكومـة التركيـة المصريـة بصورة أساسـية

---

٩٧ ـ نعوم شقير، ص ٥٣١.

٩٨ ـ د. أحمد أحمد ، تاريخ مدينة الخرطوم. ص ٣٨٠.

٩٩ ـ روبـرت أو. كولنـز. تاريـخ السـودان الحديـث. ترجمة/مصطفـى مجـدي الجمـال. مراجعة/حلمـي شـعراوي. الناشـر/ مكتبـة الاسـرة ٢٠١٥م ، ص ٣١.

علـى هذيـن العنصريـن لتوطيـد حكمهـا حتـى آخـر ايامهـا. ومـع ذلـك ، انخرطـت ـ غـير هذيـن العنصريـن ـ مجموعـات متنوعـة ، وإن كانـت أقـل تأثـيرا منهمـا ، وذلـك لنفـس السـبب بالنسـبة للجيـش الغـازي ولأسـباب أخـرى بالنسـبة المسـتعمر الزنجـي (ولأن عـدد الجيـش الغـازي كان قليـلا فقـد اعتمـد الغـزاة عـلى بعـض الأهـالي في وظائـف مرتبطـة بالسـلطة الجديـدة ، محققـين طموحـات البعـض ، مثـال ذلـك العمـل في الجيـش والشرطـة وبعـض الأعمـال الماجـورة) (١٠٠).

عنـد انـدلاع الثـورة المهديـة كان عـدد جيـش الاحتـلال التركـي المـصري في السـودان حوالي ٤٠,٤٩٠جنديـاً (١٠١). ويشـمل هـذا العـدد كل القـوة العسـكرية للمسـتعمرين الابيـض والزنجـي. ويشـمل ذلـك كل الأجهـزة الأمنيـة واي جهـاز لحفـظ النظـام. ومـع ذلـك لـم يكـن عـدد الأتـراك والمصريـين وغيرهـم مـن الأجانـب كبـيراً ، وربمـا لـم يتعـد بضعـة آلاف في أحسـن تقديـر. فكيـف اسـتطاعوا مقاومـة ثـورة شـعبية هـادرة لمـا قـارب الأربعـة أعـوام ؟!

كان الصمـود مـن قبـل المسـتعمر الزنجـي الـذي عنـى لـه النظـام الحاكـم كل شيء. كان أداة نهبـه وسـلبه ، جبروتـه وقهـره ، دونـه هـو لا شيء . فـلا عجـب أن كانـت قيـادة الدفـاع ، حتـى اجتيـاح الخرطـوم سـودانية ، بـل حتـى بعـد اجتياحهـا ، حيـث صمـد صالـح ألمـك مدافعـا عـن سـنار بعـد اجتيـاح الخرطـوم بزمـن طويـل . لقـد استبسـل كثـيرون في الدفـاع عـن مدينـة الأبيـض ، كان الجعليـون بقيـادة أحمـد دفـع اللـه ، عـلى رأس المدافعـين ، وكان إبـن عمـه إليـاس باشـا امبريـر ضمـن قـادة الثـورة المغيريـن. وفي بربـر قاتـل العبابـدة تحـت رايـة ابنهـم حسـين بـك خليفـه مديـر المديريـة. وقاتـل معهـم سـودانيون كثـر. لقـد كان عـلى الأرجـح قتـالاً سـودانيا سـودانيا ، راح ضحيتـه عـشرات الآلاف ، دافـع فيهـا المسـتعمر الزنجـي عـن كيانـه الـذي بقـي بفضلـه لسـبعة عقـود!

---

١٠٠ ـ د. أبكر آدم اسماعيل ، جدلية المركز والهامش.. ص١٩٤/١٩٣.

١٠١ ـ نعوم شقير، ص٦٦٦.

الفصل الرابع
المستعمر الزنجي في العهد الثنائي

لازم السيد علي الميرغني المصريين والانجليز منذ خروج الأتراك والمصريين من السودان وعاش طوال العهد المهدوي في مصر. ولم يدخر وسعا في زعزعة النظام الحاكم في السودان. وما أن لاحت فرصة إعادة الغزو حتى طارت نفسه سعادة لدرجة تبرعه بخدماته لأجل هذا الغرض. وقد أبدى رغبة ملحة في المساعدة بكل ما يلزم لإسقاط النظام. قدم تلك العروض السخية خلال رسالة خاصة إلى المخابرات الحربية المصرية ، والتي عبر خلالها عن بالغ سروره بنجاح الغزو "حملة منطقة شمال دنقلا"! ومما جاء فيها :(كنا نأمل في ان ....نرى السودان يعيش في سلام ورفاهية قبل مرور وقت طويل ، وان ينعم الأهالي فيه بالحرية التي وجدتها الشعوب الأخرى على أساس العدل وحكم القانون)[١٠٢]. وبذلك ، حجز مقعده كشريك مستعمر ، في العهد الجديد ، وبالفعل تمتع اتباعه بنصيب وافر من السلطة إلى حين.

وفيما بعد ، نتيجة تداعيات صراع كتوم بين الشريكين الأصليين (الانجليز والمصريين) للسيطرة على مقاليد الحكم في الدولة السودانية الجديدة ، تم تصنيف الميرغني كتابع أكثر اخلاص لمصر ، وباحتدام الصراع بينهم والمصريين رغبت انجلترا في تحجيم هذا التابع الموالي للخديوية. الأمر الذي الجأها اضطرارا إلى إعادة النظر في شأن طائفة

١٠٢ - بروفيسور بدر الدين حامد الهاشمي. السودان بعيون غربيه. الجزء الخامس. الناشر/ مكتبة جزيرة الورد - الطبعة الأولى ٢٠١٥م ، ص ٣٩٧.

الانصـار ومحاولـة إيجـاد شراكـة معهـا تعمـل كترياـق مضـاد ضـد عـدو تقليـدي ، هـو طائفـة الختميـة ، وعـدو قديـم يمثلـه المصريـون. وكانـت الحـرب العالميـة الأولى توقيتـا مناسـبا لبـدء الشراكـة. وبعـد الحـرب العالميـة الأولى بـرز السـيد عبـد الرحمـن المهـدي وطائفتـه كمنافـس قـوي للختميـة والمصريـين عـلى السـواء.

وقـد اسـتمر مشـاركا في إدارة البـلاد بصـورة أو أخـرى ، عـبر التحكـم في طائفـة تتمـدد عـلى طـول البـلاد وعرضهـا ، احتكـر تمثيلهـا كوريـث دون منـازع. وكان ثمـرة ذلـك تأسـيس امبراطوريـة اقتصاديـة هائلـة ، مدعومـة مـن تحالـف زعمـاء القبائـل والعشـائر. وترجـم المسـتعمر الابيـض رضـاءه عـن شريكـه الزنجـي بتمليكـه وسـائل وسـلطات الحكـم مبـاشرة في يـده. حيـث منـح زعمـاء القبائـل الرحـل سـلطات قضائيـة بموجـب قانـون ١٩٢٢م.وفي العـام ١٩٢٧م ألحـق زعمـاء المزارعـين بـذات السـلطات ، وتطـورت التشريعـات المسـاندة للشريـك الوطنـي في بدايـة الثلاثينـات ونهايتهـا.

خـلال هـذه المرحلـة تحولـت الادارة الأهليـة إلى حاكـم فعـلي فكانـت السياسـات ترسـم بنـاء عـلى اقتراحاتهـم ؛ الضرائـب وتحصيلهـا ، الأمـن وفرضـه ، التطـور الاجتماعـي وغـير ذلـك. أمـا الفصـل القضائـي في المنازعـات فكانـت لهـم سـلطة واسـعة الا مـا تقاطـع مـع القانـون أو السياسـة العليـا. ومـن منطلـق هـذه الصلاحيـات والسـلطات كان يمكنهـم الاسـهام في رفعـة مجتمعاتهـم المحليـة ، ممـا ينعكـس عـلى تنميـة البـلاد عامـة. لكنهـم ظلـوا يسـوقون ذات الحجـج وهـي أن المسـتعمر الابيـض هو مانـع التقـدم ، ومـا أن خـرج حتـى انكشـف زيـف الغطـاء!

حسـنا، مـن كانـت هـذه الإدارة الأهليـة المختـارة مـن قبـل المسـتعمر الانجليـزي المـصري؟ لـم تكـن سـوى الشريـك الاسـتعماري القديـم ، المسـتعمر الزنجـي. وهـي الحقيقـة. ففـي كل أنحـاء القطـر اسـتعان

المستعمر باؤلئك الذين كانوا قد عملوا مع الحكم التركي المصري ، وانخرطوا بعد زواله مع المهدية ، وهاهم اليوم يبايعون سيدا جديداً. يمكن تلخيص المسألة في استعراض ما فعله ماكمايكل في الفاشر ، بعد زوال حكم علي دينار. فقد كون (جسماً استشاريا باسم مجلس الملوك ،يتكون من قيادات عهد علي دينار السابق. وكان على رأسهم الملك محمود الدادنقاوي رئيس الوزراء السابق في عهد السلطنة ، والفكي صالح ومصطفى جلقام ، وعلى السنوسي ، والأمير حسن ابراهيم ويوسف المقدوم شريف ، والمفتي ادريس عبد الله ، وفضل احمد ابو جبايين ، وحاج حمزة سماني. كل هؤلاء كانوا من قادة النظام القديم في عهد السلطان علي دينار ، ولكنهم أثروا التعاون مع السلطة الجديدة) [١٠٣]. لقد كان هذا هو النموذج الذي حدث في كل أنحاء السودان!

عند تحليل الادارة الاستعمارية ، نجد أن الحكام الاستعماريون لم يكونوا سواء ، إذ كان منهم الصالحين ودون ذلك. فقد ودع أهالي الخرطوم الحكمدار خورشيد باشا بالدموع عند مغادرته ، في نهاية خدمته ، إلى مصر. وعاش الناس رخاء في عهد الحكمدار احمد باشا ابي ودان ، وكذا حالهم مع الحكمدار موسى باشا حمدي ، وكان عدل جعفر مظهر مضرب الأمثال[١٠٤].

أما في عهد الحكم الثنائي فقد كان الحكام أكثر تأهيلا ونزاهة. خاصة في شمال السودان ، حيث تم تعيينهم وفقاً لمواصفات اللورد كرومر _ قنصل بريطانيا لدى مصر والمسئول عن السودان _ فقد كتب للمسؤولين في لندن طالبا إرسال موظفين للعمل في السودان يكونوا (من شباب نشطين ، يتمتعون بالصحة التامة ، لهم شخصيات قوية ، ومقدرات جيدة ، من غير الخاملين من العنصر البريطاني ،

١٠٣ ـ د.يوسف تكنه ، دارفورصراع السلطة والموارد ، ص٣٠٧.
١٠٤ ـ د. أحمد أحمد سيد أحمد ، تاريخ مدينة الخرطوم ، ص ٣٩٣.

مـن بـين اميـز المتخرجـين مـن مدارسـنا وكلياتنـا) [١٠٥]. وقـد قـادت تلـك النخبـة الإداريـة البريطانيـة الدولـة السـودانية محققـة أعظـم النجاحـات التـي تضاءلـت بعـد خروجهـم!

وعنـد تحليـل الادارة التنفيذيـة الاسـتعمارية ، بالـكاد تلحـظ المسـتعمر "الابيـض" حيـث يطغـى عـلى المشـهد المسـتعمر "الزنجـي" يفسـد وطنـه ، فسـاد الـدود للجثـة عنـد تحللهـا ، وإذا سـئل عـن فسـاده ، هلـل وكـبر قبـل الآخريـن : "إنـه المسـتعمر ، لابـد مـن طـرده ، هيـا ...اتبعونـي لفعـل ذلـك!" ودون وعـي ، تخـرج الجمـوع هـادرة بشـعاراته التـي ألفهـا مسـجوعة للمناسـبة.......ويفي بوعـده ، ويطـرد المسـتعمر.......يخرجه... ....ذاك........... "الابيـض" ....ويحـل محلـه....... المسـتعمر........ هـذا....... الزنجـي!

وعـلى ضـوء ذلـك ، يتضـح أن الإسـتعمار كان نتيجـة لازمـة سـودانية مزمنـة. كانـت موجـودة قبـل مجيئـه ، وعاشـت في ظلـه ، وبقيـت بيننـا عندمـا خـرج. وشـيئا فشـيئا ، اضطـر السـودانيون للتفكـير حـول أسـباب أكثـر جديـة مـن حجـة الاسـتعمار.

١٠٥ ـ د.فرانسيس دينق ، صراع الرؤى ، ص٥٧.

الباب الثالث
مدرسة ما بعد الاستقلال

الباب الثالث
مدرسة ما بعد الاستقلال

بعـد خـروج المسـتعمر تراجـع الحـال يومـا اثـر آخـر ، وشـيئا فشـيئا بـدا السـودانيون يتلمسـون اتجاهـات مختلفـة لتشـخيص جذر مشـكلتهم. ولمـا لـم يكـن ثمـة غريـب يوجـه إليـه اللـوم. تبـادل النـاس الاتهامـات ، مـا زاد الانقسـام. ومـع اختـلاف هـذه الأقسـام ، إلا أنهـا اتفقـت عـلى ان المسـتعمر ليـس جـذر الأزمـة. وعليـه ، يمكـن أن يطلـق عليهـا مدرسـة مـا بعـد الاسـتقلال.

وتيسـيرا للبحـث ، ولأغـراض الدراسـة ، يمكـن تقسـيم مدرسـة اسـباب مـا بعـد الاسـتقلال إلى جناحـين أساسـيين : جنـاح القوميـين ، وجنـاح العرقيـين. ويمكـن تقسـيم جنـاح القوميـين إلى اتجاهـين : إتجـاه المدنيـة واتجـاه العسـكرية. وهـذا الجنـاح بقسـميه _ مدنيـين وعسـكريين _ يلتقـي في رؤيـة واحـدة ، تتمثـل في ضرورة الحـل القومـي.

أمـا جنـاح العرقيـين فهـو الـذي يسـتند مبـاشرة إلى أسـباب عرقيـة في تكييـف المشـكلة : العـرق ، العنصريـة ، الهويـة. او بصـورة غـير مبـاشرة حيـث يسـتند إلى وقائـع وأحـداث _ سياسـية ، اقتصاديـة واجتماعيـة، وايكلوجيـة وغيرهـا _ لاسـباغها توجهـا عرقيـا ضـد الآخـر. وينتهـي إلى نهايـة محـددة ، هـي اعتبـار الآخـر اس البـلاء .وينتهـي ، غالبـا ، إلى نتيجـة واحـدة هـي الدعـوة إلى الحـرب للانفصـال ، وتكويـن دولـة خاليـة مـن الأسـباب المقعـدة _ الآخـر _ أو في أحسـن الأحـوال الدعـوة للانفصـال سـلما.

ولا يعـود التقسـيم إلى قوميـين وعرقيـين إلى تصنيفـات عرقيـة، اجتماعية ، أو ثقافيـة. وانمـا يحكـم هذيـن المصطلحـين المفاهيـم الكليـة للمسـتعمر الزنجـي والتـي تختـزل في "الدولـة الغنيمـة". وبالتـالي ، يدافـع القوميـون غالبـا لأجـل الاسـتئثار ب"الدولـة الغنيمـة". ويقاتلهـم العرقيـون لأجـل سـلبهم هـذه "الغنيمـة"، أو عـلى الأقـل ، تقاسـمها معهـم!

ورغـم مـا يبـدو مـن اختـلاف بـين هذيـن الجناحـين الأساسـيين (القوميـين والعرقيـين) إلا أن ثمـة رابـط آخـر يجمعهمـا هـو كونهمـا معـا يمثـلان سـلالة _ وريـث _ المسـتعمر الزنجـي. لقـد خـرج المسـتعمر الابيـض كمـا رأينـا ، ولـم نشـهد خـروج الشريـك الاصيـل "المسـتعمر الزنجـي"، لانـه كان عـلى رأس المودعـين الهاتفـين : يـا غريـب يـلا لبلـدك! بقـى بيننـا بـكل أشـكاله _ الفقهـاء والأعيـان الذيـن اعفـوا مـن سـداد مـا عليهـم مـن ضرائـب ، الباشـبوزق ، والجهاديـين _ أصبحـوا، لأول مـرة ، بعـد وقـت طويـل وحدهـم ، لا شريـك أجنبـي معهـم. و"الدولـة الغنيمة"بـين يديهـم !

والخـلاف الأبـرز بـين الجناحـين _ القوميـين والعرقيـين _ أن جنـاح القوميـين يسـتأثر غالبـا بالسـلطة الكاملـة (كل البـلاد) عـبر تحكمـه في المركـز. بينمـا الجنـاح الآخـر متمكـن مـن السـلطة في جهاتـه (الهامـش) ولكنـه مسـتبعد مـن السـلطة التـي تتحكـم في الدولـة كلهـا، أو مشـارك بقـدر ضئيـل. و بصـورة أكثـر تفصيـل يمكـن القـول إن العرقيـين يمثلـون صـورة مصغـرة مـن القوميـين ، والعكـس صحيـح!

لـذا فالـصراع ، في الحقيقـة ، هـو بـين الفقهـاء والأعيـان المعفيـين مـن الضرائـب عـلى مسـتوى المركـز ، والفقهاءوالأعيـان المعفيـين مـن الضرائـب في الأطـراف. وغالبـاً ، ينتهـي إلى اتفـاق يهـدف – لا إلى اصـلاح مؤسسـة الدولـة ، فهـي لا تهـم احـدا _ إلى صنـع مزيـد مـن المقاعـد الدسـتورية. وذلـك بطـرق مختلفـة : تفكيـك بعـض الـوزارات لتحتمـل أكثـر مـن

وزيـر ، مثـلا اذا كان اسـمها وزارة الثـروة الحيوانيـة والسـمكية تكـون قابلـة للتقسـيم بحيـث تسـتوعب وزيريـن أحدهمـا للحيوانيـة ، والآخـر للسـمكية. ومـن الطرائـق كذلـك بدعـة وزيـر الدولـة. ويمكـن كذلـك فتـح البرلمـان أمـام الفقهـاء والأعيـان المعفيـين مـن الضرائـب الجـدد ، للتبطـل ، والتسـكع ، والتوشـح بالوجاهـات ، مـع غنـم المخصصـات والمكافـات ، وغـير ذلـك مـن أبـواب الغنيمـة، تعويضـا لهـم نظـير مـا كبـدوه للوطـن مـن خسـائر!

ويـدور الـصراع كذلـك بـين الباشـبوزق المتحكمـين في المركـز ، والباشـبوزق المتحكمـين في السـلطة في الأطـراف. وبـين جهـادي المركـز وجهـادي الأطـراف _ الحـركات المتمـردة _ لـذا يكـون اتفـاق الترتيبـات الأمنيـة ضرورة ، لاقحامهـم في المؤسسـة الجهاديـة المركزيـة، كمـا حـدث بعـد أديـس أبابـا ، نيفاشـا ، وجوبـا . ولا عـزاء لقوانـين قـوات الشـعب المسـلحة. وهـي أحـد الأسـباب الرئيسـية في تدهـور المؤسسـة العسـكرية.

وتاسيسـا عـلى ذلـك ، ثبـت خـروج المسـتعمر الابيـض ، وبقاء المسـتعمر الزنجـي. ولكـن تغـيرت هيئتـه وإن بقـي جوهـره كمـا كان. لقـد تحـول الأعيـان إلى السـيدين عبـد الرحمـن المهـدي وعـلى الميرغنـي ، ومـن حولهمـا مـن كبـار مسـاعديهم ، وكبـار رجـال الديـن ، والنظـار ، والعمد ، وشـيوخ العشـائر ، وكبـار التجـار. وحـل الخريجـون وعمـوم المثقفـين محـل طائفـة الفقهـاء ورجـال الديـن في العهـد التركـي المـصري. بينمـا ألتحـق الجهـادي بالمؤسسـة العسـكرية أمـلا في انتهـاز سـانحة للانقضـاض عـلى السـلطة! وتـوزع الباشـبوزق بـين هـذه الكيانـات المختلفـة. أمـا الأهـالي فوقفـوا عـلى هامـش الملعـب ، ليـس ورعـا منهـم او اسـتقامة ، ولكـن في انتظـار السـانحة المناسـبة التـي تقـذف بهـم إلى أي مجموعـة..... لا فـرق!

الفصل الأول
جناح القوميين

يتفق قسما هذا الجناح (مدنيون وعسكريون) على أن أساس اشكال البلاد قومي ، يتطلب حلا على مستوى القطر الواحد يشمل كافة أقاليم الدولة وسكانها ، ويقوم على أساس المواطنة المتساوية. ويؤسس ذلك على سلطة مركزية عاصمتها الخرطوم ، مع علاقة متنوعة بين عاصمتها واقاليمها المختلفة _ يمكن أن تؤسس العلاقة على المركزية ، أو اللامركزية ، وغير ذلك _ ولكنهما يختلفان في سبب أزمة البلاد. والمفارقة أن أيا منهما يرى الآخر جذرا للأزمة. فالجناح المدني كان وما زال يعتقد أن أساس مشكلة السودان هو تسلط العسكريين على السلطة ، أو ما يعرف بالانقلاب العسكري عليها. فالحكم أساسه مدني ، ولا ينبغي للجيش أن يكون على رأسه _الجيش للثكنات _ أما الجناح العسكري ، فيرى أن أصل السلطة عسكري . إذ ثبت ، تاريخيا ، منذ آلاف السنين ، أن قادة الجيوش هم أساس إنشاء الدول. وبعد إنشائها تولوا زعامتها على أي شكل من أشكال الحكم _ ملكي ، امبراطوري ، سلطاني.....الخ _ وسواء كان هؤلاء القادة العسكريين زعماء دنيويين أو حتى أنبياء فإنهم قادوا جيوشهم واسسوا دولهم التي حكموها بأنفسهم ، وقد يأتي من بعدهم أبناؤهم. فالاصل التاريخي أن السلطة لهم ، و بمكر _ وخبث مدني _ تم تجريدهم منها تحت مسميات بالكاد يؤمنون بها : الديمقراطية ، الانتخابات ، التبادل السلمي للسلطة... إلخ! وبالتالي ، ما أن تلوح بادرة لعودتها إليهم حتى يقتنصوها. وهذا هو الأساس الفكري الداعم للانقلاب

العسـكري لـدى الجهـادي. ودليـل ذلـك ، أنـه مهمـا تهـاوت الدولـة لا يفكـر الآخـرون _ النقابـات ، الطوائـف ، القبائل...الـخ _ في الاسـتيلاء عليهـا غصبـاً. ومـع ذلـك ، أن حـدث وفكـروا في الاسـتيلاء عليهـا غصبـاً ، لا يكـون ذلـك إلا عـبر صاحـب الحـق الاصيـل _ المؤسسـة العسـكرية_ وهو سـبب لجـوء كل مـن فكـر في القيـام بالاسـتيلاء عـلى السـلطة اشراكهـا في مخططـه _الأحـزاب ، النقابـات ، القبائـل.... إلـخ _ وقـد يجـادل البعـض بـأن سـبب اللجـوء إليهـا امتلاكهـا القـوة الرادعـة ، وهـو صحيـح ، لكـن السـبب الأسـاسي هـو تحكـم الاعتقـاد بأنهـا صاحبـة السـلطة الأصيلـة ، والحـق التاريخـي عـلى نحـو مـا ابنـا.

الجناح المدني :

مهمـا يكـن ، قـام المسـتعمر قبـل خروجـه بامـور أساسـية : هـي الأعـتراف بـأن الجنـاح المدنـي هـو الوريـث الشرعـي للحكـم ، وذلـك عـبر تمكينـه _ بإنشـاء مؤسسـاته المدنية: المجلس الاستشـاري لشـمال السـودان ، المجلـس التشريعـي، القوانـين ذات الصلة..الـخ _ وكـذا ، الاعـتراف بـه ممثـلا عـن السـودانيين ، واعتمـاد قـرار إعـلان الاسـتقلال بواسـطته مـن داخـل البرلمـان. واخـيرا ، تسـليمه رسـميا البـلاد في احتفـالات إنـزال علمـي الاحتـلال ، ورفـع علـم السـودان. حيـث سـلم السـلطة لقـادة المدنيـين لا قـادة المؤسسـة العسـكرية.

والحكـم المدنـي هـو الشـكل المسـتحدث للحكـم ، خاصـة بعـد مواثيق حقـوق الإنسـان. فقـد كانـت حكومـات السـودان جميعـا تقـوم عـلى النهج العسـكري. فكانـت تؤسـس بالفتوحـات العسـكرية ،وتحكـم بالقمـع العسـكري . حتـى السـلطنات والمشـيخات كان عمادهـا جيشـها القـوي. وبالطبـع لا يمكـن التفكـير في شـأن اجـراء مـا يسـمى بالانتخابـات أو التبـادل السـلمي للسـلطة ، لأنهـا محتكـرة في ''البيـت الكبـير''!

بعـد إبـادة كـرري ، وأحـداث عـلى عبـد اللطيـف عـام ١٩٢٤م. ومـا

تبعهـا مـن قمـع شـديد ألحـق بالتطـور أضرارا كبـيرة ، بـرز نـوع جديـد مـن المقاومـة السياسـية التـي نبـذت الحـراك المسـلح . وبجهـود هنـا وهنـاك ، تمكـن بعـض الشـباب الناشـئين مـن بنـاء تنظيـم سـياسي ، يحمـل أسـما أكاديميـا رنانـا هـو مؤتمـر الخريجـين [١٠٦]. وقـد تمكـن هـذا الكيـان مـن جمـع أكـبر مجموعـة مـن الطليعـة المسـتنيرة. وكان عمـلا صالحـا ، تسـلل إليـه شـبه المـاضي الكئيـب. فقـد بـدأت هيمنـة الأعيـان عليـه مـن وقـت باكـر، إذ رأوا فيـه أداة جيـدة جديـدة ، يمكـن اسـتغلالها للسـيطرة عـلى "الدولـة الغنيمـة" طالمـا يحتمـل أن يكـون لهـؤلاء الناشـئة فيهـا نصيـب مقبـل الايـام. لـذا، لـم يدخـروا وسـعا في احتوائهـا.

ومـن ناحيـة أخـرى ، هيمنـت مفاهيـم المسـتعمر الزنجـي عـلى فضـاء المؤتمـر نفسـه، فكانـت نظـرة الكثـير مـن أعضائـه إليـه أنـه مجـرد "غنيمـة" تحقـق لهـم مصالحهـم. لقـد بـدأ ذلـك بالمناصـب التـي كان يفـترض أنهـا مسـؤولية لا تشريـف. تهافتـوا عليهـا بـدم بـارد. يصـف الأسـتاذ أحمـد خـير المحامـي تكالـب عضويـة مؤتمـر الخريجـين عـلى الدخـول في اللجنـة السـتينية للمؤتمـر (ولـم يـك تحديـد عـدد اعضـاء الهيئـة أو اللجنـة توخيـا لحكمـة ، أو نـزولا عـلى قاعـدة حسـابية أو تمثيليـة ، لكـن الاعتبـار الاول والاخـير، كان لإيجـاد أماكـن تسـع لاسـتيعاب أكـبر عـدد ممـن يرجـى خيرهـم أو يتقـى شرهـم) [١٠٧].

وبعـد سـنوات قليلـة ورث هـؤلاء الناشـئة مقاليـد السـلطة الوطنيـة مـن المسـتعمر الابيـض ، واسـتمرت مفاهيـم وأسـاليب المسـتعمر الزنجـي للسـيطرة عـلى الدولـة الغنيمـة . فرغـم اسـتيراد نظـم مدنيـة غايـة في التطـور ، تمثلـت في ممارسـة الحكـم عـبر الانتخابـات الحـرة وصـولا إلى برلمـان مـن مجلسـين : مجلـس للنـواب ، ومجلـس للشـيوخ عـلى طـراز (Westminster) إلا أنـه افتقـد عقليـة الديمقراطيةالمؤسسـية(عقلية

---

١٠٦ ـ كان قبل ذلك نادي الخريجين.

١٠٧ ـ احمد خير المحامي. كفاح جيل ، ص ٦٠.

(Westminister)وتحـول الزعمـاء الجـدد إلى ذات حال المسـتعمر الزنجي في عهـد الحكـم التركـي المـصري ، فـكان اكـبر همهـم تحقيق أوسـع مكاسـب ممكنـة للاسـتئثار بريـع الدولـة الغنيمـة. في ١٩٥٣م. أجريـت الانتخابـات ، وفـاز الحـزب الوطنـي الاتحـادي ، ولـم يطـق السـيد عبـد الرحمـن المهدي الأمـر ، وبصـورة مـا ، داهـم انصـاره احتفـال غريمـه بالنـصر. وقيـل أن حـوالي خمسـين ألـف منهـم جـاؤوا مـن الجزيـرة أبـا وحاولـوا اقتحـام قـصر الحاكـم العـام ، فاندلـع الشـغب. ونتـج عـن ذلـك مقتـل عـشرة شرطيـين بينهـم قائدهـم البريطانـي الـذي ضرب حتـى المـوت، وكـذا مقتل حـوالي عشريـن مدنيـاً [١٠٨]. ومـع ذلـك ، يمكـن تفهـم غضـب الأنصـار ، ففضـلا عـن غضبهـم جـراء الخسـارة المدويـة في الانتخابـات، ربمـا كان في حضـور رئيـس مـصري ذلـك الاحتفـال رسـالة ضمنيـة حـول تبعيـة السـودان للمصريـين، وهـو مـا كان ، ومـا زال ، يفجـر غضـب السـوداني.

وبتسـلم المدنيـين السـلطة، أصبـح البرلمـان بمجلسـيه وكـرا للدسـائس والمؤامـرات. حيـث تآمـر الـكل ضـد الـكل. وكانـت مسـألة الاسـتقلال بالنسـبة لكثيريـن مجـرد غنيمـة ، يفـترض أن تحقـق أكـبر كسـب عـبر المزايـدة معها/ضدهـا! وفقـا لخـضر حمـد خـاف السـيدان مـن تنامـي قـوة الأزهـري ، اذا حقـق الاسـتقلال ووضـع دسـتوراً دائمـا للبـلاد. فضـلا عـن تخوفهـم ممـا بـات صوتـاً واضحـاً ضـد الإقطـاع ، كل تلـك المخـاوف جعلتهمـا يقـرران الاتحـاد ضـد الأزهـري وحكومتـه [١٠٩]. وفي يـوم الخميس ١٠/نوفمـبر/١٩٥٥م. تآمـر السـيدان عـلى حكومـة الأزهـري واسـقطاها ، إلا أن الجماهـير أجبرتهمـا عـلى إعادتهـا [١١٠]. ومـع ذلـك ، أدى تنامـي هـذه المخـاوف إلى اجتمـاع السـيدين الكبيريـن ، وظهورهمـا عـلى المـلأ ، لأول مـرة منـذ عقـد مـن الزمـان ، واعلانهمـا تنحيـة خلافاتهمـا جانبـاً

١٠٨ ـ روبرت أو. كولنز. تاريخ السودان الحديث ، ص٨٢.

١٠٩ ـ خضر حمد. مذكرات خضر حمد ـ الحركة الوطنية السودانية، الاستقلال وما بعده. الناشر/ مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي. الطبعة الثانية ٢٠١٤م ، ص ٢٦١.

١١٠ ـ نفس المرجع ، ص ٢٥٨.

من أجل إنجاز الاستقلال الفوري [111].وادى ذلك إلى إصدارهما بيانا مشتركا في يوم الاحد ٤/١٢/١٩٥٥م.ارسلاه إلى الصحف ، وكان بمثابة نعي لحكومة الأزهري [112].لقد قيل الكثير عن هذا التحالف ، ومن ذلك قول محمد احمد المحجوب ، في كتابه الديمقراطية في الميزان:(لقد كان التحالف بين المهدي والميرغني أعظم كارثة منى بها تاريخ السياسة السودانية.ففي هذا التحالف سعى عدوان لدودان مدى الحياة. يدافع الجشع والتهافت على السلطة ، والغرور ، والمصالح الشخصية إلى السيطرة على الميدان السياسي. كنت أكن احتراماً عظيماً للاثنين كزعيمين دينيين ، غير أنه كان متوجبا عليهما البقاء خارج السياسة[113].

وفقا لروبرت أو. كولنز فإن (المفارقة أن إعلان الأزهري للاستقلال كان بمثابة الاعلان عن انتهاء دوره. فلم يعد السيد علي بحاجة إلى زواج المصلحة بين الختمية والأشقاء) [114]. وبايعاز من السيد علي انشق ٢١ عضوً في حكومة الائتلاف في يونيو ١٩٥٦م. وكونوا حزب الشعب الديمقراطي ، الذي تحالف مع حزب الأمة لإسقاط حكومة الأزهري. وبالفعل اسقطوها في ٥/يوليو/١٩٥٦م. بأغلبية ٦٠ صوتاً مقابل ٣٢ صوتاً . ومن بعد انتخب عبد الله خليل رئيسا للوزراء ، والذي انتهى إلى تسليم السلطة للعسكر في نوفمبر ١٩٥٨م [115].

خلال قضية عبد المنعم حسب الله الشهيرة منتصف ألخمسينيات. وقد رفعت القضية ضد عبد المنعم حسب الله لأنه كان قد اتهم الحكومة ورئيسها بالرشوة والتآمر. وكانت بعض وقائعها قد بدأت قبل الاستقلال. يقول خضر حمد (وعند نظر القضية أبرز عبد

١١١ ـ روبرت أو. كولنز. تاريخ السودان الحديث ، ص ٨٥.
١١٢ ـ خضر حمد. مذكرات خضر حمد - الحركة الوطنية السودانية، الاستقلال وما بعده ، ص ٢٦٢.
١١٣ ـ محمد احمد المحجوب ، الديمقراطية في الميزان ، ص ١٧٨.
١١٤ ـ روبرت أو. كولنز. تاريخ السودان الحديث ، ص ٨٧.
١١٥ ـ نفس المرجع ، ص ٨٧.

المنعم وثائق دامغة أثبتت أن النواب الذين تحولوا كانوا يتناولون مرتبا شهرياً من عبد الله خليل ، بواقع خمسين جنيهاً في الشهر منذ يناير ١٩٥٦م وجئ بالكشف أمام المحكمة وعليه أسماء النواب والمرتبات التي يتقاضونها ، وتوقيع السيد عبد الله خليل عليها. وكان المرحوم مبارك زروق هو المحامي عن عبد المنعم ، فأصر على أحد شيئين : أما أن يحضر عبد الله خليل أمام المحكمة ويؤدي الشهاده وهو رئيس الوزراء ، أو يعترف للمحكمة بأن ذلك إلتوقيع هو توقيعه وهو يقره. واختصر عبد الله الطريق ، واعترف بصحة الكشوفات والتوقيع) [١١٦] ويمضي خضر حمد إلى قوله (وكانت تدفع تلك الكشوفات لأولئك النواب على أنهم نواب الختمية ، بينما هم في الحزب الوطني الاتحادي ولم ينفصلوا عنه إلا يوم اسقاط الوزارة الائتلافية. تلك صورة من صور الماضي المخجل نسجلها للحقيقة والتاريخ) [١١٧]. ويمضي خضر حمد قائلا (وجاءت حكومة السيدين ، وكأنها حكومة احتلال اجنبي ، أبدت نوعا من انواع الصلف والاستبداد ، ما جعلنا نؤمن أنها كانت تظن أنها مخلدة ، وظهرت شعارات "انت رئيسها وسلمها لعيسى") [١١٨]. ويقدم خضر حمد ملاحظة مهمة وهي أن أعضاء حكومة السيدين لا قيمة لهم وإن كانوا وزراء (كانت تصرفات تلك الحكومة التي سماها رئيسها نفسه حكومة السيدين ، واعتبر بهذا القول أعضاء البرلمان كما مهملا لا أثر ولا قيمة لهم) [١١٩].

كان ذلك غيض من فيض من سلوك المدنيين "آباء الاستقلال" في ممارسة السلطة ، والذي يؤكد حقيقة مؤلمة هي أن الديمقراطية

١١٦ ـ خضر حمد. مذكرات خضر حمد ـ الحركة الوطنية السودانية، الاستقلال وما بعده ، ص ٢٩١.

١١٧ ـ نفس المرجع ، ص ٢٩١.

١١٨ ـ نفس المرجع ، ص ٢٩٣.

١١٩ ـ نفس المرجع ، ص ٢٩٣.

، البرلمـــان ، الانتخابـــات ، وكل شيء أن هـــو إلا وســـيلة يجـــب اســـتخدامها للحصـــول عـــلى "الدولـــة الغنيمـــة" وقـــد اســـتمر الحـــال في مؤامـــرات وتشـــاكس ، حتـــى ســـئم النـــاس الأمـــر ، وبـــدأوا شـــيئا فشـــيئا ، يعتقـــدون أن المدنيـــة وســـيلة خاطئـــة ، أو عـــلى الأقـــل ، لا تناســـب الســـودانيين ، أو في أحســـن الأحـــوال لـــم يـــأت وقتهـــا بعـــد! (وامتـــلأت الصحـــف بالتخمينـــات عـــن قـــرب وقـــوع انقـــلاب عســـكري) [١٢٠]

الجناح العسكري :

في ١٧/نوفمـبر/١٩٥٨م. أصـدر القائـد العـام للجيش الفريـق/ ابراهيم عبـود أوامـره بتأمـين المـدن الثـلاث (الخرطـوم ، بحـري ، وام درمـان) وأعلـن اسـتيلاءه عـلى السـلطة في البـلاد. وكان رد الفعـل مـن عمـوم الشـعب السـوداني الشـعور بالراحـة والتخلـص مـن الحكومـة المدنيـة غير المجديـة، وفـرح الشـعب لدرجـة تمجيـده الجنـرال (في سـيل مـن الاغانـي القبلية........"لرجولتـه" لأن السـلطة كمـا يقولـون حينهـا قـد الـت لمـن يملكـون قـوة السـلاح. ونصـح مـن لا يملكـون القـوة بالابتعـاد والتخـلي عـن المطالبةبالزعامـة) [١٢١].أمـا السـيدان فبـاركا الانقـلاب العسـكري عـلى مـا يفـترض أنهـا حكومتهمـا: فالسـيد عبـد الرحمـن المهـدي (وان أظهـر الحـذر) كان اصـلا وراء تسـليم عبـد اللـه خليـل الحكـم المدنـي للعسـكريين.اما السـيد عـلي الميرغنـي (فقـد منـح الانقـلاب تأييـده التـام، خاصـة وأن معظـم قادتـه كانـوا مـن الطائفـة الختميـة) [١٢٢].ولسـان حاله يقـول : أن الغنيمـة لا محالـة عائـدة لنـا! اذا ، بـارك السـيدان الانقـلاب عـلى حكومتهمـا! يقـول عبـد الماجـد ابوحسـبو في مذكراتـه (أن يقـع انقـلاب عسـكري في أي بلـد مـن بلـدان العالـم الثالـث ، لـم يعـد شـيئا يثـير الدهشـة والاسـتغراب. فقـد أصبحـت الانقلابـات وبـاء في هـذا العالـم البائـس. وان يؤيـد هـذا الزعيـم أو ذاك السـيد هـذا الانقـلاب أو ذاك ليـس

---

١٢٠ ـ روبرت أو. كولنز. تاريخ السودان الحديث ،ص ٩٠.

١٢١ - د.فرانسيس دينق. D.Francis M. Dengصراع الرؤى ، نزاع الهويات في السودان ، ص ٢١١.

١٢٢ ـ روبرت أو. كولنز. تاريخ السودان الحديث ، ص ٩٠.

بالـشيء المسـتغرب أيضـا ، فهـذا داب الزعمـاء والاسـياد عـلى طـول الخـط. أمـا أن يؤيـد السـيدان انقلابـا ضـد حكومتهمـا "حكومـة السـيدين" فلقد كان الشـئ الـذي لـم يقبلـه عقـل، ولـم يهضمـه انسـان)[١٢٣].

ولعـل أسرع آثـار هـذا الانقـلاب العسـكري أنـه قـد جـر وراءه عـدة انقلابـات لاحقـة بـدات بانقـلاب العميديـن محـي الديـن عبـد اللـه ، وعبـد الرحيـم شـنان اللـذان زحفـا بقواتهمـا في ٢/مـارس/١٩٥٩م. وحـاصرا مقـر عبـود ، لأنهمـا لـم يختـارا ضمـن المجلـس العسـكري، ممـا اضطـر عبـود إلى إعـادة تشـكيل مجلسـه وضمهمـا إليـه . لكنهمـا كـررا المحاولـة يـوم ٢٢/مـارس/١٩٥٩م. وفشـلا وحوكمـا بالاعـدام.ان هـذا الانقـلاب العسـكري يترجـم بـؤس عقليـة الجهـادي خـلال عهـد مـا بعد الاسـتقلال، فقـد اشـترك في هـذا الانقـلاب أربعـة مـن أعضـاء المجلـس الأعـلى للقـوات المسـلحة، هـم اللـواء أحمـد عبـد اللـه حامـد ، الامـيرالاي عبـد الرحيـم محمـد خـير شـنان ، الامـيرالاي محـي الديـن احمـد عبـد اللـه ، والامـيرالاي المقبـول الأمـين الحاج[١٢٤].ومـن بعـد ذلـك جـاءت محاولـة العقيـد عـلي حامـد الفاشـلة في نوفمـبر مـن نفـس العـام ، وتـم شـنقهم علنـا دون إبطـاء[١٢٥].

رغـم تمتـع حكومـة عبـود بفائـض محصـول القطـن الـذي وجدتـه امامهـا وانعشـت بـه خزينتهـا إلا أن عـدم الكفـاءة في اختيـار مسـؤوليها أجهـض خططهـا . فضـلا عـن ذلـك ، كان تراكـم الجشـع والفسـاد وغيـاب المسـاءلة الـذي أدى إلى نهـب المشروعـات المخصصـة لخدمـة الجيـش سـببا إضافياً[١٢٦]لقـد هيمـن عـلى الاقتصـاد عسـكريون معينـون لإدارة مشـاريع لا علاقـة لهـم بهـا ،لقـد كانـوا زمـرة (وتمثلـت تلـك الزمـرة في عسـكريين

١٢٣ ـ محمـد محمـد احمـد كـرار. انتخابـات وبرلمانـات السـودان. الناشر/شركة دار البلـد للصحافـة والطباعـة والنشـر والتوزيـع. الطبعـة الثانيـة ١٩٩٨م ، ص ٢٦.

١٢٤ ـ احمـد محمـد شـاموق. الثـورة الظافـرة. الناشـر/دار البلـد للصحافـة والطباعـة والنشـر والتوزيـع. الطبعـة٣/١٩٩٨م..ص٢٣

١٢٥ ـ روبرت أو. كولنز. تاريخ السودان الحديث. ص ٩١

١٢٦ ـ روبرت أو. كولنز. تاريخ السودان الحديث. ص ٩٥

منشـــغلين بمصالحهـــم الشـــخصية والسياســـية الخاصـــة ، ممـــا جعلهـــم رمـــوزا واضحـــة لاخطـــاء الحكومـــة والفســـاد المتفـــشي في أركانهـــا) [١٢٧].
ومما فاقـم الوضـع أكثـر تدهـور الحريـات السياسـية ، وبـروز مشـكلات قوميـة شـديدة الخطـورة أهمهـا مشـكلة الجنـوب ، واتفاقيـة ميـاه النيـل ، التـي تـبرع بموجبهـا عبـود بـأرض سـودانية ، في أسـوأ سـلوك وطنـي ، مضحيـا بمواطنـين عـزل لصالـح إنشـاء السـد العـالي. ومـع ذلـك ، قاتـل أبنـاء وطنـه وشـعبه في جنـوب السـودان منعـا للانفصـال في تناقـض مذهـل!

لقـد تهامـس الشـعب السـوداني بعـد فـوات الاوان : ان جـذر المشـكلة ربمـا لـم يكـن الحكـم المدنـي ، وان فسـاد الجهاديـة لـم يكـن أقـل سـوء مـن فسـاد الفقهـاء والأعيـان "المعفيـين مـن الضرائـب" أو حتـى الباشـبوزق"اكلي قـوت الشـعب" وان الواقـع قـد أثبـت أن جوهـر أزمـة البـلاد هـي دكتاتوريـة عبـود. وعـاد التسـاؤل إن كان الوقـت قـد حـان لاسـتعادة الحكـم المدنـي؟ وتعـالي الهتـاف ضـد الطغمـة العسـكرية. وهبـت ريـاح "اكتوبر"هـادرة تـضرب كل شيء. وكان القـرشي شـهيدنا الأول ، وتـلاه عـشرون اخـرون[١٢٨]. واقتنـع "بابـا عبـود" أخـيرا وتنـازل عـن الحكـم. وعـاد الحكـم إلى الشـعب ، وخـرج في مسـيرات جـزلى ، منشـدا "اكتوبـر الاخـضر"! وبعـد عـدة شـهور فقـط نـدم كثـيرون!

الجناح المدني تارة أخرى :

فـرح الشـعب بالمدنيـة كثـيراً وهـزج غنـاء وشـعرا ومسرحـا . وسرعـان مـا عـاد المسـتعمر الزنجـي – الفقهـاء والأعيـان المعفيـين مـن الضرائـب ، الباشـبوزق ، والجهاديـين _ إلى طبيعتـه، وعـادت الدولـة الغنيمـة ، التـي عانـت مـن السـلب والنهـب والتآمـر.وفي أول انتخابـات ، ١٩٦٥م. ، عـاد مفهـوم "الدولـة الغنيمـة" إلى السـاحة السياسـية ، فـكان الفـوز

١٢٧ ـ روبرت أو. كولنز. تاريخ السودان الحديث. ص ٩٦

١٢٨ ـ روبرت أو. كولنز. تاريخ السودان الحديث. ص ١٠٠.

، بـاي وسـيلة هـو الغايـة . ففـي خشـم القربـة ، في القريـة نمـره ١ بـدات الانتخابـات يـوم ٢١/٤/١٩٦٥م. وكانـت الإجـراءات تسـير بصـورة طبيعيـة ، عندمـا هجـم حـوالي ٢٠٠ من أنصـار حـزب الشـعب الديمقراطي وهـم مسـلحون بالأسـلحة البيضـاء ، مطالبـين بوقـف الانتخابـات. ونتـج عـن هـذه الاشـتباكات وفـاة ١١شـخص[١٢٩]. وفي٢٥/يوليـو/١٩٦٦م. إثـر مؤامـرة محكمـة ، اطـاح الصـادق المهـدي بالمحجـوب مـن رئاسـة الـوزراء ، وذلـك بحجـب الثقـة عنـه ، ليصبـح رئيسـا للـوزراء مكانـه لمـدة عـشرة شـهور. ومـن بعـد ، نتيجـة لمؤامـرة أكثـر أحكامـا ،سـحب الأزهـري دعمه عـن حكومـة الصـادق المهـدي _ الائتلافيـة_ ليحجـب الثقـة عنـه ، ويعـود المحجـوب إلى كـرسي الـوزارة. لقـد نتـج عـن ذلـك (حكومـة برلمانيـة ضعيفـة اصبـح قادتهـا موضـع سـخرية ، وازدراء الصحافـة والجمهـور. وذلـك وسـط مناقشـات كثـيرة حـول أنـه ربمـا حـان الوقـت كـي يعـود الجيـش مـرة ثانيـة للتخلـص مـن السياسـيين غـير الصالحـين) [١٣٠].

وفي انتخابـات ١٩٦٨م. عـاد أسـلوب شراء الذمـة الانتخابيـة ، وغيرهـا مـن أسـاليب فاسـدة مفسـدة. وفي ٢٧/مايـو/١٩٦٨م تـم تعيـين الأزهـري _ الـذي قـاد الحـزب الاتحـادي الديمقراطـي للنـصر _ رئيسـا للجمعيـة التأسيسـية. ومنـذ ذلـك الحـين تحولـت الجمعيـة التأسيسـية إلى مسـتنقع للمؤامـرات والمؤامـرات المضادة[١٣١].وبالطبـع كان الاقتصـاد كمـا مهمـلا ، إذ كان يتـم تغطيـة الفجـوة بـين الإيـرادات والنفقـات العامـة بالاقـترض مـن مؤسسـات التمويـل الدوليـة، ليرتفـع الديـن الخارجـي مـن ٣,٩ مليـون جنيـه سـوداني في ١٩٦٥م. إلى ٤٦ مليـون جنيـه سـوداني في ١٩٦٩م.وهـو مـا أصبـح ديـدن الاقتصـاد السـوداني [١٣٢].

وفي السـياق ذاتـه ، أنتجـت ثـورة أكتـوبر فـوضى مدمـرة ، عبثت بكل

١٢٩ ـ محمد محمد احمد كرار، العنف والانقسام في السياسية السودانية، ص٣٤
١٣٠ ـ روبرت أو. كولنز. تاريخ السودان الحديث. ص ١١٠
١٣١ ـ روبرت أو. كولنز. تاريخ السودان الحديث. ص ١١٤
١٣٢ ـ روبرت أو. كولنز. تاريخ السودان الحديث. ص ١١٣

شيء. يقول د.منصور خالد عن الفترة التي أعقبت اكتوبر (هي الفترة التي شهدت فيها الكثير من المؤسسات بداية الانهيار الإداري)[١٣٣].ومما جاء في وصفه تلك الفترة أن الإرباك قد عم القضاء ، حيث رافقت الفوضى العارمة توسع القضائية بإنشاء محاكم القضاء المقيمين وقضاة المديريات ، والتوسع في الدوائر الجنائية في الأقاليم مع إغفال تحديث المكتبات(مما جعل بعض هؤلاء القضاة ، خاصة في الأقاليم النائية ، يعملون بموجب قوانين قد الغيت أو عدلت) [١٣٤].وكان قبل ذلك ، بعد إعلان سقوط نظام عبود ، أن توجهت المظاهرات الحاشدة إلى سجن كوبر تريد اخراج السجناء السياسيين ، وفي قمة انفعالهم حطموا الباب الخارجي للسجن ، ومن بعد توجهوا إلى باب آخر كان خلفه عتاة المجرمين ، وقد حاولوا تحطيمه كذلك ، وبالطبع ، ساعدهم من في الداخل على تخريبه ، وأثناء ذلك هرب منهم عدد مقدر[١٣٥]. كان له فيما بعد قسطاً وافرا في شيوع الجريمة ، وزعزعة استقرار البلاد!

وفي ندوة جامعة الخرطوم المشهورة ، مساء ٢١/اكتوبر/١٩٦٤م. انتقد المدنيون مسلك نظام عبود تجاه مشكلة الجنوب، ووصفوه بالقمع الوحشي واتفقوا على أن مشكله الجنوب لن تحل أبداً طالما بقي الجيش في ألسلطة [١٣٦].وللمفارقة ، أن حكومة المدنيين فعلت ذات ما انتقدت فيه عبود وهو ممارسة القمع الوحشي ، ففي عهد المدنية الثانية، في ظل حكومة محمد احمد المحجوب وقعت مذبحتي جوبا و واو البشعتين ، التي راح ضحيتهما أنفس كثيرة بريئة ، وتم قمع الجنوب حرفياً[١٣٧].وتدهور الوضع في الجنوب ، وتطورت آليات التمرد العسكرية والمادية بشكل مذهل ، جراء مواقف السودان

١٣٣ ـ د. منصور خالد، الفجر الكاذب، نميري وتحريف الشريعة، الناشر/ دار الهلال، ص٢٦

١٣٤ ـ د. منصور خالد. الفجر الكاذب ، نميري وتحريف الشريعة. ص٢٦.

١٣٥ ـ احمد محمد شاموق ، الثورة الظافرة ، ص ١٤٦.

١٣٦ ـ روبرت أو. كولنز. تاريخ السودان الحديث. ص١٠٠.

١٣٧ ـ روبرت أو. كولنز. تاريخ السودان الحديث. ص١٠٦.

السياسـية. وكان ذلـك مـن الأسـباب الرئيسـية التـي اعتمـد عليهـا النميري في الانقـلاب عـلى الحكومـة المدنيـة!

وقداسـتمرت الفـترة المدنيـة الثانيـة كمـا الاولى حتـى بـدأ النـاس يعيـدون طـرح السـؤال : أليسـت المدنيـة هـي أس البـلاء ؟ اليـس صحيحـاً أن البـلاد في حاجـة إلى الضبـط والربـط ؟

عودة الجناح العسكري تارة أخرى :

في يـوم الخامـس والعشريـن مـن مايـو ١٩٦٩م. انقـض العقيـد جعفـر محمـد نمـيري، وبابكـر عـوض اللـه ، عـلى السـلطة في البـلاد. وقـد كان بابكـر عـوض اللـه رئيسـاً للقضـاء ،لكنـه اسـتقال احتجاجـا عـلى حـل الحـزب الشـيوعي السـوداني في العـام ١٩٦٦م [١٣٨].

ورقـص الشـعب وغنـى فرحـا بعـودة الحكـم العسـكري! فبعد اسـبوع ، في يـوم ٢/يونيـو/١٩٦٩م. نظـم الحـزب الشـيوعي مظاهـرات حاشـدة تأييـدا للانقـلاب العسـكري ، كانـت ذروتهـا في ميـدان عبـد المنعـم ، يـوم حشـد الاتحـاد العـام للعمـال جمهـوراً ضخمـاً ، تنافـس لارضائـه فطاحلة المغنيـين _ وردي ، محمـد الامـين ، الكابـلي وآخـرون _ تمجيـدا لانقـلاب مايـو! [١٣٩]. في هـذا الحشـد خاطـب الشـفيع أحمـد الشـيخ النمـيري مباشرة يحثـه عـلى تطبيـق سياسـة التأميـم والمصـادرة ، وتطهـير الخدمـة المدنيـة مـع إنـزال العقـاب القـاسي عـلى مـن أسـماهم فئـة "المفسـدين واذنـاب الاسـتعمار والجواسـيس "[١٤٠].

وتواصـل تحريـض الحـزب الشـيوعي السـوداني في حصـار محكـم عـلى نمـيري حتـى اسـتجاب. ووسـط تلـك الاهازيـج والهتافـات، نفـذ النمـيري خطوتـه الاكثـر تهـورا، وكانـت البدايـة باحتـكار الـواردات

١٣٨ ـ محمد محمد احمد كرار ، سنوات الغيبوبة ـ الحزب الشيوعي السوداني. سنة أولى مايو ، ص٢٤.

١٣٩ ـ روبرت أو. كولنز. تاريخ السودان الحديث. ص ١١٧.

١٤٠ ـ محمد محمد احمد كرار ، سنوات الغيبوبة _ الحزب الشيوعي السوداني. سنة أولى مايو، ص ٧٧/٧٨.

في ١٦/اكتوبـــر/١٩٦٩م. ثـــم صــــدور قانــــون الحراســـة العامـــة في ٩/مايــو/١٩٧٠م.وفي خطــاب ذكــرى الانقــلاب الاولى أعلــن التأميــم الفــوري لجميــع البنــوك وشركات التأمــين ، بمــا فيهــا البنــك التجــاري وبنــك النيلين المملوكـين لسـودانيين! تــم هــذا التأميــم وســط هــوس جماهــيري هائــل. ومــن ثــم عــين مســؤولين لا ميــزة لهــم غــير ولائهــم، وكانــت تفاصيــل العمــل تحتــاج إلى إداريــين حقيقيــين ، (ومــن ثــمّ ، فــإن المشروعــات التــي كانــت ناجحــة ومربحــة ذات يــوم اصبحــت الآن بحاجــة كبــيرة إلى دعــم من الدولــة ، وهــو مــا ألقــى عبئــا إضافيــا عــلى الدولــة) [١٤١].

وهـــو مـــا أدى لاحقـــا إلى تدمـــير مشروعـــات ضخمـــة ، ومـــا اصـــاب مشـــاريع كثـــيرة أخـــرى ، فـــادى بالبـــلاد إلى التوســـع في الديـــون إلى أبعـــد الحـــدود ، وهـــو مـــا ظـــل حتـــى الآن ســـيفا مســـلطا عـــلى رقابنـــا.

ولـــم يكـــن الدمـــار اقتصاديـــا فحســـب ، وانمـــا لحـــق بـــكل شيء : اجتماعي ، ســـياسي ، عســـكري. وغـــير ذلـــك. ويمكـــن لمذبحـــة التعليـــم العـــالي أن تقـــدم صـــورة دقيقـــة عـــن مـــدى بـــؤس الحـــال. يقـــول الأســـتاذ/محمد محمـــد احمـــد كـــرار ، في كتابـــه _ ســـنوات الغيبوبـــة ، الحـــزب الشـــيوعي الســـوداني ، ســـنة أولى مايـــو ، ص ٣٩ _ إن وزيـــر التربيـــة والتعليـــم د.محـــي الديـــن أصـــدر قـــرارا بتقليـــص جامعـــة أم درمـــان الإســـلامية إلى كليـــة! تلـــك المؤسســـة التـــي جهـــد لانشـــائها رجـــال خلـــص منـــذ بدايـــة القـــرن العشريـــن أمثـــال الشـــيخ محمـــد البـــدوي ، وآل الهاشـــماب ، وغيرهـــم ، حتـــى تحولـــت بعـــد ســـتة عقـــود إلى جامعـــة ، ليأتـــي د. صابـــر ويوأدهـــا بجـــرة قلـــم ، ويحولهـــا إلى كليـــة! كمـــا نفـــذت سياســـة التطهـــير التـــي كانـــت ضمـــن مطالـــب الحـــزب الشـــيوعي الأساســـية ، ففـــي ســـنة ١٩٧٠م ، مـــن جامعـــة الخرطـــوم وحدهـــا فصـــل "خمســـة عـــشر بروفيســـور ، وأربعـــة دكاتـــرة ، واســـتاذان[١٤٢]. وكان عـــلى رأس قائمـــة المفصولـــين البروفيســـور عبـــد اللـــه

١٤١ - روبرت أو. كولنز. تاريخ السودان الحديث، ص ١٢٠.

١٤٢ - محمد محمد احمد كرار ، سنوات الغيبوبة. الحزب الشيوعي السوداني. سنة أولى مايو. ص ٤٢/٤٣.

الطيب رحمه الله ، وأما البقية فكانوا من شاكلته ، وكانوا جميعا يمثلون "فئة المفسدين واذناب الاستعمار والجواسيس" في الجامعة!

لقد نال نظام مايو عددا مدهشا من الانقلابات العسكرية الفاشلة. وزاد ذلك من رهقه إلى أبعد مدى. كانت الحكومة عاجزة أمام المجاعة التي اهلكت عشرات الآلاف من الأنفس ، على الأقل ، حيث وقفت متفرجة. وعاد التمرد أشد ضراوة ، وصدحت المقاومة ، واشتد القمع السياسي الداخلي. ليعود السؤال تارة أخرى: أليس الوقت قد حان لاستعادة الحكم المدني ؟! لتنفجر الأوضاع في ٦/ابريل/١٩٨٥م. ويخرج السودانيون في انتفاضة هادرة لم تجد "السفاح"لأنه كان قد هرب! ويغني الأسطورة "وردي" مجانا ، في حدائق مايو ، التي تحولت إلى حدائق ٦ ابريل ، وتغني معه ذات الجماهير التي صدحت ب "يا فارسنا ويا حارسنا" قبل سنوات قليلة ، غناء هستيريا "نيلك هيلك جرى قدامك"!

المدنية الثالثة :

ما أن بزغ فجر المدنية الثالثة ، حتى عاد المستعمر الزنجي لسيرته. وبدأ الأمر بالتصميم على الفوز بالانتخابات ، بأي صورة أو وسيلة ، تمهيداً لنهب الغنيمة! وفي سبيل ذلك استخدمت الرشوة، التزوير ، وكل ما يمكن استخدامه للفوز. وكانت المؤامرات هي المنتوج الأهم خلال تلك الفترة. ويظهر ذلك من كثرة التحالفات والتحالفات المضادة. وكان الفساد مستشريا ، وانحدرت الذائقة العامة ، حيث تصدرت الصحافة الصفراء المشهد ، وانهارت كثير من المؤسسات الحكومية ، لدرجة فقدان الأمن في معظم أنحاء القطر. طفحت الاغتيالات ومحاولاتها الفاشلة في قلب الخرطوم : ففي ١٧يناير من العام ١٩٨٨م. اغتيل الداعية الإسلامي مهدي الحكيم في فندق الهيلتون بالخرطوم.[١٤٣].وفي يوم الأربعاء ١٥/٥/١٩٨٨م.وقع

١٤٣ ـ محمد محمد أحمد كرار ، العنف والانقسام في السياسة السودانية ص٢٠ .

انفجـار مـدو في فنـدق الاكروبـول بقلـب الخرطـوم ، متزامنـا مـع انفجـار آخـر مصحوبـا بإطـلاق للنـار في النـادي السـوداني بالخرطـوم أيضـاً. وقد حدثـت إصابـات عديـدة[١٤٤].وفي الأسـبوع الأول مـن نوفمـبر اقتحـم شـاب دار السـفارة الإماراتيـة بالخرطـوم. ولـم تنتـج إصابات[١٤٥].فضـلا عن ذلك حدثـت جرائـم خطـيرة مثـل مقتـل أمـيرة الحكيـم ، التـي تـورط فيهـا بعـض مـن حمـاة القانون.وجريمـة قتـل فنـدق اراك.، وغيرهـا ممـا كان له دلالـة واضحـة عـلى انفـراط الأمـن في البـلاد . وفي العـام ١٩٨٨م. تبـدى فشـل الحكومـة للعالـم وشـللها التـام عندمـا هطلـت الأمطـار وانهمـرت السـيول. وتأكـد العالـم في الداخـل والخـارج ، مـن فسـاد النظـام واهترائه حينمـا تدفقـت الإغاثـة مـن كافـة أنحـاء المعمـورة إلى الخرطـوم وغيرهـا مـن المـدن ، وسرقـت جهـاراً ، ونهبـت نهـارا!

أمـا الأقاليـم فقـد كانـت لهـا همومهـا. ففـي العـام ١٩٨٥م. حدثـت مذبحـة القـردود التـي اوقعتهـا مليشـيات مسـلحة مـن الدينـكا عـلى قريـة مـن قـرى البقـارة في جنـوب كردفـان. وفي العـام ١٩٨٧م. وقعـت مذبحـة الضعـين التـي نفذتهـا مليشـيات مسـلحة مـن قبيلـة الرزيقـات حيـث قتلـوا واحرقـوا المئـات مـن الدينـكا العـزل حتـى المـوت ، وأسروا الناجـين منهـم. وفي العـام ١٩٨٩م قتلـت مليشـيات مسـلحة مـن قبيلـة رفاعـه حـوالي ٢١٤ شـخصاً مـن قبيلـة الشـلك ، وإجـبرت حـوالي ألفـي شـخص إلى النـزوح مـن مسـاكنهم في مدينـة الجبلـين. ورغـم هـروب حـوالي ٩٠ شـلكاويا ولجوئهـم لنقطـة الشرطـة ، إلا أنهـم لحقـوا وقتلـوا بوحشـية[١٤٦].وهذه مجـرد أمثلـة قليلـة جـدا ممـا كان يحـدث خـلال عهـد المدنيـة الثالثـة. ونقـلا _ محمـد عبـد الرحيـم وحريـر _ عـن د. منصـور خالـد Khalid,١٩٩٠:٣٥٧ أن القـوات المسـلحة عندمـا واجهـت رئيـس الـوزراء الصـادق المهـدي بوجـود هـذه المليشـيات المسـلحة في ١٩٨٩م.

١٤٤ ـ نفس المرجع ، ص ٣٨

١٤٥ ـ نفس المرجع ، ص ٣٦

١٤٦ ـ د. شريف حرير. و د. تيرجي تفيدت ، السودان الانهيار أو النهضة. ص٢٣٦/٢٣٥ بحث مشترك/محمدعبد الرحيم محمد صالح وشريف حرير

رد عليهـا قائـلا (إن هـذه القـوات شـبه العسـكرية موجـودة للدفـاع عـن الديمقراطيـة فحسـب)!

أمـا التدهـور الأمنـي في دارفـور فقـد بلـغ حـدا لا يطـاق. وفقـا لحريـر ،فقد بلـغ أوجـه في صراع الفـور والعـرب خـلال الفـترة مابـين ١٩٨٧ _ ١٩٨٩م. والتـي يقـال إن الفـور فقـدوا جرائهـا ألفـين وخمسـمائة مـن رجالهـم قتـلا ، مـع إعاقـة المئـات ، وحـرق ٤٠٠ قريـة كانـت تـأوي حـوالي عـشرة ألـف نسـمة ، وفقـد حـوالي ٤٠ ألـف رأس مـن الماشـية. فضـلاً عـن فقـدان كثـير من الأمـوال المنقولـة. وفي المقابـل فقـد العـرب خمسـمائة قتيـل ، ومائتـي معـوق ، وحرقـت لهـم المئـات مـن الخيـام والمسـاكن ، وثلاثـة آلاف رأس مـن الماشـية. لقـد كان الدمـار شـاملاً ، لـم تنـج حتـى المسـاجد والممتلـكات العامة.(فقـد أصبحـت الحـرب مدمـرة تمامـاً وثأريـة. وقـد حافـظ الطرفـان عـلى بشـاعتها ، فذبـح العـرب ، باسـتخدام الفرسـان الراكبـين ، ضحاياهـم مـن الفـور واحرقوهـم أحيـاء عندمـا نجـوا مـن بنادقهـم الآليـة وقذائفهـم. وتـصرف الفـور بالمثـل عندمـا سـنحت لهـم الفرصـة، مسـتخدمين مقاتليهـم المعروفـين باسـم المليشـيات. واعتـدى العـرب عـلى مـزارع الفـور وأحرقـوا منتجاتهـم واقتلعـوا اشـجار حدائقهـم. ورد الفـور بحـرق المراعـي ومنـع اعدائهـم مـن الوصـول إلى مصـادر الميـاه)! [١٤٧]

وفي العـام ١٩٨٨م. شـكلت حكومـة المدنيـين لجنـة تقـصي حقائـق لإقليـم دارفـور ، وذلـك فيمـا يتعلـق بألاحـداث التـي وقعـت في جبـل مـون في أكتوبـر ١٩٨٨م. بـين الرزيقـات الشـمالية والفـور. وقـد عجـزت الحكومـة عـن إنهـاء الحـرب. إذ وصلـت حـدا بعيـدا بـبروز كيانـات سـافرة العرقيـة، مثـل التجمـع العربـي ، ودارفـور للفـور ، ودولـة زغـاوة الكـبرى! [١٤٨].

أمـا في جنـوب السـودان فقـد تدهـور الوضـع الأمنـي والعسـكري. إذ صـارت السـيطرة للجيـش الشـعبي لتحريـر السـودان ، الـذي أصبـح

١٤٧ ـ نفس المرجع ، ص٢٦٢/٢٦٣

١٤٨ ـ د.يوسف تكنه، دارفور وصراع السلطة والموارد. ص١٩٦/١٩٧.

يدخل المدن ويخرج منها ، دون مقاومة تذكر ، وذلك بسبب ما آل إليه حال القوات المسلحة. وكان من نماذج هذا الوهن ما كشفت عنه رسالة العقيد محجوب محمد موسى ، قائد حامية الناصر ، التي بعث بها إلى أحد نواب الحزب الاتحادي ، وبصفته الشخصية بحكم أنه ابن أحد المسؤولين.ومما جاء فيها (....لا يخفى على حكومتكم الحال الذي نحن فيه. وأقل ما يوصف به هو الجوع والفقر المدقع والمرض والعرى ، ومحاصرون من التمرد من كل اتجاه. هذا يومنا الثالث والاربعون بعد المائة ، غذاؤنا هو ورق الشجر ، وجثث الصقور في اوكارها ، واسلحتنا الخناجر بعد أن اوقفت الحكومة مدنا بالذخيرة. حفاة عراة ، نلتحف السماء ونفترش أديم الارض. ارسلنا برقيات عديدة للمسؤولين ، موضحين فيها سوء الحال ، ولا شك أنها وصلت السيد/الصادق المهدي وزير الدفاع ، والفريق فتحي احمد علي ، رئيس هيئة الأركان. ولكن للأسف الشديد ، لم يعرنا أحد أدنى اهتمام) [١٤٩].

انقلاب الإنقاذ :

وبالطبع ، كان من أسباب مجيء الإنقاذ وفق بيانها الانقلابي تدهور الوضع العسكري والأمني في جنوب السودان ، ودارفور والكرمك وقيسان وفي البلاد عامة. إذ صارت السيطرة للجيش الشعبي لتحرير السودان ، الذي أصبح مسيطراً على الميدان تماماً ، وذلك بسبب ما آل إليه حال القوات المسلحة. وعلى العموم ، كان التدهور شاملاً، اقتصاديا ، عسكرياً ، سياسياً واجتماعيا. لذا استقبل الانقلابيون استقبال الفاتحين ، وغنى الشعب ، كعادته ، للانقلاب "هبت ثورة الإنقاذ" واخواتها.

١٤٩ ـ صحيفة الرأي الآخر. العدد ٩٧٩. بتاريخ ١٦/مايو/١٩٩٩م. ص٦. مقال بقلم/احمد عبد الله الطاهر.

وتميــزت حقبــة الإنقــاذ عمــا ســواها مــن حكــم مدنــي وعســكري بطــول البقــاء. ويصــح القــول باطمئنــان أن عمرهــا يــكاد يضــارع عمــر حكومــات مــا بعــد الاســتقلال جميعــا! وقــد شــهدت شــدة لــم تتعــظ منهــا ، ورخــاء لــم يفدهــا. خلالهمــا أهلكــت الحــرث والنســل معــا فــداء أوهــام اصطنعتهــا ، حــين هيــأت لهــا عقليتهــا أن مــا يحــدث في الجنــوب حــرب دينيــة يجــب النــصر فيهــا أو الشــهادة. لتتراجــع بعــد هــلاك كل شــئ إلى الاعــتراف بخطــأ نهجهــا ، وتعقــد المعاهــدات والمواثيــق عــلى أســس أهمهــا "لكــم دينكــم ولي ديــن"!

وكذلــك تميــزت عمــا ســواها بنهجهــا العدائــي. فقــد كانــت مســخرة لمســاندة قضايــا العالــم الخارجــي ، وفقــا لمفهومهــا ، لا بنــاء الدولــة الســودانية. فــلا عجــب أن كانــت أولى شــعائرها "امريــكا روســيا قــد دنــا عذابهــا". وكذلــك انتهجــت أحــد أســوأ السياســات الخارجيــة خــلال فــترة مــا بعــد مواثيــق حقــوق الإنســان ، حيــث انزلقــت في بداياتهــا ، في حضيض تخصيــص برنامــج إذاعــي كامــل لســب رؤســاء الــدول والحكومــات ، مذكــرة بخطــب المســاجد في الحقبــة الامويــة التــي كانــت لا تبــدأ قبــل أن تســب عليــا كــرم اللــه وجهــه ، تلــك العــادة التــي يقــال إن ســيدنا عمــر بــن عبــد العزيــز رضي اللــه عنــه قــد أمــر بابطالهــا. لــذا لــم يكــن عجبــا أن تحظــى بعــداوة لــم تحــظ بهــا حكومــة ســودانية ، منــذ عهــد المهديــة!

في الداخــل كان نهجهــا في بداياتهــا ، كذلــك ، شــديد العدائيــة تجــاه مواطنيهــا. فقــد بــدأت بمجــرد وصولهــا بتطبيــق سياســة تشريــد كفــاءات البــلاد مــن مدنيــين وعســكريين. فطــال ســيفها عــشرات الآلاف – الأرجــح مئــات الآلاف – عــن طريــق التقاريــر الاســتخباراتية بحجــة المعارضــة. وقد اســتمر ذلــك لســنوات طويلــة. تعكــس إفــادة الاســتاذ المناضــل الهصــور غــازي ســليمان ، رحمــه اللــه التــي جــاءت في صحيفــة الــرأي الآخــر الواقع آنــذاك وهــي في شــأن تشريــد عمــال وموظفــي الهيئــة القوميــة للكهربــاء ، حيــث قــال (إن تشريــد عمــال الكهربــاء لــم يكــن الأول مــن نوعــه للعاملــين

، فقد تم قبل ذلك تشريد لعمال السكة حديد ، ولعمال المصارف ولأخرين ، ولكن لأول مرّة يحدث تشريد لهذه الكمية الكبيرة _ أكثر من ٥٠٠٠ عامل _ في مرحلة زمنية بسيطة "يوم واحد" فأين يذهب هؤلاء؟)[١٥٠]. نعم ، عاني كثير من هؤلاء شظف العيش ، وتهاوت حياة بعضهم بشكل درامي ، لكن اعداد كبيرة منهم اضطروا للهجرة خوفاً وطمعا ، خوفا من بطش النظام ، وطمعا فيما يجدونه في بلاد أخرى، ورغم أن ماتقدمه لهم بلاد الغربة يعد كذلك استنزافا لقواهم وفي كثير من الأحيان قد يرقى إلى الإستغلال ، إلى أنه على الأقل ، يحفظ كرامتهم وأسرهم. فاضطروا لبناء بلاد الغير بدلا من رفعة أوطانهم!

ولم تكتف بتشريد العمال والموظفين ، وانما عمدت إلى تصفية حسابات قديمة بينها والحزب الشيوعي. إذ يبدوا أن الجبهة الإسلامية كانت قد أسرت مذبحة النميري للتعليم العالي في نفسها ، وبنجاح انقلابها رأت أن من حقها أن تكون لها مذبحتها الخاصة ، وحان يوم الدينونة ، وكانت ثورة التعليم العالي هي واجهة تصفية الحسابات. وبدأتها بوكر الشيوعيين ، جامعة الخرطوم. كانت ثورة التعليم العالي لتعتبر انتصارا عظيماً للوطن ، لو خلت من الأحقاد ، لكنها للأسف لم تكن كذلك. فقد رأت الإنقاذ في جامعة الخرطوم العدو الأول ، عدو الله الأكبر ، وشردت خيرة كفاءتها الأكاديمية من حملة الدرجات العلى محطمة إياها ، لكأنها جامعة العدو وليست جامعة وطنية ، فتردت مكانتها بعد أن كانت تاجا بين الأمم!

ولم يقف الحقد عند تحطيم جامعة الخرطوم ، وانما امتد للتخلص من كثير من المؤسسات الحكومية لصالح مواليها برخص التراب ، بحجة واهية هي خسائرها. وإذا كان ذلك صحيحا ، لماذا يشتري موالوها مؤسسات خاسرة؟! للأسف هي لم تكن خاسرة

---

١٥٠ ـ صحيفة الرأي الآخر العد ١٢٠٠ بتاريخ ١١/مايو/٢٠٠٠م، ص

، وانمـا عـين اداريوهـا وموظفوهـا وعمالهـا بغـير كفـاءة فترتـب عليـه خسـارتها. وبـدلا مـن عـلاج جـذر الأزمـة ، بإعـادة الكفـاءات المتميـزة التـي تـم تشريدهـا لإعـادة هـذه المؤسسـات سـيرتها الأولى ، عمـد النظـام حرفيـاً إلى حـل البصـيرة أم حمـد ، وتخلـص منهـا نهائيـا. وللمفارقـة ، كانـت تلـك شـهادة وفاتـه المبكـرة ، فبعـد عقـد ونيـف صـارت السـيطرة عـلى الدولـة في يـد هـذه الفئـة التـي اشـترت. واليـوم لا يعلـم كثـيرون أن مـن اسـقط البشـير هـي قطعـة الخبـز التـي مـا عـادت الدولـة تملكهـا ، وتانكـر الوقـود الـذي أصبحـت أسـهمها فيـه هامشـية ، و القطـاع الصحي الـذي صـار القـصر يدفـع فواتـير عـلاج "بشـيره" نفسـه للمستشـفيات الخاصـة، دعـك مـن مريـض في صقـع الجمـل!

ولـئن كان قـدر بعـض المدنيـين الهـروب لبنـاء أوطـان أخـرى ، فـإن قـدر بعـض العسـكريين كان أسـوأ عـلى بلادهـم. فبعـد أن ارتكبـت طغمـة الإنقـاذ طامتهـا الكـبرى ، بفصـل آلاف العسـكريين والضبـاط. لـم يـتردد بعـض هـؤلاء في احيـاء "سـنة الجهـادي" وهـي الرضـا عنـد العطـاء والسـخط عنـد المنـع ! فجـاء رد فعلهـم بالوسـيلتين المعلومتـين ، وهمـا صنـع إنقـلاب في الداخـل ، وضرب خـاصرة الدولـة مـن الخـارج. فحـدث انقـلاب سـنة ١٩٩٠م. الـذي راح ضحيتـه حـوالي ٢٨ ضابـط مـن ذوي الكفـاءة العسـكرية. أمـا في الخـارج فقـد كانـت قـدرات الجهـادي محـدودة لكـن تحالفـه مـع "الفقهـاء والأعيـان المعفيـين مـن الضرائـب" أثمـر كثـيراً .

كان العميـد عصـام الديـن ميرغنـي قـد خـرج مـن السـودان عقـب الانقـلاب ، وأقـام في الامـارات العربيـة المتحـدة ، داعيـاً إلى ضرورة حمـل السـلاح ، وبالطبـع ، كانـت الأحـزاب السياسـية المدنيـة مسـتعدة للتحالـف طالمـا سـيعيد إليهـا السـلطة.

وسرعـان مـا التقـى السـيد مبـارك الفاضـل المهـدي بالعميـد ميرغنـي

في يوليـو ١٩٩٠م[١٥١].وكانـت نـواة مـا عـرف لاحقـاً ب "التجمـع الوطنـي الديموقراطـي". وكان لـه دور بـارز في زيـادة الوجـع الوطنـي عـلى مواطن السـودان المغلـوب عـلى أمـره ، الـذي مـا كفـاه قمـع الإنقـاذ مـن الداخـل ، فجـاءه العـذاب مـن الخـارج حـين كانـت مليشـياته تـضرب خـاصرة الدولـة والأطـراف ، مثـل ضرب منطقـة همشـكوريب وغيرهـا!

ولـم يقـف الانفجـار عنـد هـذا الحـد ، وانمـا اقتـدى آخـرون معجبـون بـضرب خـاصرة الدولـة بنهـج التجمـع الوطنـي الديموقراطـي. وفي بدايـة الألفيـة الثالثـة ، اسـتثمر بعـض مـن الجهاديـين ، والباشـبوزق ، بدعـم مـن بعـض مـن "الفقهـاء والأعيـان المعفيـين مـن الضرائـب"في غـرب السـودان أخطـاء نظـام الإنقـاذ ، وأشـعلوا حربـا مدمـرة أدت إلى تهـاوي الدولـة السـودانية أكثـر وأكثـر.

يصعـب حـصر مخـازي نظـام الإنقـاذ ، في دارفـور وجنـوب كردفـان وغيرهمـا. لكـن المؤكـد أن ذلـك لـم يكـن عرقيـا كمـا ظـل يعتقـد كثـيرون. إن نظامـا يرتكـب مجـزرة في قلـب الخرطـوم ، كمجـزرة معسـكر العيلفون التـي راح ضحيتهـا مئـات الطـلاب اليفـع ، الذيـن بالـكاد خرجـوا مـن طـور المراهقـة ، وكل ذنبهـم كان احتجـاج طفـولي عـلى تدريـب غاشـم لـم يألفـوه ، فـأرادوا الاسـتراحة ليـوم أو بعـض يـوم أو حتـى مجـرد الهـرب.

وكان هـروب جماعـي ، لـم تسـتنكف زبانيـة الإنقـاذ اصطيادهـم كفعل صيـاد لئيـم بطيـور الجنـة ، في الـبر والبحـر ، وحرمـوا عـلى ذويهـم إبـداء الحـزن. فهـل يتوقـع مـن مثـل هـذا النظـام كـف يـده عـن مواطنـين عـزل في منطقـة حـرب في أقـاصي البـلاد؟!

يمكـن اختـزال حقبـة حكـم البشـير بـين مسـمار اخـترق رأس د. عـلي فضـل في بواكـير عهـد الإنقـاذ ، وخـازوق اخـترق جسـد الاسـتاذ/احمد الخـيرفي خواتيمـه. وبينهمـا كان كثـير مـن خـير وكثـير مـن شر!

١٥١ ـ فتحـي الضـو. السـودان سـقوط الاقنعـة. سـنوات الأمـل والخيبـة. الطابعـون شـركة سـوتير ، الزيتـون ، القاهـرة. ٢٠٠٦م. ص١٦٢

الفصل الثاني
حقائق حول القوميين

الحقيقة الاولى ، فشل المدنيين الذريع :

ممــا لا جــدال فيــه حظــوة النظــم العســكرية بوقــت اطــول في الحكــم. حتــى يمكــن القــول باطمئنــان ، إن أقــل فــترة حكــم عســكري أطــول مــن أطــول فــترة حكــم مدنــي. فقــد كانــت أقــل مــدة حكمهــا العســكر هــي ســت ســنوات ، وذلــك في عهــد عبــود. بينمــا لــم تصــل حكومــة مدنيــة حاجــز الســت ســنوات. ولاشــك أن لذلــك تأثــير كبــير عــلى إنجــاز المشروعــات.

لــذا ، لــن نحاكــم المدنيــين إلى إنجــاز المشروعــات الاقتصاديــة والاجتماعية والعســكرية، لاختــلال ميــزان الحكــم الأســاسي وهــو الزمــن الــذي اتيــح لهــم. وحتــى لا يحتــج أحــد بــأن العســكريين حكمــوا عــشرات الســنين ، فــكان انجازهــم المتباهــى بــه شــيئا عاديــا! لــذا ، نحاكــم المدنيــين إلى أصغــر وأهــم مهمــة اوكلــت إليهــم ، وهــي وضــع دســتور للبــلاد. وقــد حظــوا لأجــل إنجــاز هــذه المهمــة بســنين عــددا ، تفصيلهــا كالآتــي: خمــس ســنين تقريبــا هــي الفــترة بــين انتخابــات ١٩٥٣م. وتســلم العســكر الحكم في نوفمــبر ١٩٥٨م. واربــع ســنين تقريبــا هــي الفــترة مــن ٦٥ _ ١٩٦٩م. واربــع ســنين تقريبــا هــي الفــترة مــن ٨٥ _١٩٨٩م.

اذا ، كان نصيــب المدنيــين مــن الحكــم ثــلاث عشرة ســنة تقريبا ، مقســمة الى ثــلاث فــترات ، أوكلــت إليهــم خلالهــا مهمــة أساســية واحــدة تمثلــت في وضــع دســتور للحكــم. فهــل هــي فــترة كافيــة؟ لاشــك أنهــا كافيــة جــداً

لإنجاز الدستور ، خاصة في ظل توفر القوى المادية والبشرية ، فقد كانت أوضاع البلاد الاقتصادية ممتازة جدا في الخمسينات والستينات ، أما في الثمانينيات وإن تراجع الحال إلا أن مخصصات الدستوريين في الجهازين التشريعي والتنفيذي لم تنقطع حتى سقوط الحكم المدني في ١٩٨٩م[١٥٢]. وبالتالي ، كان يفترض على الأقل تحليلا لمرتباتهم ومخصصاتهم انجاز الدستور. ومعلوم أن القوى البشرية اللازمة لإنجاز الدستور يقف على رأسها خريجو كليات القانون ، وقد كانت والحمد لله متوفرة منذ الثلاثينيات ، بل أن كثيراً من الدول العربية وغيرها استفادت منهم في وضع دساتيرها ونظمها الأساسية. فلماذا الفشل هنا في السودان؟!

وإذا ظلت القوى المدنية لثلاث دورات تفشل في التواضع على دستور لحكم البلاد ، فاي رجاء يرتجى؟!

الحقيقة الثانية ، الحكم المدني ليس جذر الأزمة؟

للسخرية ، كانت أهم إنجازات المدنيين ، على الاطلاق ، صناعة الانقلابات العسكرية. فالاحزاب الاربعة الكبرى لكل منها انقلابه الخاص ، أو بالتضامن: فعبود صناعة الأنصار والختمية. ونميري صنيعة الشيوعيين ، والانقاذ صنيعة الجبهة الإسلامية. ومن بين ركام الانقلابات الكثيرة كان الأسوأ هو محاولتها اجتياح الخرطوم فيما عرف بالمرتزقة. لا اعلم كيف لحزب مدني أن يجتاح عاصمة بلاده؟! ورغم مرور سنوات على اجتياح الخرطوم في العام ١٩٧٦م. إلا أن الأحزاب بمجرد فقدانها السلطة في عهد الإنقاذ ، سعت للاستظلال تحت بندقية التمرد لأجل اجتياح المدن السودانية حتى إسقاط الخرطوم . فأي حزب مدني رشيد يتورط في ذلك؟!

في الواقع كانت المدنية نفسها فريسة للمستعمرالزنجي ، الذي حول وسائلها وخصائصها ومميزاتها إلى غنيمة. وحول وظيفتها من

١٥٢ ـ ما زالت بعض لاندكروزر الثمانينيات تعرف باسم «الجمعية التأسيسية» .

حاكمـة للدولـة إلى مجـرد أداة نهـب أخـرى. عبرهـا تنهـب أالدولـة نفسـها بأخذهـا عنـوة بالانقـلاب العسـكري في الداخـل ، أو الاجتيـاح المسـلح مـن الأطـراف! وعبرهـا تنهـب أصـوات الناخبـين ، المناصـب ، والأمـوال العامـة.

ومـع ذلـك ، يبقـى صحيحـاً القـول إن الحكـم المدنـي هـدف لابـد مـن بلوغـه وإن طـال السـفر. وهـو السـبيل الأوحـد اليـوم لحكـم النـاس ، وخـير دليـل عـلى ذلـك لجـوء أعظـم ملكيـة إليـه. إن مؤسسـات الحكـم في بريطانيـا كاملـة المدنيـة ، وللمفارقـة أدى ذلـك إلى ترسـيخ الملكيـة نفسـها. اليـوم ، يجـد البريطانـي فخـراً شـخصيا في التـاج ، بـل ويقاتـل لأجـل اسـتمراره. والحكـم المدنـي يسـود العالـم المتحـضر ، مـا يعنـي أنـه لـم ، ولـن يكـون جـذر أزمـة البـلاد ابـدأ.

الحقيقة الثالثة ،الديكتاتورية ليست جذر الأزمة ؟

وفي الوقـت ذاتـه، فـإن افـتراض أن جـذر أزمـة البـلاد هـي الحكومـة الديكتاتوريـة الاسـتبدادية ، هـو افـتراض خاطـئ، حيـث أن العكـس صحيـح. فالحكومـة الاسـتبدادية هـي نتيجـة لا سـبب. او بمعنـى اوضـح ، أن ازمتنـا هـي التـي تنتـج النظـم الاسـتبدادية ،ودليـل ذلـك أن الانقـلاب لا يحـدث ، عـلى الأرجـح ، في وقـت رخـاء مـن عمـر النظـام المدنـي ، وانمـا يقـع سـاعة الشـدة ، عندمـا تغـرق الحكومـة المدنيـة في سفاسـف الأحداث. عندمـا يكيـد بعضهـا بعضـا ، وعندمـا تتـورط في نفـق الفسـاد. ولـك أن ترجـع إلى البيـان رقـم واحـد في كل الانقلابـات العسـكرية ، في السـودان وحـول العالـم للتأكـد!

الحقيقة الرابعة ، الثروة الوقتية الوطنية المهدرة:

ومـن ناحيـة أخـرى ، فـإن ذلـك الافـتراض ، يهـدر ”الثـروة الوقتيةالوطنيـة“. وتعريفـي لهـذا المصطلـح بـأن الثـروة الوقتيـة الوطنيـة هـي ”مقـدار مـا يملكـه الوطـن مـن وقـت“، و مقـدار مـا يملكـه الوطـن مـن وقـت ، مـن حيث العمـوم هـو مجمـوع مـا يملكـه أفـراده مـن وقت.

وبالتـالي ، فـإن الوقـت الـذي تمضيـه الديكتاتوريـة في السـلطة هـو جـزء مـن الثـروة الوقتيـة للوطـن ، فـإذا تـم اهـداره يكـون قـد تمـت إضاعـة جـزء مـن عمـر الوطـن. وهـذا الأمـر ينطبـق عـلى المعارضـة أيضـاً. فالوقـت الـذي تعيشـه بعـد الاطاحـة بهـا خـارج السـلطة هـو أيضـاً جزء مـن "الثـروة الوقتيـة الوطنيـة" ، وهـو جـزء مـن عمـره. وعـلى ذلـك فـإن افـتراض أن الديكتاتوريـة هـي جـذر أزمـة البـلاد أدى إلى نتيجـة مدمـرة تمثلـت في تبطـل المعارضـة وتسـكعها ، طـوال فـترة حكـم الديكتاتوريـات ، بـدلا مـن بنـاء نفسـها لتكـون مسـتعدة ، عنـد اسـتعادة السـلطة ، لبنـاء الدولـة. لمـاذا ؟ لأنهـا موقنـة أن جـذر الأزمـة هـو السـلطة الديكتاتوريـة، لـذا تحـصر جهدهـا ،فقـط ،لإسـقاط هـذه الديكتاتوريـة، بـدلا مـن بنـاء مؤسسـاتها التـي تحتاجهـا للحكـم. لـذا عندمـا تتـاح لهـا فرصـة للحكـم تعجـز تمامـاً ، مـا يؤكـد فعـلا أنهـا أضاعـت "ثـروة وقتيـة وطنيـة" طيلـة بقائهـا خـارج السـلطة.

لـذا ، تجـد أن القاسـم المشـترك بـين كل القـوى المدنيـة التـي تقدمـت لاسـتلام السـلطة _ بعـد الاطاحـة بالديكتاتورية _ كانـت الحـيرة والارتباك. فالحـيرة والارتبـاك كانـا القاسـم المشـترك بـين كل النظـم المدنيـة ، حتـى بعـد تسـلمها رسـميا السـلطة! لقـد رأينـا كـم عانـت أول حكومـة مدنيـة مـن ارتبـاك، حيـث قضـت عمرهـا القصـير في تلـك المؤامـرات والمهاتـرات حتـى قـضى عليهـا. وهـو ذات حـال الطغمـة المدنيـة الثانيـة والتـي زادت سـوءا حتـى انتهـى أمرهـا الى طـرد بعضهـا بعضـاً من البرلمـان ، وشـكاية المطـرود الطـارد لـدى المحكمـة لتصـدر حكمـا ، يقـرر رئيـس الـوزراء أنه لاشـئ ، وتمـضي الأحـداث مرتبكـة لدرجـة إطـلاق سراح مجرمـين مدانـين قضائيـا ، وانفـراط الأمـن و.....الـخ!

وامـا في المدنيـة الثالثـة ، فقـد قضـت الأحـزاب السياسـية أربـع سـنوات تقريبـاً ولـم تنجـز الهـدف الأسـاسي الـذي كان مطلوبـا منهـا إنجـازه ، قضـت كل تلـك المـدة وفشـلت في صياغـة دسـتور للبـلاد. وهـو الفشـل

الـذي تكـرر خـلال كل العهـود المدنيـة! وبعـد ثـورة ديسـمبر ، أعـادت الايـام دورتهـا عـلى الحـال الـذي علمنـا جميعـا مـن حـيرة وارتبـاك في كل شـئ _ كتابـة الوثيقـة الدسـتورية ، تشـكيل الحكومـة ، إدارة الاقتصـاد ، الأمـن . والخدمات.....الـخ _ وقدبلغـت الحـيرة منتهاهـا يـوم تباكـى السـيد رئيـس الـوزراء مسـتعطفا شـعبه ، ومعتـذرا عـن الارتبـاك الـذي تلبـس اداءه ، حـين همـس بعـد فـترة طويلـة مـن تسـلم منصبـه : اننـي في انتظـار برنامـج الحريـة والتغيـير!

وعـلى ضـوء ذلـك، نجـد أن أسـاس هـذا الارتبـاك كان توجيـه المعارضـة كل وقتهـا وطاقتهـا لإسـقاط النظـام ، لا بنـاء المؤسسـات المدنيـة ، وإعـداد الخطـط اللازمـة لإدارة البـلاد ، وهـو مـا نصفـه بأنـه "هـدر للثـروة الوقتيـة للوطـن". وباحصائيـة بسـيطة نجـد أن الجنـاح المدنـي كان لديـه ٥٢ عامـا مهـدرة دون طائـل _ ٦ سـنين خـلال عهـد الرئيـس عبـود ، ١٦ سـنة خـلال عهـد الرئيـس نمـيري ، و٣٠ سـنة خـلال عهـد الرئيـس البشـير _ كانـت السـنوات السـت الاولى وحدهـا كافيـة لإعـداد معارضـة رشـيدة تبنـي نفسـها ، وتعـد لهـا أهـداف وبرامـج واضحـة ، مفصلـة تفصيـلا دقيقـاً ، يتنـاول كل أنشـطة الدولـة ، جاهـزة للتطبيـق عندمـا يحـين الوقـت. أمـا أن تعـود المعارضـة المدنيـة ، بعـد ثلاثـين عامـا للحكـم تتلبسـها الحـيرة ، فتلـك حالـة نموذجيـة لمـا اسـميته "تبديـد الثـروة الوقتيـة الوطنيـة"!

الحقيقة الخامسة، صراع القوميين شد لأزرالعرقيين:

هـل أصـل الحكـم مدنـي أم عسـكري؟ هـذا هـو السـؤال المسـيطر عـلى السـاحة السياسـية السـودانية والإفريقيـة ، وبعـض دول العالـم الثالـث منـذ صياغـة مواثيـق حقـوق الإنسـان. إذ أن ثمـة ادراك غائـم يسـبح في فضـاء القوميـين. خاصـة فيمـا يتعلـق باعتقـاد العسـكريين بـأن السـلطة هـي في الأصـل لهـم ، لكـن ، تدبـير مـا "خبيـث" أدى لحرمانهـم منهـا،

ووضعهــا في يــد المدنيــين. اولئــك الذيــن يفــرون عنــد الوغــى للاحتمــاء بهــم ، وإذا أمنــوا ســلقوهم بالســنة حــداد!

في الواقــع ، لــم يكــن الجيــش ليســبح عكــس تيــار الحضارةالإنســانية. تلــك التــي فرضــت عليــه منــذ أواخــر القــرن التاســع عــشر الميــلادي التراجــع للخلــف ، لحمايــة الدولــة لا حكمهــا ، فحكمهــا منــوط باقــوام آخريــن! تلــك كانــت طعنــة غــادرة قضــت عــلى احــلام ازدهــرت مــا بــين الاســكندر الاكــبر المقدونــي ، وبونابــرت الفرنــسي. لكنهــا اليــوم مجــرد أحــلام ، ولكــن الأحــلام قــد تتحــول الى واقــع. ففــي لحظــة غفــوة تاريخيــة أوتــي عبــود الحكــم ، اســتيقظ مــن احــلام تقاعــده، ليبــدأ ســيرة مهنيــة جديــدة ، قصــيرة ، لكنهاطغــت عــلى كامــل تاريخــه!

فاي لحظة تاريخية تلك التي حققت حلمه؟!

كان ذلــك أوان فشــل عبداللــه خليــل وزمرتــه. وهــو مــا تكرر أوان فشــل الأزهــري وزمرتــه! وهــو مــا ترســخ أوان فشــل الصــادق المهــدي وزمرتــه! وهــو مــا وقــر لــدى الذهنيــة العســكرية ، بعــد فشــل اخــر حكــم مدنــي. ففــي تلــك اللحظــات ، رأى الجيــش نفســه مؤهــلا لتســلم الســلطة ، حــين فقــد المدنيــون رشــدهم وســيطر عليهــم الغــي. حينهــا وجــد نفســه ، بحكم "الولايــة التاريخيــة" ، مؤهــلا لازاحتهــم وتســلم الحكــم. تلــك اللحظــة التــي تشــارك فيهــا الاحســاس بــين الجيــش والشــعب ، فعــبر هــذا بأغنيــة "بــت الفكــي" واخواتهــا. وغنــي ذاك "بالملايــين قلناهــا نعــم"! وبينهمــا تســولت المدنيــة خشــاش الأرض!

ولكــن ، مــا أن انتهــي الحفــل وهمــدت ال أغنيــات ، وجــرد الحســاب ، حتــى وجــد الشــعب أن مــا كان قــد كان! وأن الــضراء جــرت وراءها باســاء ، وأن الفشــل قــد بلــغ حــدا جعــل المدنيــين مؤهلــين للعــودة للحكــم. ففــي بــلادي لا يقــاس نجــاح المــرء بقدرتــه الذاتيــة ، ولكــن يكمــن النجــاح في فشــل الاخــر. وبفشــل العســكريين اثبــت المدنيــون رشــدهم ، إذ صــاروا

متساوين معهم في الغي ، وزادوا عليهم بفهلوة مواثيق حقوق الإنسان الداعمة للحكم المدني. فنزعوا ولاية الجيش عنهم وعادوا للحكم، وسعدوا مجددا ب"الغنيمة والاياب" ، وهلل الشعب . وغنى "عاش ابو هاشم"! و"لن نصادق غير الصادق"، ورقص اولئك على نغم "الاكتوبريات"!

مهما يكن ، استمر ذلك في التكرار بشكل دوري ، في السودان وأقطار من أفريقيا. حتى أنه يصح القول ، باطمئنان ، إن المائة عام المقبلة ستتأرجح بين هؤلاء وأولئك، ما لم يحدث تغيير جذري. وعلى كل، أدى انهماك القوميين في التربص ببعضهم إلى نتيجة طبيعية ، هي استواء سوق العرقيين. فقد هدر القوميون طاقتهم في الكيد لبعضهما وإهملا شأن الناس. وهو ما أدى إلى تمكين العرقيين من إشاعة مفاهيمهم. وهو ما نلحظه خلال المساندة الجهوية لتياراتهم . لقد كان تأييد الجنوبيين واضحاً لأحداث ١٩٥٥م. وكذا تأييد أبناء البجا لمؤتمرهم في ١٩٥٨م.إذ قدر الحضور باكثر من خمسة عشر ألفاً[١٥٣].وهي ذات الحال التي استقبل بها أهل دارفور جبهة نهضة دار فور ، وكان ذلك شأن أهل جبال النوبة مع اتحاد جبال النوبة ، وهو ما رأيناه من مؤازرة للطيب مصطفى، رجل منبر السلام العادل ، رحمه الله ، وهو ما نجده في كل طرح مشابه ، كان ذروته وقت حشد الجنوبيين لحرب ١٩٨٣م. وكذا الانفصال. وكذلك حشد الغرابة بداية الألفية الثالثة للحرب ضد المركز.

على أن أخطر ما في الأمر ، صيرورة الأطروحات العرقية نهجاً تبريريا للحرب ، بحيث تسيطر على الأذهان كونها ضرورة لتحقيق الأهداف. وهو ما يدخل البلاد في نفق داخل انفاقها الغائرة العمق!

---

١٥٣ ـ محمد أدروب اوهاج ، مؤتمر البجا ، الناشر : دار عزة للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٦م ، ص١٣

الفصل الثالث
جناح العرقيين

يصح القول إن العرقية تمثل طبقة سميكة من القاذورات تيبست على جلد افريقيا. فهي ليست حقيقية ، وليست ضرورية ، ولا تدخل في تكوين الجسم ، ومع ذلك ، أجتهد العرقيون في إقناع ذواتهم ، بأنها جزء حيوي في هذا الجسد! ليس ذلك فحسب ، وانما استمروا في إقناع ذواتهم أن كل شي عنصري ، وكل ما يحدث له أساس عرقي. وانحصر الأفق لديهم تحت هذا المستوى. فمثلا الجنوبي العرقي لن يفصل بين حكومة شمالية إسلامية بعد الاستقلال ، وحكومة المهدية التي نشطت في غزوات الرقيق! لذا ، لم يكن غريباً صدور تصريح كهذا من المتحدث باسم الجنوب في مؤتمر المائدة المستديرة ، في ستينيات القرن الماضي ، حيث جاء ضمن خطابه أن الرق (لا يمكن نسيانه ، خاصة وأنه لم يتم أي إجراء ليدل بوضوح ، بأن هناك تغييرا في النوايا وسط ولاة الأمر من حفدة المسؤولين عنه)! [١٥٤].إن ذلك يعكس مدى سيطرة الاعتقاد بأن كل شيء يندرج تحت مفهوم العرق والعرق المضاد. فكيف لا يكون هناك تغيير ، ودساتير البلاد ، وقوانينها ، ونظمها كافة تدين الرق ، والعنصرية وكل ما يندرج تحته؟ بل وتعاقب على ذلك! وفوق هذا، لا تعتبر المساواة جزءا من دستور البلاد فحسب ، بل هي الركيزة الأساسية التي تأسس عليها مستندا إلى مواثيق حقوق الإنسان . وبالتالي هي _المساواة _ الركيزة الأساسية التي تأسست عليها جميع القوانين[*١٥٥].

١٥٤ ـ د.فرانسيس دينق ، صرع الرؤى ، ص ٧٦.

١٥٥- (٢) ربما كان ممثل الجنوب متأثراً بإحداث الاحد الأسود بتاريخ ٦/ديسمبر/١٩٦٤م. فقد تجمع ابناء الجنوب في الخرطوم للاحتفاء بأول جنوبي يتولى منصبا وزارياً مهما وهو كلمنت امبوروClement Mboro

وتأكيدا لحسن النوايا حرص القائمون على إدارة المؤتمر على تصميم مائدة فريدة يتحلق الناس حولها للحوار ، فقد جعلت مستديرة ، دلالة على التساوي في كل شيء! وتوخيا للإنصاف ، اذا راجع المتحدث المحترم تكوين لجنة صياغة الدستور في ١٩٥٦م. لوجدها تتكون من ٤٦ عضواً شماليا مقابل ثلاثة أعضاء جنوبيين ، وكان القرار يصدر بالأغلبية [١٥٦]. فكيف يصح القول إنه لم يتغير شيء؟! إن مؤتمر المائدة المستديرة نفسه ـ بعد عشر سنوات فقط من الاستقلال ـ يشهد على التغيير الذي طرأ على "حفدة المسؤولين عن الرق"حيث أن عدد الكيانات السياسية الممثلة للجنوب كان أربعة كيانات منفصلة [١٥٧]. أما عدد الحضور من الجنوبيين فيكاد يكون الأكبر! في الواقع ، لم تكن لتختلف نظرة ممثل الجنوب المتعلم عن نظرة "يولا بيك ماليث"، الجنوبي الأمي الطاعن في السن الذي كان يعتقد (بأن تلك النزعات المشينة لدى العرب ، مغروسة في تركيبتهم العرقية والثقافية ، ولهذا فإنه يستبعد اي اساس لوحدة حقيقية صادقة. اذا كانوا أناساً لهم القدرة للتخلص من أخلاقهم السيئة ، لفعلوا ذلك منذ أمد طويل ، ولكنهم قوم خلفهم الله بطريقة خاصة). [١٥٨]

ولا يختلف العرقي الغرابي عن الجنوبي كثيراً ، حيث ظل معتقدا في عرقية تفسير الوقائع. وقد تمادى في ذلك حتى أورد دارفور المهالك. أما العرقي الشمالي ، فحدث ولا حرج ، حيث ما زال يعتقد أن الغرابة ممثلين في التعايشي سبب مناحة قومية ، وما زال النحاس يقرع في رتابة تحذيرا من عودة التعايشي. ولا أدل على ذلك من هتاف البعض ضد إختيار السيد/محمد حسن التعايشي عضوا في مجلس السيادة ، إذ صاحوا لن يحكمنا التعايشي مرة أخرى!

وقد شاعت الإشاعة باغتياله عند تأخر وصول طائرته»العم كلمنت قد اغتيل» فهاج الجنوبيون وقتلوا اي مندكورو صادفوه امامهم، ورد المندكورو .وكان شغبا عنصريا خلف قرابة المائة قتيل. تاريخ السودان الحديث. روبرت أو كولنز. ص١٠٢.

١٥٦ ـ د.فرانسيس دينق ، صرع الرؤى ، ص ١٣١.

١٥٧ ـ روبرت أو كولنز ، تاريخ السودان الحديث، ص ١٠٣.

١٥٨ ـ د.فرانسيس دينق ، صرع الرؤى ، ص١٩٢

أن هـذا الجنـاح يمـضي مبـاشرةً إلى تصديـق اعتقـاده الراسـخ أن جوهر أزمـة البـلاد عرقيـة ، أو عنصريـة ، وبالتـالي ، لا يضيـع وقتـا في البحـث عن أي أسـباب أخـرى ، حقيقيـة للأزمـة ، لأن التسـبيب العرقـي في نظـره هـو الحقيقـة. وكـذا لا يجتهـد لبحـث حلـول لأن الحـل بالنسـبة إليـه معلـوم لا جـدال فيـه. ويتلخـص في الابتعـاد عـن مصـدر هـذه الأزمـة العرقيـة أو العنصريـة. والتعبـير الميكانيكـي عنهـا هـو الانفصـال. فالانفصـال هـو ايقونـة العرقيـين وفردوسـهم المفقـود ، بـه تنتهـي آلامهـم وماسـيهم. وقـد بـدا هـذا الاتجـاه مبكـرا، إذ كان هنـاك مـن أعتقـد جازمـا أن الحـل يكمـن في الانفصـال. وفي الحقيقـة ، ليـس الإنفصـال حـلا ، وانمـا هـو ،فقـط ، "أزمـة مؤجلـة"! فمـا أن ينـال العرقيـون منالهـم وينفصلـوا ، حتـى تقفـز الأزمـة ذاتهـا : مثـلا ، سـتعود مصطلحـات "احـرار" و"عبيـد" للتموضـع بـين المكونـات الجديـدة ، ولـن يتغـير شـئ سـوى تبـدل أشـخاص المنـادى عليهـم بمصطلحـي الاحـرار أو العبيـد!

لقـد طغـى ذلـك حتـى عـلى الجغرافيـا ، فمـا أن انفصـل الجنـوب عـن الشـمال ، حتـى ظهـر جنـوب جديـد للشـمال ، وشـمال جديـد للجنـوب! ولـن نبالـغ ، اذا قلنـا إنـه مـا لـم يعالـج جـذر الأزمـة فلـن يغـير الإنفصال مـن الأمـر شـيئاً. حتـى اذا انفصـل السـودان إلى قـرى ، وكل قريـة اعتـبرت دولـة كاملـه السـيادة ، سينقسـم أهلهـا إلى فريقـين عـلى الأقـل، وسـيتهم بعضهـا البعـض الآخـر بالعنصريـة ، والعرقيـة وإن انحـدروا مـن الجـد نفسـه. وسـيتمرد بعضهـا وقـد يحمـل السـلاح و... إلـخ!

وعليـه ، يصـح القـول إن الركـون إلى نهـج تفسـير عرقي/عنـصري لأي واقعـة أو حـدث كان ، ومـازال ،مـضرا جـدا بوحـدة السـودان ، لأنـه ياخـذ النـاس إلى حيـث لا ينبغـي لهـم أن يذهبـوا. خاصـة حينمـا يمكـن النظـر إليهـا مـن زوايـا مختلفـة محتملـة. لقـد كان هـذا الجنـاح يجـد ضالتـه في كل واقعـة حيـث يرجعهـا إلى تفسـير عنـصري مـا ، وليسـت تلـك هـي المشـكلة ، وانمـا كانـت المشـكلة حينمـا رسـخت هـذه التفاسـير جيـلا عـن

جيـل ، دون تمحيــص ، حتـــى غــدت هـــي الحقيقـــة الفـــاردة. الحقيقـــة التـــي قـــادت إلى حـــروب عبثيـــة ،مدمـــرة ، راح ضحيتهـــا اجيـــال ، ومـــا زالـــت هنـــاك أجيـــال تنتظـــر. وادت إلى تكلـــس الذاكـــرة الوطنيـــة حـــول وقائـــع وأحـــداث تاريخيـــة كان يمكـــن اعتبارهـــا أخطـــاء ممارســـة مـــن قبيـــل إســـاءة اســـتخدام الســـلطة ونحـــوه ، لكنهـــا تحولـــت إلى ســـياط عرقيـــة يجلـــد بهـــا الوطـــن .فالســـودنه ، قمـــع التمـــرد ، ترحيـــل الازانـــدي ،وغيرهـــا ، تحولـــت إلى مناحـــة تاريخيـــة ، تحـــج إليهـــا الجمـــوع ، لـــذرف الدمـــوع ، بكـــرة واصيـــلا! وخـــلال هـــذه المســـاحة ، ســـنحاول إعـــادة قـــراءة بعـــض أهـــم الأحـــداث التـــي أثـــرت عـــلى تاريـــخ الســـودان.

١٠السودنة

نــال الجنوبيــون ٨ وظائــف مــن مجمــل ٨٠٠ وظيفــة احتكرهــا الشــماليون عــام ١٩٥٥م. مما رتــب اثــار كارثيــة عــلى تاريــخ الســودان بعــد الاســتقلال. وقــد رافــق ذلــك بعــض الأســباب التــي نظــر إليهــا جميعــا كدليــل تحيــز عرقــي مــن قبــل الشــماليين. ولكــن الملفــت هــو الاكتفــاء بذلــك التســبيب واســتهلاكه حتــى غــدى أنجيــلا بــين النــاس. وهنــا نتســاءل: هــل يمكــن إيجــاد وقائــع أخــرى كان يمكــن أن يــؤدي اســتصحابها إلى حكــم مختلــف؟ وأن كانــت الإجابــة نعــم ،هــل كان ذلــك يجــدي نفعــا في خفــض التوتــر بــين الشــمال والجنــوب ، وتفــادي مــا بعــده؟ وإن كانــت الإجابــة نعــم ، هــل يمكــن اســتصحاب ذلــك اليــوم لأجــل كســب حاضرنــا؟ [١٥٩].

أن المطلــع عــلى تاريــخ الســودان ،منــذ بــدء الحكــم الثنائــي ، قــد يلاحــظ وجــود وقائــع مهمــة متعلقــة بالســودنة ، لــم تجــد حظهــا مــن الاســتصحاب. ومــن ذلــك أزمــة طــلاب المعهــد العلمــي المزمنــة المســتفحلة. وارتفــاع مســتوى البطالــة بــين الخريجــين عمومــا ، وخريجــي المعهــد العلمــي خصوصــا.

أزمة طلاب المعهد العلمي :

(ترجــع جــذور التعليــم الدينــي في ام درمــان إلى عهــد المهديــة، حيــث شــهد جامــع الخليفــة اكبر تجمــع للدارســين، مــن الكبــار والصغــار ، وكان الخليفــة قــد أمــر الفقهــاء بتعليــم القــراءة والكتابــة للصبيــان ، وحفــظ

---

١٥٩ ـ وفقــا لعبــد الجبــار محمــود دوســه ، أن نصيــب الجنوبيــين مــن هــذه الثمانمائــة وظيفــة كان أربعــة مناصــب. دارفــور وأزمــة الدولــة. دوســه. ص ١٥]

سـورة الفاتحـة "آيـة وشـكله" وسـورتين مـن القـرآن "المعوذتـين" للكبـار) [١٦٠].وكانـت هنـاك مدرسـة فـوق مسـتوى الخلـوة ، شرط الالتحاق بهـا حفـظ القـران الكريـم يـدرس فيهـا الحسـاب والعلـوم الدينيـة. [١٦١].
وكانـت هنـاك خـلاوي أخـرى هنـا وهنـاك. وقـد بـرزت مـع بـدء الحكـم الثنائـي حلقـات العلـم آلتـي يقيمهـا العلمـاء في منازلهـم [١٦٢].وقـد وجـدت الحكومـة الجديـدة في حلقـات العلـم هـذه خطـراً مؤجـلا بحسـبانها مـن مخلفـات المهديـة ، خاصـة بعـد تنامـي ظاهـرة المقاومـة ، مثـل ادعـاء عـلى عبـد الكريـم وأصحابـه ظهـور نبـي اللـه عيـسى عليـه السـلام في عام ١٩٠٥م، ومـا خلقـه ذلـك مـن اضطـراب ، انتهـى باسـتتابتهم قضائيـا ، ثـم نفيهـم مكبلـين بالقيـود إلى وادي حلفـا ، حيـث بقـوا كذلـك حتـى الموت[١٦٣].وبعـد سـنوات قليلـة اندلعـت حركـة ود حبوبـة التـي انتهـت باعدامـه. وبـين شـد وجـذب ، تـم إنشـاء المعهـد العلمـي في ١٩١٢م. مـن قبـل الشـيخ ابـو القاسـم هاشـم ومعـه ثلـة مباركـة، لنـشر العلـم ، وتخريـج جيـل يجمـع بـين العلـوم الدينيـة والحديثـة حتـى يتمكنـوا مـن الإسـهام في رفعـة مجتمعاتهـم. [١٦٤].

المعضلة الاولى ، أزمة طلاب المعهد العلمي :

لـم يقتـصر دور الحكومـة عـلى الفتـور تجـاه المعهـد العلمـي فحسـب وانمـا سـعت حثيثـا لـصرف الطـلاب عنـه وإغلاقـه. وقـد اتبعـت _طـوال نصـف قـرن تقريبـا _ أسـاليب ماكـرة عـلى رأسـها حرمـان خريجيـه مـن التعيـين في الوظائـف. بـل إنهـا امعانـا في حربهـا عليـه ، رفضـت طلـب مديـره تعيـين بعـض خريجـي المعهـد النابهـين في وظيفـة مسـاعد تدريس. وتحـت إلحـاح المديـر وافقـت بـشرط أن يكـون ذلـك تبرعـا منهـم ،

١٦٠ ـ د. المعتصم احمد الحاج أزهر السودان. المعهد العلمي بأم درمان. تاريخه وتطوره ١٩١٢ _ ١٩٦٥.. ص ٥٢.
١٦١ ـ نفس المرجع ، ص ٥٢
١٦٢ ـ نفس المرجع ، ٥٦
١٦٣ ـ د.فرانسيس دينق ، صرع الرؤى ، ص٥٧
١٦٤ ـ د. المعتصم احمد الحاج أزهر السودان. المعهد العلمي بأم درمان ، ص ٨٣.

وتعهدت باعانة شحيحة للغاية. كما زادت غلوها حين فرضت على مدير المعهد عدم تجاوز عدد الطلاب المعينين عن ست. وان يظلوا على حالهم حتى تخلو وظيفة مدرس فيعين أحدهم مكانه! [١٦٥].

وللمفارقة ، لم يكن وضع طلاب المعهد العلمي فقط هامشيا ، وانما وضع شيخ المعهد العلمي نفسه _ مدير المعهد العلمي_ كان هامشيا . فرغم أن الحكومة تدفع له مرتبا ، إلا أنه لا اعتبار له ، حيث لا تشمله قوانين الخدمة لأنه يعمل بعد التقاعد [١٦٦].وفي ثلاثينيات القرن الماضي كان رأي الحاكم العام (أن منصب شيخ العلماء لا يعدو أكثر من وظيفة شرفية لا بريق لها) [١٦٧].وقد استمر طلاب المعهد العلمي على حال من البطالة وضيق الأرزاق ، مما كان يدعوهم للإضراب عن الدراسة ، خاصة الفترة من ١٩٤٦ _١٩٥١م. احتجاجا على كونهم خارج النظام التعليمي للبلد ، وما ينتج عن ذلك من أضرار عليهم خصوصا بعد التخرج [١٦٨].

قبيل الاستقلال ، في العام ١٩٥٤م، ضمن نضالهم الطويل المستمر منذ عقود ، رفع اتحاد طلاب المعهد العلمي مذكرة إلى السيد اسماعيل الازهري ، رئيس الحكومة الوطنية الأولى ، تحوي ذات مطالبهم . ولما لم يجدوا حلا من قبل حكومتهم الوطنية ، لجأوا في مارس ١٩٥٥م إلى إعلان الإضراب عن الدراسة في بيان موجه إلى الشعب ، ونوابه ، وشيوخه. وكان مما جاء فيه (أنه ليس من العدالة في شئ أن يقضي الطالب زهرة عمره ، ثم يخرج إلى الشارع لأن الحكومة لا تعترف

---

١٦٥ ـ المرجع السابق. ص ٨٩.عن الأمين محمد محيسي. المعهد بين الماضي والحاضر. مجلة معهد ام درمان ، العدد الاول. ديسمبر ١٩٥٧م. الخرطوم ، ص ٣٦ _٣٧.

١٦٦ ـ ورد في مذكرة كبار علماء المعهد العلمي إلى رئيس وأعضاء مجلس إدارة الجامعة الإسلامية : أن الإستعمار قد حاربهم في أرزاقهم وامعن في اضطهادهم ، فجعلهم في مؤخرة الطبقات ، وسد أبواب العمل أمام المتخرجين في كل ما يدخل في دائرة اختصاصهم..... المرجع السابق. ص ٣٢٤.

١٦٧ ـ المرجع السابق. ص٩٥.

١٦٨ ـ المرجع السابق. ص ٩٩.

بالشـــهادة التـــي نالهـــا بعـــد جهـــد طويـــل ، دفـــع الثمـــن غاليـــا مـــن عمـــره ، وعقلـــه وطاقته.......الـــخ) [١٦٩].

بلـــغ عـــدد خريجـــي المعهد العلمـــي ، خـــلال الفـــترة مـــن ١٩١٢ _١٩٥٨م. مائتـــان وأربعـــة مـــن حملـــة الشـــهادة العالميـــة ، وســـبعمائة واثنـــين مـــن حملـــة الشـــهادة الثانويـــة (الأهليـــة)، والـــف وتســـعمائة طالـــب من الشـــهادة الابتدائيـــة. ومـــع ذلـــك أغلقـــت الحكومـــة الابـــواب امامهـــم وضيقـــت عليهـــم كثـــيرا [١٧٠].

المعضلة الثانية ، عدد الخريجين من التعليم النظامي :

في العـــام ١٩٤٢م. كان عـــدد الخريجـــين مـــن المـــدارس والمعاهـــد والكليـــات الجامعيـــة المنضويـــن تحـــت مؤتمـــر الخريجـــين (٥٢٨٠) أربعـــة اخماســـهم مـــن الأقاليـــم [١٧١].وكانـــت الوظيفـــة نـــصرا عزيـــزا ، ليـــس للخريـــج فحســـب ، وانمـــا لطائفـــة مـــن البـــشر حولـــه ، يصـــف خـــضر حمـــد معنـــى أن يحظـــى أحدهـــم بوظيفـــة في ذلـــك الوقـــت ، حيـــث يقـــول (فالتوظيـــف هـــو نهايـــة المطـــاف ، والعلـــم الـــذي نتلقـــاه يهيئنـــا لهـــذه الوظيفـــة دون ســـواها. بـــل كانـــت الوظيفـــة هـــي أمـــل الأهـــل والاحبـــاب. واذا مـــا تخـــرج الفـــرد منـــا واحتوتـــه دواويـــن الحكومـــة ، وهـــذا مصـــيره الحتمـــي ، سر به أهلـــه واحتفل بـــه اصدقـــاؤه ، واقيمـــت لـــه الحفـــلات ابتهاجـــاً بالفـــوز والظفـــر).[١٧٢] هـــذا عـــن الوظائـــف الدنيـــا. وإذا اســـتصحبنا معهـــا احتـــكار الإنجليـــز للوظائـــف المهمـــة ، التـــي كان الخريجـــون يتحرقـــون شـــوقا ، انتظـــاراً لســـودنتها. واذا نظرنـــا قـــرب ســـكان المركـــز ومـــا حولـــه مـــن أماكـــن هـــذه الوظائـــف ، وفي الوقـــت ذاتـــه بعـــد الآخريـــن (غـــرب الســـودان ، الجنـــوب ، الـــشرق) عـــن مواقعهـــا. وبالعـــودة إلى ”الذهنيـــة الغنيميـــة“ للمواطـــن الســـوداني ”ذهنيـــة الدولـــة الغنيمـــة“ نجـــد أن التغـــول عـــلى هـــذه الثمانمئـــة وظيفـــة ســـلوك

١٦٩ ـ المرجع السابق. ص٢٧٧.

١٧٠ ـ المرجع السابق. ص ٢٨٠

١٧١ ـ احمد خير ، كفاح جيل..ص٧٥.

١٧٢ ـ خضر حمد، مذكرات خضر حمد. ص ٢٢ .

طبيعـي لتلـك الذهنيـة ، وفضـلاً عـن ذلـك يمكـن إيجـاد تفسـير آخـر لـه يؤكـد ذلـك. خاصـة إذا وضعنـا في الاعتبـار أن عـدد الوظائـف المطروحـة كان ثمانمائـة مقابـل مـا لا يقـل عـن الثلاثـة آلاف خريـج ، عـلى الأقـل ، مـن سـكان الخرطـوم ومـا جاورهـا،إذا أخذنـا في الاعتبـار خريجـي جميـع المؤسسـات التعليميـة.واذا أخذنـا في الاعتبـار أن احصائيـة عـدد الخريجـين المذكـورة أعـلاه _ ٥٢٨٠ خريـج _ كانـت قبـل ثلاثـة عـشر عامـاً مـن السـودنه.

هـل كان مسـلكا حميـدا ذهـاب السـبعمائة واثنـان وتسـعون وظيفة إلى شـماليين دون سـواهم؟! قطعـا لا ، كان تصرفـا انانيـا حقـيرا. ومـن ثـم ، هـل كان مبعثـه عرقيا/عنصريـا بقصـد أبعـاد عـرق أو جماعـة ؟ لا اعتقـد ذلـك مطلقـا ، وفقـا لمـا سـبق مـن أسـباب ، واسـتناداً إلى غريـزة المسـتعمر الزنجـي الضاربـة جذورهـا في أعمـاق مجتمعنـا. وإنـي عـلى ثقـة مـن أن هـذه الفرصـة _ الغنيمـة _ إذا كانـت قـد وجـدت في الفـاشر ، في ذلـك الوقـت ، وفي ظـل نفـس الظـروف ، لذهبـت الثمانمائـة وظيفة بأكملهـا ، إلى غرابـة اقحـاح. او في أحسـن الأحـوال ربمـا خرجـت سـت ، أو سـتون منهـا إلى تخـوم امدرمـان، أو فيـافي الشـمال الى بعـض الاصهـار وأبنائهـم . والأمر منطبـق عـلى جوبـا التـي إن كانـت الفرصـة لديهـا لما عـبرت ملكال شـمالا ، ولاسـتاثروا بهـا جميعـا ، أو ربمـا تركـوا حفنـة منهـا لاصهارهـم مـن جنـوب الجبلـين. ولـن يكـون أدروب أقـل شـأنا مـن الآخريـن ، في مثـل هـذه الحـال ، إذ لاشـك أن سـنرى منـه عجائـب قدرتـه تبـارك وتعـالى!

٢٠ترحيل الزاندي

كان ترحيـل الازانـدي "الزانـدي" مـن أراضيهـم لأجـل تحقيـق خطـة الحكومـة في أربـاح افضـل عـن طريـق الإنتـاج الإقتصـادي للقطـن، سـببا أساسـيا ـ ضمـن أسـباب أخـرى ـ في اضطرابـات ١٩٥٥م. إذ لـم يرضـوا بترحيلهـم مـن أراضيهـم المحبوبـة في توكلـس وتوطينهـم في قـرى كبـيرة عـلى الطريـق ، حيـث خصصـت لهـم أراض واجـبروا عـلى زراعـة القطـن أو العمـل في شـق وإصـلاح الطـرق ، مـع اجـر زهيـد إلى السـخرة أقـرب[١٧٣]. وبالطبـع لـم يكـن ذلـك مقبـولا، وكان يمكـن بصـورة أو أخـرى فضحـه بوسـائل سـلمية ، لكـن ذلـك لـم يحـدث لسـبب بسـيط هـو إعتبـار المسـألة عرقية/عنصريـة لا مجـرد أخطـاء إداريـة يمكـن مقاومتها. وبسـبب سـيادة ذلـك الاعتقـاد تطـور الأمـر اشـتعل الحريـق في الجنـوب والسـودان عامـة لمـدة سـبعة عـشر عامـاً قبـل أن تضـع الحـرب أوزارهـا بموجـب اتفاقيـة أديـس أبابـا ١٩٧٢م.

ان ترحيـل الازانـدي لـم يكـن سـوى قـرار إداري بالـغ السـوء ، مثـل كثـير مـن القـرارات التـي ابتليت بهـا بلادنـا ومـا زالـت. ويمكـن حيثمـا نظرنـا حولنـا أن نجـد مـا يشـبهها. ويمكـن اختزالهـا في مثالـين ، أولهمـا ترحيـل أهـل وادي حلفـا ، وثانيهمـا معالجـة السـكن العشـوائي في العاصمـة الخرطـوم.

بالنسبة لترحيل أهل وادي حلفا :

نرجئـه إلى مـكان آخـر ، ونكتفـي هنـا بطـرح مقارنـة صغـيرة بـين مـا لحـق الازانـدي مـن ظلـم ، ومـا حـاق بأهـل وادي حلفـا مـن حيـف.

١٧٣ - روبرت أو. كولنز ، تاريخ السودان الحديث.. ص ٧٨

وفيـه نكتفـي بالقـول إن ترحيـل الازانـدي كان أقـل وحشـية وجـورا مـن اقتـلاع أهـل وادي حلفـا. فالازانـدي رحلـوا قـسراً مـن أراضيهـم إلى أراض أخـرى في نطاقهم(جنوبهـم الحبيـب) ، ووزعـت لهـم الأراضي . وبالتـالي ، فـإن أرضهـم الاولى موجـودة يمكـن الرجـوع إليهـا بطـرق عديـدة ، وفي أسـوأ الأحـوال يمكـن للمـرء أن يعود ويشـتري ارض الأجـداد بمالـه أن يسر اللـه لـه. لكـن ، أتـرى بمقـدور الحلفـاوي العـوده الى ديـاره الغرقـى؟! مهمـا ملـك مـن مـال ليـس بمقـدوره العـودة ، لأنـه في الواقـع ، لـم يتـم ترحيـل أهـل وادي حلفـا ، وانمـا اقتلعـوا مـن جذورهـم اقتلاعـا : اقتلعـوا تاريخـا وجغرافيـا. فهـل حـدث لسـوداني شي مثـل ذلـك؟! بـل هـل حـاق ذلـك بشـعب غيرهـم؟! إن مأسـاة الحلفـاوي كانـت أعظـم مـن نكبـة الفلسـطيني ، لأن الفلسـطيني ، مهمـا يكـن ، بـاق في أرضـه وهـو يقـاوم ، بينمـا الحلفـاوي انتـزع منـه ، حتـى ، شرف المقاومـة ، وألقـي بـه في مـكان لـن يسـاوي حلفـا ، حتـى إذا بلـغ تعويـض اي شـخص منهـم عمـارة كاملـة، وهـل تسـوى غابـة اسـمنتية حضـارة بضعـة آلاف عـام؟! وهـل يبيـع أحـد تاريـخ أسـلافه؟! فهـل قصـد عبـود "الشـمالي" الأضرار بأهلـه إلى هـذا الحـد؟

مسألة معالجة السكن العشوائي:

كانـت مسـألة معالجـة السـكن العشـوائي حـاضرة في سـياق التفسـير العرقـي للوقائـع . وكمثـال ، ننظـر قـول د. أبكـر آدم اسـماعيل (أمـا تجليـات القضيـة في السـكن وتركيـب المـدن السـودانية فواضـح للعيـان. وزيـارة واحـدة إلى الأحيـاء الراقيـة ذات الطوابـق وأخـرى للغيتوهـات Ghettos أي الاحيـاء الشـعبية جـدا تكفـي للتأكـد مـن الأزمـة ، وتغنـي عـن المجـادلات. ومـن أمثلـة ذلـك ،التوجهـات المنحـازة مـن قبـل الدولـة عندمـا تـم ترحيـل كرتـون شـمبات إلى الحـاج يوسـف الجديـدة. فقـد قسـمت الاراضي ووزعـت إلى أسر كبـيرة وأسر صغـيرة ، ودرجـة رابعـة فيمـا سـمي بالوحـدة الوطنيـة. وهـذه واحـدة مـن الترميـزات التضليليـة ، إذ

كان التقسيم في الواقع قائم على أسس عرقية وجهوية. فاحتل أبناء المناطق المهمشة _ الزنوج والبقارة _ الذين هم في الواقع الأسر الكبيرة بالمعيار العددي ٢٠٠ متر مربع، والتي تخلو من خدمات الكهرباء والماء ، بينما وزعت منازل الأسر الكبيرة ، وغالبية الأسر الصغيرة _ الأوسع والافضل والمزودة بخدمات الكهرباء والماء لأناس آخرين ذوي أصول عرقية وجهوية مختلفة). [١٧٤]

بادئ ذي بدء ، يصح القول أن خطط استحقاق الاراضي السكنية في السودان كانت ، ومازالت ، تحوي أوجه قصور عديدة. فمثلا ، يعتمد الاستحقاق على عدد الدرجات التي يحصل عليها طالب السكن ، وهذا أمر جيد. لكنها بدورها تعتمد على الزوجة وعدد الأبناء. وهو شرط قد لا تبدو فيه مشكلة ، أما الواقع فيؤكد أن ثمة إشكالات . فالمتزوج تزيد فرصه عن غير المتزوج ، الذي قد لا تكون له يد في عدم الزواج (خاصة الإناث اللواتي ينتظرن من يختارهن) حيث تصعب الشروط عليهم سبيل نيل سكنهم. والمتزوجون المرزوقون بالاولاد تزيد فرصهم عن الأزواج الذين لم يرزقوا ، كذلك ، لسبب لا يد لهم فيه. وحالات أخرى مشابهة. فهنا يبدو الأمر كأنه عقاب على عدم الزواج ، أو عقوبة على الافتقار إلى الأبناء. والصحيح ، في رأي المتواضع ، هو إستحقاق كل من بلغ سنا معينة تخرجه عن ولاية والديه (حتى الإناث غير المتزوجات التي تقضي الأعراف ببقائهن في بيت ابائهن) وسبب العطاء كونه حق دستوري مؤسس على المساواة. فرب الأسرة المرزوق بالاولاد من حقه الظل ، ورب الأسرة المفتقر إلى الأبناء من حقه الظل، وغير المتزوج من حقه الظل! لذا ، يفترض إثبات حقوقهم بموجب الجنسية السودانية عند بلوغ سن محددة ، لا اعتبارهم معالجات خاصة. كما أنه ليس هناك مبرر اساسا لعدم استحقاق سوداني قطعة أرض يسكنها ، في وطن مساحته بهذا الشسوع!

---

١٧٤ ـ د. أبكر آدم اسماعيل ، الديمقراطية واشكال الهوية. ص ٥٤_٥٥.

وكذلك ، يفترض تساوي الاستحقاق من حيث عدد الامتار المربعة. فليس هناك مبرر لاستحقاق سوداني عددا أكثر من الأمتار المربعة من غيره. فالناس متساوون في الحقوق والواجبات. وبالتالي ، يستحق الجميع ذات القدر من المساحة. واذا ارادت الادارة اسكان ذوي الدخل المرتفع مع بعضهم ، أو أي مجموعة على أسس عادلة ، فلا بأس ، بشرط اعطائهم المساحة ذاتها.واذا ارادوا زيادة عليها أن يكون ذلك بسعر حقيقي يعود للدولة. أما إعطاء الفقير مساحة أقل ، فتبدو عقوبة على الفقر، لا مبرر لها! وهي عقوبة مستمرة ، حين تلحق بالاولاد ، فعندما يكبروا يصعب عليهم إيجاد سكن في تلك المساحة الصغيرة ، بينما يتوسع أولاد مستحقي المساحة الأكبر كيفما شاؤوا ، حيث يمكنهم البناء رأسيا ، حتى دون أن يكلفوا أنفسهم دفع مال: فإذا كانت المساحة ٥٠٠م م مثلاً ، فإن بيع ٢٠٠م م منها يفي بالغرض. أما الفقير الذي أعطي ٢٠٠م م ابتداء ، ماذا يفعل اذا اراد التوسع رأسيا ؟! من الواضح ، أنه كان قد غمط حقه، وعوقب على فقره!

مثل هذه الماخذ على قوانين توزيع الأراضي كثيرة ، وهي من أوجه القصور التشريعي أو الإداري ، وتخضع لعلاجات متخصصة ، لا علاقة لها بالعرقية ، وقد كانت بتضييقها سبل الحصول على المسكن ، عاملا أساسياً في بروز ظاهرة السكن العشوائي من ناحية ، وتناميها من ناحية أخرى ، خاصة في عاصمة البلاد. لقد أدت تغييرات اجتماعية واقتصادية وسياسية وبيئية إلى هذه الظاهرة. والتي يبدو تأثير إلغاء تجارة الرق فيها بارزا. فقد كان من إخفاقات حكومة السودان في عهد الحكم الثنائي ، بعد تحرير الرقيق ، تركه يهيم على وجهه ليسكن في تجمعات خارج المدن.(*) وبعد الاستقلال نتيجة تغييرات اقتصادية هائلة ،بسبب إنشاء مزيد من المصانع والمؤسسات الاقتصادية الراغبة في الأيدي العاملة ، بجانب تنامي الوعي بشان

أهميـة التعليـم ، وأسـباب أخـرى عديـدة جميعها سـاهمت في زيـادة التدفق السـكاني نحـو المـدن عمومـاً ، والعاصمـة خصوصـا.وكان لحـرب الجنـوب نصيبهـا الوافـر في رفـد المـدن بمزيـد مـن السـكان. وادى كذلـك الجفـاف الـذي بـدأت ملامحـه منـذ أواخـر الخمسـينيات تطـل بعنقهـا. ومـا أن لاحـت السـبعينيات حتـى كانـت لمجاعـة سـنوات ٧٠ _ ١٩٧٤م زخـم كبـير في تنزيـح اعـداد كبـيرة مـن الغـرب نحـو العاصمـة الخرطـوم. وقـد أدت كل هـذه الأسـباب إلى تمـدد السـكن العشـوائي حـول العاصمـة التـي كانـت تمتلـك بنيـة تحتيـة ضعيفـة لا تكفـي سـكانها الاوائـل ، فتضاعفـت أعدادهـم بمسـتويات دراميـة.

ثـم جـاء مطلـع عقـد الثمانينيـات (حيـث قـادت الحـرب في الجنـوب ، وانعـدام الاسـتقرار الأمنـي في الغـرب والجفـاف السـاحلي الـذي بلـغ ذروتـه في مجاعـات سـادت العديـد مـن الانحـاء خـلال ١٩٨٣م. إلى نـزوح واسـع للسـكان مـن الريـف إلى المناطـق الحضريـة. وقـد تلقـت الخرطـوم نصيـب الأسـد مـن هـؤلاء البـدو والمزارعـين التقليديـين النازحـين لأسـباب اقتصاديـة . بالإضافـة للأعـداد الكبـيرة اللاجئـة مـن الجنـوب بسـبب الحـرب. وبينمـا كان محـور الشرق/الغـرب لانتقـال السـكان كعمـال أُجـراء مقبـولاً باعتبارهـا هجـرة معتـادة طالمـا كان هدفهـا مثلـث الخرطوم/كوستي/سـنار المتطـور نسـبيا. نظـر للهجـرة الأخـيرة الواسـعة للسـكان الريفيـين للمناطـق الحضريـة بحـذر ، ولذلـك أسـبابه ، لأنـه كابـوس لأي حكومـة أن تتعامـل مـع مـا يقـدر بسـتة ملايـين يشـكلون سـكان العاصمـة ، وآلاف العشـوائيات المتناميـة حولهـا ، في حـين تعجـز عـن الحفـاظ عـلى البنيـة التحتيـة الحضريـة الأساسـية التـي كانـت تخـدم ٣٥٠ ألـف نسـمة فقـط في الثمانينيـات بسـبب تكلفـة الحـرب والافـلاس الاقتصـادي العـام. بينمـا كانـت الممارسـة الشـائعة في ظـل حكـم نمـيري هـي المعالجـة الفظـة المسـماة بالكشـة ، أي الاعتقـال والترحيـل. تصرفـت الحكومـات الائتلافيـة في ظـل الديمقراطيـة الثالثة ٨٦ _ ١٩٨٩م. وكأنمـا المشـكلة غـير موجـودة).[١٧٥]

---

١٧٥ - د. شريف حرير/د.تيرجي تفيدت،السودان النهضة أو الانهيار..ص ١٧.

ويمـضي المؤلفان(حريـر ـ تيرجـي) إلى قـول (إن آلاف النازحـين الذيـن يقطنـون الاحيـاء الحضريـة البائسـة في الخرطـوم هـم أول مـن عانـى مـن التحـركات المبـاشرة للجيـش وقـوات الأمـن عندمـا طـردوا وازيلـت منازلهـم قـسراً)[١٧٦]. ويعضـد ذلـك ، مـا كتبـه د. أبكـر آدم اسـماعيل (أمـا فيمـا يتعلـق بمـا يسـمى بالسـكن العشـوائي. فبالرغـم مـن أن معظم الأحيـاء السـكنية في العاصمـة مثـلاً غـير مخططـة وينطبـق عليهـا عمليـا تعريـف السـكن العشـوائي ، إلا أن التكسـير طـال غالبـاً المناطـق التـي يسـكنها أبنـاء المناطـق والكيانـات المهمشـة بالدرجـة الأولى. وبطريقـة مهينـة وبـدون تعويضـات عـن الخسـائر الماديـة. في الوقـت الـذي تـترك فيـه مناطـق أخـرى تنطبـق عليهـا كل المعايـير الموضوعيـة. لا لسـبب ، إلا الأصـول العرقيـة والجهويـة لقاطنيهـا) [١٧٧].

في ثقـة اعتقـد أن سـبب الإزالـة لـم يكـن عرقيـا ، كمـا فهـم كثـيرون. وانمـا كان لإعـادة التخطيـط، وكـذا فـرض الأمـن. فقـد سـكن اولئـك النازحـون في الأطـراف ، وكانـوا أفـرادا مـن بيئـات وثقافـات مختلفـة أدت إلى أشـكال أمنـي. فرغـم أن معظـم سـكان هـذه المناطـق طيبون مسـالمون إلا أن المجرمـين اسـتغلوا بيئتهـا العشـوائية. فقـد بـرزت الجريمـة بصـورة لافتـة وسـط هـذا المجتمـع الجديـد. ولا يرجـع ذلـك إلى أسـباب عرقيـة كما درج البسـطاء في إلاشـاعة لـه. وانمـا يعـود لأسـباب موضوعيـة ، تمثلـت في غيـاب السـلطة الأهليـة مـن ناحيـة ، وغيـاب السـلطة الحكوميـة مـن ناحيـة أخـرى. فالنـاس كانـوا ، آنـذاك ، قبائـل وعشـائر تخضـع لكبيرهـا ، وبالطبـع ، أدى النـزوح إلى فقـد هـذه القيـادة ، فهـذه العشـوائيات يقطنهـا أفـراد مـن قبائـل مختلفـة ، وهـذه القبائـل المختلفـة لـن تخضـع لزعيـم قبيلـة اخـرى. ولـئن تأملنـا حـال القـرى المحيطـة بالعاصمـة نجدهـا تشـبه إلى حـد كبـير السـكن العشـوائي مـن حيـث عشـوائية المبانـي، ومـع ذلـك تنـدر في محيطهـا الجرائـم، فهـل يعـود ذلـك إلى الناحيـة العرقيـة؟!

---

١٧٦ ـ المرجع السابق. ص.١٩.

١٧٧ ـ د.ابكر ادم اسماعيل. الديمقراطية واشكال الهوية. ص٥٥.

كلا ، وانما يرجع إلى أسباب موضوعية، تتمثل في وجود إدارتها الأهلية ، ففي الغالب ، نجد أن كل قرية تسكنها قبيلة واحدة ، وتكون السيطرة لكبيرها. وهو ما يفتقد في العشوائي. والمؤكد أنه إذا كان قد وضع سكان هذه القرى ، في نفس الظروف التي يعيشها سكان العشوائيات ، لخرجوا بذات النتيجة ، حيث أن المسألة موضوعية لا عرقية!

لقد وجدت الحكومة أن فرض النظام على أهل العشوائيات لن يحدث مالم يعاد تخطيطها. فالجريمة التي رافقت كثيرا منها ، يصعب احتواؤها مالم تخطط وتتضح معالمها. وقد أتت هذه الخطط أكلها ، فاليوم كثير من هذه العشوائيات غدت بيئة صالحة للسكن. ويكاد ينحسر معدل الجريمة إلى القدر الشائع في غيرها من المناطق. وهذه نعمة كبيرة لاهل الحي ، قبل غيرهم!

وفي سياق آخر ، قد يقارن البعض هذه العشوائيات بالقرى من حولها ، التي لم تخضع للإزالة أثناء إعادة التخطيط وانما اتبع فيها ما سمي بالتنظيم _ تنظيم القرى _ ولم تتكبد خسائر كبيرة في مبانيها جراء ذلك ، بينما تكبد سكان العشوائيات خسارة مساكنهم التي أزيلت . وقد يجادل البعض بأن ثمة عرقية أفضت إلى ذلك ، وهو قول وان بدا وجيها لأول وهلة ، إلا أنه لا يخلو من نظر. فكثير من هذه القرى قديمة جدا ، قد يعود تاريخ بعضها إلى ما قبل اختيار الخرطوم عاصمة للبلاد(*) أي أنه يصعب توصيفها قانوناً بالعشوائية ، وإلا انطبق ذلك على كثير من القرى السودانية ، وهو ما لا يقبله عقل.

أما القول إن سكان هذه العشوائيات قد أزيلت مساكنهم وطردوا ، دون أي تعويض ، فقول يكذبه ظاهر الحال . حيث أن مئات الآلاف من المساكن كان قد تم تمليكها لهؤلاء النازحين _ خاصة في عهد

الإنقـاذ- حـول العاصمـة والمـدن الأخـرى. ومعلـوم أن الإزالـة نفسـها يحكمهـا قانـون ، ولا تـزال المسـاكن قبـل بحـث اشـكالاتها. كمـا أن بعضـاً مـن سـكان هـذه المناطـق يخلقـون أزمـة حقيقيـة حينمـا يشـكلون عصابـات مـع بعـض الموظفـين الفاسـدين ، وينتـج عـن ذلـك ظلـم لفئـات مـن السـكان. فمثـل هـذه الأمـور تـؤدي إلى خسـارة هـذه الفئـات لمسـاكنهم وغـير ذلـك مـن أحـداث ، لكنهـا لا علاقـة لهـا بالعرقيـة ، وانمـا تعـود لعقليـة المسـتعمرالزنجي ، التـي تجـد في كل شيء "غنيمـة" . ولـولا خـروج ذلـك عـن نطـاق هـذه الدراسـة المتواضعـة ، لتوسـعنا في كشـف عقليـة الباشـبوزق في مسـألة الأراضي!

أمـا القـول بـأن عـدم تعويـض مـن كـسرت مسـاكنهم قـسرا لـم يكـن إلا بسـبب (الأصـول العرقيـة والجهويـة لقاطنيهـا) فمنطـق خاطـئ. فقـد درجت السـلطة عـلى غمـط أصحـاب حقـوق أوضح مـن سـاكني المناطـق العشـوائية. حقـوق أوضـح بكثـير ، مثـل متـضرري حـرب الخليـج اغسـطس/ ١٩٩٠م. فرغـم أن الأمـم المتحـدة كانـت قـد أرسـلت أمـوالا لمواطنـين سـودانيين _ مـن مختلـف القبائـل _ باسـمائهم وبياناتهـم الشـخصية ، وتسـلمتها الحكومـة البائـدة كامانـات إلا أن عـدداً معتـبرا مـن هـؤلاء البائسـين لـم يسـتلم تعويضه حتـى اليـوم! واكتفـي بنمـوذج اخـر وهـو الـضرر الواقـع عـلى الأجهـزة بفعل الـتردد الكهربائـي. هـل درجـت الحكومـة عـلى تعويـض الأضرار ؟! وكـذا آلاف الأضرار التـي وقعـت عـلى أمـوال مواطنـين سـودانيين مـن كل الأعـراق لـم يعوضـوا عنهـا ، وهـذه مجـرد نمـاذج يسـيرة ، هـي أبلـغ دليـل عـلى أن عـدم دفـع تعويضـات لسـكان العشـوائيات لـم يكـن بدوافـع عرقيـة.

ومهمـا يكـن ، لا يعـد تبريـري هـذا دفاعـا عـن هـذا السـلوك الظالـم مـن قبـل الحكومـة ، فهـي أولى برفـع المظالـم مـن غيرهـا ، لكنـه يقـدم قـراءة ، اعتقـد انهـا الاصـوب ، واللـه اعلـم!

وفي السـياق ذاتـه ، كان في هـدم المسـاكن وإعـادة تخطيطهـا خـير عميم،

لا يتسق ابداً وفرضية العرقية أو الجهوية. فالصحيح ، من حيث التخطيط ، أن تزال المساكن العشوائية ، ثم يعاد تخطيط المساحة الخالية وفق كافة معايير التخطيط الهندسية ، ومن ثم توزيعها ، لنحصل على مدينة مصغرة ، تحوي كافة الخدمات ، أو أغلبها ، أو على الأقل ، قدرا معقولا منها. وهو ما حدث في هذه المناطق التي خضعت لعملية الإزالة. فإذا أخذنا كرتون كسلا كأنموذج للإزالة وإعادة التخطيط _ تغير اسمه لحي البركة _ نجد شوارعه مستقيمة تماماً ، لدرجة خلوه من أي شارع متعرج. كما نجد أن تخطيط المساحة راعي كل التصورات: استغلت مساحات كثيرة وكبيرة أنشئت فيها مدارس ،وهناك مساحات لمؤسسات صحية ، واسواق مخططة ، وعشرات دور العبادة التي شجع تخطيطها الهندسي ، وشهادة بحثها على تمويل بنائها من قبل خيرين في الداخل والخارج. وهناك استاد رياضي ، لا يوجد مثله ، على حد علمي ، في معظم أنحاء المحافظة، وغيرها من مرافق خدمية. بل وهناك وحدة شرطية رئيسة لحفظ الأمن في المحافظة كلها تتوسط عماراتها كرتون كسلا ، فضلا عن وجود طرق مسفلته ، وغير ذلك من عمران.

فضلا عن ذلك ، أدت تلك المعايير الهندسية الرفيعة إلى تشجيع الناس على البناء ، واليوم قد لا يعرف كثيرون أن عشرات المباني المتعددة الطوابق قد أنشئت في حي البركه ، أو كرتون كسلا سابقا. واليوم يعد مستوى نموه الأعلى بالنسبة للمناطق التي نفذ فيها تنظيم القرى ولم تهد ، أو تزال ، قبل إعادة تخطيطها. لماذا؟! لأن عدم خضوعها للمعايير الهندسية التخطيطية ، قيد قدرة إدارة التخطيط ، إذ كيف تخطط منطقة مزدحمة بالمباني العشوائية ؟! لذا ، لم يكن أمامهم سوى تنظيمها من الخارج ، أي فتح شوارعها على نحو متعرج غالبا، مع الاجتهاد لإخلاء مساحة صغيرة هنا وهناك للضروري جداً من الخدمات (غالباً المساجد). وما عدا ذلك ، ينـدر وجود الساحات

أو الميادين ، ويمكن القول باطمئنان ، أنه لا توجد منطقة واحدة من القرى التي نفذ فيها تنظيم القرى ، تمتلك مزايا ومميزات كرتون كسلا التخطيطية! فمثلا ، لن يجد أهل الحي صعوبة ، مستقبلاً ، في الارتباط بشبكة الصرف الصحي ، أو شبكة توزيع الغاز ، أو شبكة المياه ، أو أي من الشبكات المنظورة. لأنها جميعا ، أخذت في الاعتبار حينما كان يتعامل المهندسون مع "ارض خلا" ، عكس القرى التي تم "تنظيمها" فقط. وعليه ، عند امعان النظر ، يصعب على المرء تقبل ما قال به اخوتي المحترمون الدكتوران أبكر وحرير حول عرقية الأمر!

في الواقع ، لم يكن كرتون شمبات أول حالة توزع لسكانه مساحة ٢٠٠ متر مربع. حيث أن هناك حالات عديدة لمساكن وزعت بهذه المساحة منذ عهد الإنجليز. ، كما أن المساحة التي وزعت عليهم ، مع صغر حجمها ، كانت أفضل حالاً من سكناهم في كرتون شمبات ، فقد كان كثير من الناس يسكن في غرفة واحدة مع أولاده. مع ظروف بيئية سيئة للغاية. وقيل كذلك ، أن سبب توزيع مساحة ال٢٠٠م م يعود إلى اعتراض أحد زعماء كرتون شمبات ، لسوء فهمه الأمر ، إذ كان يظن أن ال٢٠٠ متر هي طول القطعة الواحدة ، فاحتج قائلا :"اننا لن نستطيع بناء قطعة بهذا الحجم!" على كل ، لا أميل إلى تصديق هذه الرواية ، لشبهة الغواية ، ولأن مثل سوء الفهم ذاك كان أولى بالازالة!

أما فيما يتعلق بالاحياء "الراقية"ذوات الطبقات ، فليست بالضرورة أن يكون أساسها عرقيا. نعم ، اتفق مع القول بأن احتكار السلطة من قبل الشمال ، قد نتج عنه تغول على الاراضي من الدرجة الأولى، الثانية ، والثالثة بقدر أقل. لكن اختصار المسألة على هذا النحو يبدو مخلا ، وشديد الاجحاف. إذ أن هناك ، من الشماليين ، من اجتهد في الداخل أو الخارج ، لتنعم أسرته بسكن راق. وبالمقابل ، هناك ، من

الغرابـة ، مـن يسـكن في هـذه الأحيـاء "الراقية"فمـا التوصيـف المناسـب لحالتهـم!؟

فضـلاً عـن ذلـك ، ثمـة زاويـة منزويـة عـن الناظـر ، وهـي مسـألة الفـارق الثقـافي فيمـا يتعلـق بامتـلاك الأرض* . والمقصـود مـدى فهـم أهميـة وقيمـة الأرض مـن وجهـة نظـر الشـمالي والغرابـي آنـذاك _ خـلال الخمسـينيات السـتينات والسـبعينيات _ وفي ذلـك ، لا اتـردد في التصريـح بـأن ثمـة اختـلاف ثقـافي كبـير ، فيمـا مـضى ، بـين فهـم الفئتـين . إذ يبـدو أنـه كان لـلأرض قيمـة أكـبر عنـد الشـمالي ممـا هـي عنـد الغرابـي. ومـرد ذلـك اختـلاف بيئـات ، وليـس اختـلاف أعـراق. فمعلـوم أن الشـمال _ حتـى الدلتـا _ فقـير مـن حيـث الأرض ، مقارنـة بالغـرب ، سـواء للسـكن او الزراعـة اوالرعـي. وادى ذلـك إلى صعوبـة الحصـول عليهـا كملكيـة خاصـة، ومـا يسـتتبع هـذا مـن تبعـات اجتماعيـة ، فمالـك الأطيـان يحظـى بمكانـة رفيعـة ، حتـى ليبـدو كأن قـدر الإنسـان بقـدر الأطيـان ، ويشـمل ذلـك عليـة القـوم ، لـذا ، تجـد أن مـن عظيـم السـخرية ،عـلى طـول الشريـط النيـلي حتـى الدلتـا ، وصـف أحدهـم بأنـه "عمـدة بـلا اطيـان"! وقـد نتـج عـن هـذا، ادراك عميـق لقيمـة الأرض وأهميـة تملكهـا.

وفي السـياق ذاتـه ، فـإن وفـرة الأرض الصالحـة للزراعـة ، والسـكن ، والرعـي في غـرب السـودان ، أدت إلى نتيجـة مختلفـة ، شـكلت فهـم الغرابي ، فيمـا يتعلـق بقيمـة الأرض وأهميتهـا كملكيـة خاصـة. فمعلـوم أن ملكيـة الأرض تكـون ، غالبـاً ، عـلى الشـيوع: فالسـكن ، الـزرع ، والمرعـى جميعـا تتملكهـا القبيلـة. وبالتـالي ، حيثمـا اراد الفـرد السـكن او الـزرع أو الرعى فـلا صعوبـة في ذلـك ، بـل كل مـا عليـه هـو فعـل ذلـك! وكانـت النتيجـة المبـاشرة ازدرائـه لقيمـة الأرض وأهميتهـا. مـازال بعـض كبـار السـن ممن سـكنوا الخرطـوم باكـراً يتذكـرون تعجـب ذويهـم الواصلـين تـوا مـن الغـرب مـن فكـرة بيـع وشراء الأرض. وكان السـؤال في الغالـب اسـتنكاريا مـن شـاكلة : "واطـة كمـان بشـتروا؟!". أو "أرض كيفـن ببيعـوا؟!"......

إلـخ! وحتـى اليــوم ، يذكـر كثـير مــن المســنين الخرطوميــين ، في حــسرة ، كيـف عرضـت عليهـم أراض ، هنـا وهنـاك ، في مواقــع تمثـل اليــوم ثــروة ، واعرضــوا عنهــا ، وهــم قادريــن!

وممــا يجــدر ذكــره ، أن الركــون إلى التفســير العرقــي أعــاق قــدرة الغرابــه فيمــا يتعلــق بتملــك الأرض. فمــن المحــزن ، أنــه في الوقــت الــذي كان بعــض كبــار الزعمــاء السياســيين للغرابــة ، خــلال نــدوات جماهيريــة ، يكيلــون الانتقــاد لســكنى الشــماليين في تلــك الأحيــاء الراقيــة ، كانــت المنطقــة المحيطــة بكرتــون كســلا عبــارة عــن قطــع ســكنية خاليــه مــن البنــاء ، وهــي نفســها أحيــاء راقيــه تنتظــر التعمــير. ويبــدو أنــه كان قــد فــات عليهــم أن يفطنــوا ، إلى أنــه كان يمكنهــم عــبر خطــة بســيطة جــداً جعــل مــن يخاطبونهــم ، مــلاكا لمثــل هــذه الأحيــاء الراقيــة. فقــط إذا اعملــوا فكرهــم للبنــاء ، بــدلا عــن الهــدم!

فمــن يصــدق أن الاحيــاء الراقيــة ، التــي تحيــط اليــوم بكرتــون كســلا _ حــي البركــه _ كانــت وقــت انعقــاد تلــك النــدوات التحريضيــة زهيــدة الثمــن بشــكل لا يصــدق! كان ســعرها اقــل مــن ســعر تلاجــة أو ربمــا تلفــاز! وبــدلا ، عــن تلــك الخطــب النــاريــة ، كان يمكنهــم بقليــل مــن الغضــب وكثــير مــن التعقــل ، في هــدوء حثهــم عــلى الــشراء ، وان اشــتركوا كل عــشرة في قطعــة واحــدة ، وبتكــرار العمليــة بــين حــين وآخــر ســيتملك كل منهــم قطعتــه الخاصــة. فمهمــا كان فقرهــم كان الأمــر ميســورا بذلــك الســعر الزهيــد ، وذلــك التعــاون عــلى الــشراء. ولــئن فعلــوا لكانــوا قــد اصبحــوا مــلاكا في هــذه الاحيــاء الراقيــة ولغــادروا تلــك "الغيتوهــات"!

وذات الأمــر ينطبــق عــلى كثــير مــن المناطــق حــول العاصمــة ، التــي كانــت آنــذاك _ في الســتينيات ، الســبعينيات ، الثمانينــات ، وحتــى التســعينيات_ زهيــدة الثمــن بشــكل لا يصــدق!

والغريــب ، أن مثــل هــذه الفــرص كانــت ومازالــت ، متاحــة. فاليــوم ،

تجد قطعة أرض من الدرجة الأولى في ضواحي الخرطوم بما يعادل خمسمائة دولار ، أو أكثر قليلا! هناك في مناطق عديدة : الخطة الاسكانية الخوجلاب، الوادي الاخضر وغيرها. توجد _ الآن _ مثل هذه الفرص ، ولكن ، قليل من يقدرها حق قدرها ، وعندما يشتريها سواه ، وبعد سنوات يتحسن حاله ، يخرج إلى الناس من يكثر الصياح حول أصل وفصل ثرواتهم المشبوهة!

وما يجدر ذكره ، أن السلوك أعلاه _ إهدار الفرص والتباكي فيما بعد_ يشترك فيه معظم السودانيين ، وإن اختلفت أوجه الاشتراك فقد كانت منطقة كافوري قبل خمس وعشرين سنة زهيدة الثمن، مقارنة بثمنها اليوم. وبدلا من الشراء من قبل الفقراء ، وأشباه الفقراء ممن حولها ، كانت محل ازدرائهم (ما بين متندر ومستهزئ) ولكن سرعان ماانقلب ذلك إلى حسرة مؤلمة.

ويمكن اختزال مسألة مفهوم النجاح في المنافسة لدينا : والذي لا يعني الاجتهاد في اللحاق بالمنافس والتقدم عليه ، وانما يعني فهما أشد بساطة ، وهو إعاقته عن التقدم ابتداء!

---

* أدى تدني الوعي الثقافي المتعلق بقيمة الارض لدى كثير من القبائل المستوطنة حول العاصمة قبل إنشائها ، إلى تضييعهم فرص تملك الأراضي القيمة في قلبها. فمثلا ، كان يمكن للبطاحين ، رفاعه ، الفتيحاب وغيرها تملك قلب العاصمة المثلثة. لكن ، ”عقليتها الاحتقارية“ - لقيمة أرض المدينة - جعلتها لا تكترث وانتهز الشماليون الفرصة وتملكوا. مثلا ، جاء المحس من الشمال البعيد ليتملكوا ما حول المقرن وتوتي ، بينما كانت رفاعه والفتيحاب تنظر إليهم!

٠٣ الكشة

ومما نال حظه من التفسير العرقي كان ظاهرة الكشة في عهد الرئيس النميري. والكشة كانت إجراء تقوم الحكومة بموجبه بالقبض على المواطنين ، خاصة من غرب السودان ، وفي حال لم تكن لديهم مستندات تؤكد سودانيتهم ، كان يقبض عليهم ويوضعوا في مراكز إعتقال بالغة السوء ، ومن بعد يرحلوا خارج العاصمة إلى اقاليمهم مرة أخرى. وقد نتج عن ذلك انتهاكات مريعة لحقوق الإنسان ، ولا جدال في أن الفئة التي كانت مستهدفة من هذا الإجراء ، بالدرجة الأولى ، كانوا الغرابة. يقول د.شريف حرير فيما يتعلق بمعالجة النميري لتكدس العاصمة بالسكن العشوائي (بينما كانت الممارسة الشائعة في ظل حكم نميري هي المعالجة الفظة المسماة بالكشة ، أي الاعتقال والترحيل. تصرفت الحكومات الائتلافية في ظل الديمقراطية الثالثة ٨٦ _ ١٩٨٩م. وكأنما المشكلة غير موجودة) [١٧٨].. وعلى المنحى ذاته يتجه د. أبكر آدم اسماعيل (ويتجلى تحيز الدولة على الأساس العرقي ، في ظاهرة الكشات ، خاصة في أيام النميري. حيث كان يتم القبض على المواطنين السود وترحيلهم عراة ، إلا من سراويلهم الداخلية بحجة تفريغ المدن من المتبطلين) [١٧٩].

قراءة أخرى لظاهرة الكشة:

مما لا شك فيه ، أن الكشة لم تكن موضع ترحيب من قبل معظم السودانيين ، فهناك كثيرون نددوا بها على قدر مقامهم ، لكن ، من كان يجرؤ على اعتراض رجلً تسمى في مطلع القرن الخامس

---

١٧٨ ـ د. شريف حرير/د.تيرجي تفيديف ، السودان النهضة أو الانهيار.. ص ١٧.

١٧٩ ـ د.ابكر ادم اسماعيل ، الديمقراطية واشكال الهوية. ص٥٥.

عـشر الهجـري ، بلقـب "امـير المؤمنـين"؟! في الواقـع ، لـم يكـن ، حينـذاك ، مـن أحـد يجـرؤ عـلى الاعـتراض الا أولـو العـزم مـن الرجـال. دع عنـك الكشـة ومـا ادراك مـا هـي ، ولننظـر إلى مسـألة قوانـين سـبتمبر التـي تبـارى فرسـان الحوبـة ، بعـد سـقوط نمـيري ، في ادانتهـا بلسـان ذرب فصيـح ، ولفـظ صريـح. ولنسـأل كـم نفـر فعـل مثـل ذلـك عندمـا كان "اب عـاج دراج المحـن" مـازال ممسـكا عصاتـه؟! يتحـسر الفـارس النبيـل د. منصـور خالـد ، وكأنـي بـه يتنهـد حـين يقـول (وكنـا يومـذاك نشـهد رجـالاً مـن أربـاب الفصاحـة والنهـي ، يقولـون في هـذه القوانـين مـا قـال مالـك في الخمـر ، في مجالسـهم الخاصـة ، ويصمتـون كالتماثيـل في المنابـر العامـة ، حيـث الحديـث واجـب... وكان مـن بـين هـؤلاء الوزيـر ، والمديـر ، والنائـب ، والقانونـي الضليـع. ومـا كان ذلـك الصمـت الا خشـية مـن غلـواء المهووسـين ممـا حملنـا عـلي المجابهـة الكاويـة لمغالطـات الواقـع عنـد البعـض ، والدجـل بإسـم الديـن عنـد البعـض الآخـر). [١٨٠].

عنـد النظـر بحيـاد إلى ظاهـرة الكشـة ، لابـد مـن اسـتصحاب حـدة الـصراع السـياسي آنـذاك ، قبـل التقريـر في شـأن عرقيـة الظاهـرة.وفي ذلـك يمكـن القـول إن بـروز الكيانـات الجهويـة عقـب ثـورة أكتوبـر ، كان لـه آثـار وخيمـة عـلى مجتمـع إقليـم دارفـور. أولا ، وعـلى السـودان ثانيـاً ،حيـث تمـت تعبئتهـا ضـد حكومـة المركـز . ورغـم حصـول دارفـور عـلى ٢٤ نائبـا برلمانيـا ، في انتخابـات ١٩٦٥م.الا أن ذلـك لـم يطـف نـار الغضب في النفـوس. ففـي العـام ١٩٦٥ _ ١٩٦٦م. تـم تأسـيس منظمـة سـوني العسـكرية وذلـك بـين القيـادة الغربيـة في الفـاشر ، نيـالا ، وواو. وقـد تورطـت في تمـرد عسـكري داخـل مركـز الفرقـة _ لأسـباب يرونهـا وجيهة في نظرهـم _ وأدى ذلـك الى زعزعـة شـديدة داخـل المؤسسـة العسـكرية ، انتهـى بفصـل وتشريـد كثـير مـن أبناءالغرب[١٨١].ومـن ناحيـة أخـرى ، بعـد عـشرة سـنوات ، ونتيجـة لفـوز الجنوبيـين بحـق الحكـم الذاتـي

---

١٨٠ ـ د.منصور خالد ، الفجر الكاذب. ص ٧.

١٨١ ـ د تكنه ، دارفور صراع السلطة والموارد.ص ١٠٠ ـ ١٠٢.

، استناداً إلى اتفاقية أديس أبابا ، شعر كثير من الغرابة بالاستياء من أهمال الخرطوم لغرب السودان (وفي عصر يوم الخميس ٥ / سبتمبر / ١٩٧٥م. قاد العقيد حسن حسين محاولة انقلابية للمظليين الساخطين الذين كان معظمهم من اولاد الغرب المستائين من اهمال الخرطوم لغرب السودان) (١٨٢).ورغم ورغم سحق الانقلاب سريعاً إلا أنه كان قد نجح في اعتقال بعض كبار القادة ، وتمكن من اقتحام الإذاعة ، وإذاعة بيان بأن النميري رهن الاعتقال لديهم (لم يكن ذلك صحيحا) (١٨٣). ومع فشل الانقلاب إلا أن ذلك ، لاشك ، كان قد ادخل النميري في نفق الخوف والرعب من المجهول!

وبالفعل كان المجهول مرعبا ، ففي فجر الخميس ٢ / يوليو / ١٩٧٦م. كان النميري عائدا من زيارة له إلى الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا . وبعد مراسم الاستقبال ، في تمام الساعة الخامسة صباحاً ، اهتز المطار والعاصمة على السواء بوابل من المدفعية. وكان الاتصال مقطوعا بين وحدات الجيش ، مما اضطر وزير الإعلام ، بونا ملوال للاستعانة بإذاعة صغيرة في جوبا ، لبث رسائل النائب الأول اللواء محمد الباقر، عبر نيروبي لكافة وحدات الجيش على مستوى القطر. وتدفقت وحدات الجيش بعد ظهر الجمعة ، وكان الهجوم قد توقف. ولم يستطع الجيش سحق المقاومة تماماً الا بنهاية يوم السبت. وقد قتل عدد كبير من المواطنين البؤساء ، ودمرت كثير من الممتلكات. وقد اشترك في هذه المحاولة عدة أحزاب (حزب الأمة ، الحزب الوطني الاتحادي، الحزب الاتحادي الديمقراطي ، وجبهة الميثاق الاسلامي) إلا أن السواد الأعظم من هذه القوة كانوا من الأنصار ، وتحديدا من الغرابة(١٨٤).

١٨٢ - روبرت أو. كولنز، تاريخ السودان الحديث. ص١٥٣.
١٨٣ - نفس المرجع ، ص١٥٣.
١٨٤ - نفس المرجع ، ص ١٥٦.

إثــر انقــلاب محمــد نــور ســعد ، بعــد عــام تقريبــا ، إلتقــى النمــيري بالصــادق المهــدي ، في بورتســودان ، في يــوم ١٩٧٧/٧/٧م. ومــن بعــد ، عاد للســودان وكثــير مــن أنصــاره ، أثــر الاتفــاق المــبرم مــع النمــيري. ولكــن هــذا الاتفــاق لــم يصمــد طويــلا ، إذ خــرج الصــادق المهــدي مجــددا مــن البــلاد ، وعــادت الخصومــة إلى مجاريهــا! وعــلى ضــوء ذلــك ، وخوفــا مــن تكــرار تجربــة الانقلابــات ،التــي زعزعــت حكمــه مرتــين ، خــلال عــشرة شــهور، وبمــا يشــبه المعجــزات تمكــن مــن العــوده. وخوفــا مــن تكــرار هــذه التجــارب المؤلمــة ، ضيــق النمــيري عــلى أنصــار المهــدي المحتملــين. ولأن ملابســات انقــلاب ١٩٧٦م. كشــفت دورا بــارزا للخلايــا النائمــة ، افــترض أمــن النمــيري أن مــن لا يمتلكــون وثائــق ثبوتيــة هــم خلايــا نائمة ، أو عــلى الأقــل ، متبطلــين ، وفي كلا الحالــين ، يكــون وجودهــم في المــدن ، وخاصــة الخرطــوم ، غــير مرحــب بــه ، وذلــك انطلاقــا مــن الخصومــة السياســية لا العرقيــة.

٠٤الكيانات الجهوية

لحق التفسير العرقي/العنصري بالكيانات الجهوية ، حيث اعتبرت الجهوية شر مستطير ، حتى على المستوى الرسمي ، إذ كثير ما نسمع المذيع الرسمي لجهاز الحكومة الإعلامي يملأ شدقيه بعبارة رتيبة هي "نبذ الجهوية والقبلية" وأحيانا "نبذ الجهوية والعنصرية"! وبالتالي أدخلت الجهوية قسراً في نفق التفسيرات المثيرة للفرقة. فاليوم يكفي لدمغ خصم سياسي بوصف "جهوي" حتى ينفض سامره!

ربما كان ظهور المصطلح اول مرة ، والله اعلم ، بعد نشوء مؤتمر البجا الذي تأسس عام ١٩٥٨م. وكان له دور في تأسيس كياني "اتحاد جبال النوبة" و"جبهة نهضة دار فور" فيما بعد. وقد لعبت جميعا دورا بارزا خلال عهد الديمقراطية الثانية ، وقد رأى فيها كثيرون منغصا من منغصات تلك الفترة. يقول الأستاذ أحمد محمد شاموق :(ولم يقف الانفجار الجهوي على الجنوب فقط ، وانما برزت الجهوية بكل عنفوانها في الشارع السياسي متمثلة في اتحاد جبال النوبة ، ومؤتمر البجا ، وجبهة نهضة دارفور. وازدهرت الكيانات الجهوية والسياسية والاجتماعية ، وكانت إحدى المنغصات والمحبطات. بعد الثورة).[١٨٥]

بالمقابل ، رأى آخرون ، خاصة مما عرف بالهامش ، أن في تلك الأوصاف إهانة لكياناتهم الناهضة ، وان مصدر ذلك عنصرية مستترة. وممن ابانوا رؤاهم فيما يتعلق بذلك التوصيف د. شريف حرير ،

١٨٥ ـ احمد محمد شاموق الثورة الظافرة.. الطبعة الثالثة. ص٦

حيث كتب (عندما بدأت التجمعات القبلية وسط البجا والنوبة وأهل دارفور تظهر بسبب عدم كفاية الأحزاب الطائفية السائدة ، صنفت معظم هذه التجمعات بأنها عنصرية) (١٨٦). وعبر كذلك ، في موضع آخر (تصنف أي حركات سياسية جاءت من الأطراف باستقلال عن نخبة المركز ، وبغض النظر عن أهدافها السياسية النبيلة المعلنة بسرعة بوصفها حركة قبلية أو عنصرية ، وينظر إليها بريبة شديدة) (١٨٧). وعبر كذلك د.ابكر ادم اسماعيل (وكل مطالبة بعدالة اقتصادية للاقاليم المهمشة داعية للنشرزم وتفتيت وحدة الوطن. والجهة الوحيدة المصرح لها بالكلام هي الاعترافية الرسمية _ أي مركزية الذات الاسلاموعربية التي لا يتجاوز اعترافها الاعور الذي يسكت عن ممارساتها التاريخية ، تسويد اوراق المؤتمرات والدساتير والقوانين التي لا تساوي الحبر الذي تكتب به) (١٨٨).

وما قاله د. حرير ، ود. اسماعيل صحيح (*) ودليل صحة ذلك ما أورده الاستاذ شاموق أعلاه ، وما هو منتشر لا يحتاج إثبات ، خلال كتب ومراجع محترمة ، ناهيك عما وقر في نفوس ووسائل الإعلام وصدقته الجماهير. ولكن ، مع ذلك ، فإن اعتبار أن حساسية النخبة في المركز نابعة من توجه عرقي/عنصري خفي تفسير لا يسنده المنطق. حيث أن هناك أسباب موضوعية تجعل المطلع على تاريخ السودان الحديث متفهما لهذا التخوف من ناحية ، و مدركاً لأسباب الخلط من ناحية أخرى(جهوية ليست مرادفا لعرقية). وعلى العموم ، يمكن إيجاد تفسيرين داعمين للاعرقية ذلك التوصيف وتفهم حسن النية عند الخلط بين جهوية وعنصرية. وأول سبب يعود للصراع الدائر بين الطليعة والاستعمار ، خاصة بعد وأد حركة ١٩٢٤م. والسبب الثاني يعود إلى تخوف طائفة الفقهاء والأعيان_ السيدان _ من بروز جسم منافس في بيئاتهم الطبيعية التي احتكروها دهرا.

١٨٦ ـ د شريف حرير ، د. تيرجي تفيدت السودان. النهضة أو الانهيار.. ص ٤٦

١٨٧ ـ المرجع السابق. ص ٤٦

١٨٨ ـ د.ابكر ادم اسماعيل ، الديمقراطية واشكال الهوية.. ص ٥٩

الصراع بين الطليعة والاستعمار:

كان الثمـن الباهـظ الـذي تكبدتـه الحركـة الوطنيـة التـي تقودهـا الطليعـة بعـد حركـة ١٩٢٤م. هـو إعـراض المسـتعمر عنهـا باعتبارهـا وريثـا محتمـلاً للسـودان ، واتجاهـه في الوقـت ذاتـه نحـو الكيانـات القبليـة نافخـا فيهـا مـن روحـه. فقـد تسـارعت خطـاه منـذ مطلـع العشرينيـات لصياغـة مشروعيتهـا بـين الشـعب. وأثنـاء مراجعـة الادارة الاسـتعمارية لحركـة ١٩٢٤م بغـرض التقييـم ، عكفـت عـلى مراجعـة ملفاتهـا، وتوقفـت عنـد ملـف اجتمـاع مديـري المديريـات الشـمالية في ٢٠/٢/١٩٢٤م. والـذي كان ضمـن أجندتـه "السياسـه الإداريـة وموقـع السـودانيين فيهـا". ففـي هـذا الاجتمـاع حـذر مديـر بربـر مـن (عواقـب اقـدام الحكـم البريطانـي في السـودان عـلى تكـرار الأخطـاء التـي ارتكبهـا في الهنـد وفي مـصر ، "خلـق فئـة متعلمـة مـن السـودانيين تكـون في حالـة عـدم الرضـا") [١٨٩].ومـن أجـل دعـم الإدارة الأهليـة ، وتقويتهـا في مواجهـة المتعلمـين ، اصـدر البريطانيـون القوانـين اللازمـة التـي تمكـن الإدارة الأهليـة مـن فـرض سـلطتها عـلى عمـوم الشـعب ، وفي الوقـت ذاتـه تعمـل عـلى إبعـاد هـذا الشـعب عـن الطليعـة. فأصبحـت الإدارة الأهليـة تمثـل له كل شيء ، خاصـة في الريـف ، فهـي التـي تديـر اقتصـاده ، امنـه وحمايتـه ، ومحاسـبته ، وكل مـا يتعلـق بحياتـه. وبالطبـع ، اسـتفادت الحكومـة مـن هـذه الرابطـة القويـة في السـيطرة عـلى المجتمـع. وكان مـن وسـائل هـذه السـيطرة الاسـتفادة مـن خلافـات القبائـل لتفريـق كلمتهـا ، وهـو الشـئ الـذي فطـن إليـه جيـل المؤتمـر _ الطليعـة _ فوجـد أن اسـتخدام القبليـة كوسـيلة لإدارة البـلاد تـؤدي إلى زيـادة الشـقاق بـين مكوناتـه المختلفـة ، فقـر قرارهـم عـلى محاربتهـا مـن تلـك الوجهـة ، فكانـوا الـد أعدائهـا.

في مـرارة يذكـر خـضر حمـد شـيئا من ذلـك حيـث يقـول (تلـك التفرقة

---

١٨٩ ـ محمـد أبـو القاسـم حـاج حمـد. السـودان ، المـأزق التاريخـي وآفـاق المسـتقبل. «جدليـة التركيـب». المجلد الاول.الناشر/ دار ابـن حزم للطباعـة والنشر والتوزيـع. بيروت. الطبعـة الثانيـة ١٩٩٦م ، ص٣١٢ .

القبليـة التــي كان يحــرص الاســتعمار عليهــا حرصــه عــلى الاســتعمار نفســه. لقــد كان الإســتعمار حريصــاً عــلى أن ينمــي فينــا روح القبليــة. كمــا كان حريصــاً عــلى أن يلهــب الحمــاس لهــا والتعصــب اللعــين مــن أجلهــا بــين القبائــل. فكــم اثــار هــذه النعــرات وايقــظ الضغائــن التــي عفــى عليهــا الزمــن ، فهــذه القبيلــة التــي اغــارت عليهــا قبيلــة أخــرى يومــاً مــن الأيــام ، وســلبتها نحاســها ، يتقــدم إليهــا الحاكــم العــام ويهبهــا نحاســا جديــداً ويخطــب فيهــا قائــلا : انكــم فقدتــم في الحــرب الفلانيــة مــع قبيلــة كــذا نحاســكم ، وهاهــي ذي الحكومــة تعيــد اليكــم نحاســا غيره).[1] ولمحاربــة ذلــك قــرر طــلاب الســنة النهائيــة في كليــة غــردون الدعــوة إلى اســتخدام كلمــة ســوداني _ كانــت كلمــة ســوداني ممــا يعــد إســاءة في عــرف المجتمــع آنــذاك _ ومنعــوا أنفســهم مــن اســتخدام قبائلهــم للتعريــف عــن أنفســهم مهمــا كلفهــم ذلــك. لقــد كان ذلــك بمثابــة رد فعل لسياســة الحكومــة ، التــي كانــت قــد قــررت ، امعانــا في الســيطرة وفــرض الانقســام ، إدخــال القبيلــة رســميا في كل إجــراء ، وإلا بطــل. وبالطبــع كان ذلــك يشــمل التعيــين في الوظائــف الحكوميــة. وبالفعــل ، بعــد تخرجهــم كاد خــضر حمــد وبعــض رفاقــه أن يخــسروا التوظيــف في الوظائــف التــي قدمــوا لطلبهــا ، وذلــك بســبب إصرارهــم عــلى مــلء الخانــة المخصصــة للقبيلــة بكلمــة "ســوداني"![190].

وذات الأمــر يؤكــده احمــد خــير المحامــي حيــث كتــب (في هــذه الفــترة كانــت تــدور رحــى معركــة خفيــة ، ولكنهــا بالغــة الحــدة والعنــف ، بــين حكومــة الســودان مــن جهــة ، وبــين الجيــل الجديــد مــن جهــة أخــرى. وكانــت حكومــة الســودان تعمــل عــلى تأريــث القبليــة ، فخلقــت الادارة الأهليــة ، واقامــت حدودهــا عــلى أســاس قبــلي ، وعــلى أســاس القبيلــة أيضــاً صــدرت الخطــط الحكومية.وصــار التعصــب للقبيلــة ، والتمســك بهــا ، مفتــاح النجــاح وســلم الرقــي في الدوائــر الحكوميــة. وعــلى العكــس ،

---

١٩٠ ـ خضر حمد ، مذكرات خضر حمد ، ص ٢٣ .

فـإن الحديـث عـن جنسـية سـودانية ، واغفـال القبيلـة ومحاربتهـا ، اتجاه معـاد ، وفي القليـل متعـارض مـع سياسـة الحكومة ، يسـتوجب اللـوم ، وفي بعـض الأحـوال والأمكنـة العقوبـة والجـزاء) [١٩١].

كان ذلـك هـو الأسـاس الفكـري الـذي بنـت عليـه النخبـة السـودانية أسـاس محاربـة القبليـة والجهويـة. وهـو تقديـر سـليم بعيـد النظـر ، وهـو مـا يعـترض عليـه د. شريـف حريـر حيـث يـرى أن الهويـة الإثنيـة أو القبليـة (هـي إحـدى الجـذور الرئيسـية للفعـل السـياسي في السـودان. وهـم يبعدونهـا بوصفهـا صنيعـة اسـتعمارية! إن الهويـات الإثنيـة والقبليـة التـي هـي حقيقيـة جـدا بالنسـبة لغالبيـة السـكان في كل المناطق الريفيـة ، لـم تبعـد بقسـوة فحسـب ، بـل باعتبارهـا مثـيرة للفرقـة. بـل اسـتدعت درجـة كبـيرة مـن عـداء النخبـة ممـا يقـود إلى تصرفـات خشـنة مـن الحكومـات المتعاقبـة) [١٩٢].

يبـدو أن آبـاء الاسـتقلال _ في هـذه الجزئيـة _ كانـوا عـلى حـق عندمـا قـرروا ابعـاد هـذه الهويـات الإثنيـة والقبليـة مـن الفعـل السـياسي. وهـو مـا فشـل فيـه مـن جـاء بعدهـم ،بـل ويسـعون إلى غـرس جذورهـا عميقا داخـل الفعـل السـياسي ، فـازروا بنـا!

الأعيان والفقهاء يحاربون الكيانات الجهوية :

كان المتـضرر الآخـر مـن إنشـاء الكيانـات الجهويـة هـي طائفـة الفقهـاء والأعيـان ، لأنهـا نشـات في مناطـق نفوذهـم التقليـدي ، ممـا جعلهـم يتخوفـون مـن أن تسـلبهم إيـاه ، أو عـلى الأقـل ، تنازعهـم نزاعـا شـديداً ، خاصـة وأنهـا خـارج نطـاق سـيطرتهم ، والأخطـر مـن ذلـك اسـتنادها إلى قيـم ومفاهيـم جديـدة تنـادي بمحاربـة الإقطـاع. وبالطبـع ، لـم يكـن ذلـك الإقطـاع سـوى السـيدين الكبيريـن ، وتنابلتهمـا مـن حولهمـا مـن زعمـاء القبائـل والعشـائر. وممـا لا ريـب فيـه ، أن السـيدين

١٩١ ـ احمد خير المحامي ، كفاح جيل، ص٤٠.

١٩٢ ـ د. شريف حرير.د.تيرجي تفيدت ، دار فور النهضة أو الانهيار، ص٤٦.

لا يترددا في كسر جناح كل من حاول صنع كيان مستقل عنهما. إن محاولاتهما احتواء زمرة الخريجين منذ اضراب ١٩٣١م. كانت مجرد بداية لصراع طويل معهم ، امتدت آثاره حتى اليوم. فكل من أراد الابتعاد عن "الإشارة" كمن له راعي الحزب عن طريق أصابع اخطبوطية تحاول كسره أو عصره. وما كان تكوين الحزبين الكبيرين الا شبكة لصيد السمك كله. وبالفعل تمكنا من النجاة ، حيث اصطادت شباكهما معظم الخريجين. ومن استعصى لقنوه دروساً خاصة تتعلق بكيفية التعامل مع "الكبار" ،وما اتحادهما ضد أزهري واسقاطه الا دليل صارخ !

ومع ذلك ، فإن القول بأن الأحزاب الطائفية ، حاربت الكيانات الجهوية من ناحية عرقية هو قول يجافي المنطق. فالاحزاب الطائفية كانت وما تزال يهمها أمر واحد هو التبعية. وكانت الكيانات الجهوية تمثل خروجاً صارخاً على هذه التبعية ، فلزم حربها. لقد رأت فيها الطائفية نسخة من دوائر الخريجين التي ما فتئت تحاربها بلا هوادة ، ومعلوم أنّ فئة الخريجين كانت وقتذاك معظم عضويتها شمالية. ففي انتخابات ١٩٥٣م. خصصت للخريجين خمس دوائر. وفاز بها جميعا الحزب الوطني الاتحادي ، وهو حزب المثقفين والقوى الوطنية الخارجة عن سيطرة السيدين. وما أن فاز حزبا السيدين بانتخابات ١٩٥٨م. وشكلا حكومتهما حتى كان أول عمل قامت به هو إلغاء دوائر الخريجين ، وذلك قطعا للطريق على الأزهري الذي كان سيكتسحها! وتكرر منهما ذلك. ففي انتخابات ١٩٦٥م. خصصت للخريجين خمس عشرة مقعدا ، خرجت عن سيطرة الطائفية. وما أن تمكنت الطائفية من السلطة في عام ١٩٦٨م. حتى الغت دوائر الخريجين سدا للباب أمام اليسار الذي كان متوقعا اكتساحه لها. وفي انتخابات ١٩٨٦م. كان عدد دوائر الخريجين ٢٨ دائرة ، فشلت الطائفية في السيطرة عليها ، وكانت قد قررت إلغاءها في انتخابات

١٩٩٠م. لـولا قطـع الإنقـاذ الطريـق بانقلابهـا ١٩٨٩م.[١٩٣].

وعـلى ضـوء ذلـك ، لـم يكـن الأسـاس العدائـي للأحـزاب الطائفيـة نحو الكيانـات الجهويـة عرقيـا ، وانمـا كان خوفـاً مـن أضعـاف أحزابهـم ، اذا تركوهـا تنافسـهم ، وتشـتت اصـوات قواعدهـم الانتخابيـة. وينطبـق هـذا عـلى عمـوم الأحـزاب السياسـية الأخـرى، عـلى الأرجـح.

فضـلاً عـن ذلـك ، فـإن المـزاج العـام في المـدن السـودانية كان في طريقـه نحـو القوميـة. فبـدأ السـودانيون السـكنى خـارج نطـاق القبيلـة ، إذ بـدأت القوانـين ذات الصلـة بتوزيـع الأراضي السـكنية توجـه المواطـن بـذاك الاتجـاه: فقـد أصبـح اسـتحقاق السـكن بالدرجـات ، أمـا اختيـار الموقـع فيعتمـد عـلى القرعـة ، ممـا فـرض عـلى النـاس معـاشرة بعضهـم عـلى نطـاق قومـي ، فالمربـع السـكني ، غالبـاً ، يمثـل لوحـة منتزعـة مـن متعـدد تشـكله عـشرات القبائـل. وبالطبـع ، كان ذلـك عـلى حسـاب القبليـة. إن سـكان المـدن ، خاصـة مـا قبـل مجـئ الإنقـاذ ليذكـرون في وضـوح أن النـاس كانـت تنتسـب لاحيائهـا: نـاس عطـبرة ، نـاس الأبيـض ، نـاس كوسـتي ، نـاس أم درمـان ، الديامة.....الـخ. وكان لذلـك أثـر قـوي فيمـا يتعلـق بالنفـور مـن الكيانـات الجهويـة ، لأنهـا بصـورة غـير مبـاشرة تقطـع هـذه الصـلات القوميـة الناشـئة. كتـب الاسـتاذ/ محمـد ابراهيـم مـوسى ، مـن كليـة الإعـلام ، جامعـة افريقيـا ، مقـالا بعنـوان : انطباعـات عـن كتـاب السـفير الدكتـور خـضر هـرون يصـف السـفير د. خـضر هـرون ، بدايـة سـكنهم في حـي السـجانة في القـرن المـاضي فيقـول (خالطنـا أقوامـا مـن مشـارب شـتى ، تعايرنـا في البدايـة بالقبليـات والجهـات ، ثـم تالفنـا رويـداً حتـى نضـج وجداننـا عـلى نـار هادئـة) [١٩٤]..

---

١٩٣ ـ محمد محمد احمد كرار ، انتخابات وبرلمانات السودان. ص ١٣٣/١٣٢.

١٩٤ ـ جريدة اليوم التالي. العدد ١٧١٨ .بتاريخ ٢٠١٧/١٢/٦م ، محمد ابراهيم موسى ، انطباعات عن كتاب السفير الدكتور خضر هرون ص ٧ .

٠٥ الصادق المهدي وقبر الضابط!

أدى التركيز على التفسير العرقي إلى اسباغه على كثير مما يصدر عن زعيم شمالي ، حتى وإن كانت هناك زوايا أخرى للنظر ، تبقى الزاوية الرئيسية هي العرق ، وهناك نماذج كثيرة نختار منها هذا النموذج ، وقد اقتبسه الكاتبان ـ حرير ، وتيرجي ـ عن د. منصور خالد Khalid,١٩٩٠:٧٩، يقول الكاتبان عن الصادق المهدي أنه (وقف بوصفه رئيساً للوزراء ، على قبر ضابط شمالي شاب قتل في منطقة بور في الجنوب في ١٩٦٦م. وبكى ، وقد استجاب الجيش لدموع رئيس الوزراء، وذبح ٢٤ زعيماً دينكاويا ، بدون أن يجد عقابا. وقد اخذ الجيش الإشارة الخفية التي اوحت بمن هو أكثر قيمة من الآخرين ، من هذا التصرف العاطفي من رئيس وزراء البلاد)[١٩٥]. ويمضي المؤلفان في اقتباسهما عن د. منصور خالد MansourKhalid,١٩٩٠:٢١٨ حيث اضافا (لكن الصادق المهدي كان ذا شخصية مختلفة كلية عندما جاء إلى الفاشر في ١٩٨٧م. استجابة للضغط الشعبي ليحضر قضية قتل ستة مواطنين كبار على يد دورية للشرطة ، في تصرف مخل بالنظام تميز بالقسوة الشديدة من الشرطة ، وعدم الاحترام للحياة الإنسانية. لكن هؤلاء "غرابة" وليسوا سودانيين "أولاد بلد" كما كان ذلك الشاب الذي سقط في ١٩٦٦) [١٩٦].

إن النموذج أعلاه يقدم صورة صارخة مؤججة للتفسيرات العرقية خلال استغلال الخلفية الشمالية للصادق المهدي. وعليه ، يمكن طرح السؤال : هل هو تفسير سليم ؟! واذا سلمنا جدلا بصحته ، هل

١٩٥ ـ د.شريف حرير. ود.تيرجي تفيدت. السودان ، الانهيار أو النهضة. ص ٣٧.

١٩٦ ـ نفس المرجع ، ص ٧٢

هــو التفســير الوحيــد؟ لننحــي الجــواب جانبــاً ، ونشــير إلى أن ثمــة وقائــع كثــيرة ، كان ينبغــي اســتصحابها قبــل إعــلان هــذا التفســير ، ونوجــز منهــا الآتــي :

الواقعــة الاولى ، وهــي عامــل العلاقــة. فالمقارنــة لــم تقطــع بعــدم وجــود علاقــة خاصــة بــين الصــادق المهــدي وصاحــب القــبر _ قرابــة دم ، صداقــة ، مصاهــرة ، ود حلــة.... إلــخ _ لأن وجودهــا قــد يعطــي لتلــك الدمــوع معنــى. والأرجــح وهمــا متقاربــان في الســن ، أن تكــون هنــاك علاقــة مــا.

الواقعــة الثانيــة ،وجــود قــبر شــاب ، مثلــه ، عــلى بعــد حــوالي ألــف كيلومــتر تقريبــا ، وحيــدا ، بعيــدا عــن أهلــه شــئ مثــير للعواطــف.

الواقعــة الثالثــة ، تذكــر صغــار صاحــب القــبر ، إن كان لــه صغــار، وأهلــه ، ومجمــل حياتــه خــلال هــذا العمــر الــذي يقــارب عمــر رئيــس الــوزراء الباكــي. هــو شــئ مثــير للعواطــف.

الواقعــة الرابعــة ، وقوفــه عــلى القــبر في ذلــك المــكان الموحــش مثــير للعواطــف، أكثــر مــن التواجــد في محكمــة مكتظة في قلــب المدينــة ، لحضور دعــوى قضائيــة تتعلــق بقتــل بعــض كبــار الســن.

الواقعــة الخامســة ، في عــام ١٩٦٦م. كان عمــر الصــادق المهــدي حــوال ٣٠ عامــا تقريبــاً. وفي العــام ١٩٨٧م. كان عمــره حــوالي بضــع وخمســين ســنة. وبالطبــع يؤثــر عامــل الســن عــلى حــدة العواطــف . وبالتــالي يكــون شــططا مطالبــة شــخص ببــدء البــكاء في عمــر الثلاثــين ، واســتمراره بــذات مســتوى البــكاء ، وهــو فــوق الخمســين! بعــد وفــاة القــرشي في ثــورة أكتوبــر تــم اســتدعاء رئيــس اتحــاد طــلاب جامعــة الخرطــوم الطالــب ربيــع حســن احمــد ، للتعــرف عــلى الجثمــان. يصــف الأســتاذ شــاموق الموقــف قائــلا (لــم يحــدث في حياتــه أن رأى إنســاناً ميتــا ، لذلــك ارتجفــت يــده ولــم يســتطع أن يرفــع الغطــاء عــن وجــه الشــهيد ورجــع)! [١٩٧].فمــا

١٩٧ ـ احمد محمد شاموق، الثورة الظافرة. ص ١٢٣.

سـبب ارتبـاك رئيـس الاتحـاد خـلال لحظـة تاريخيـة حرجـة؟ إنـه عامـل السـن ، ربيـع حسـن احمـد الطالـب اليافـع ارتبـك لدرجـة فشـله في سـاعة حرجـة عـن أداء دوره. واذا عقدنـا مقارنـة بينـه وربيـع حسـن احمـد ، بعـد ثلاثـين عامـا هـل نجـد فيـه ذات العاطفـة؟.

الواقعـة السادسـة ، مـا شـهدته السـاحة السياسـية السـودانية بعـد ذلك ، خاصـة في عهـد مايـو ، فقـد تغـيرت خـلال عهـد مايـو المشـاعر تمامـاً : مشـاعر السـودانيين جميعـا لا الصـادق المهـدي وحـده. ولمعرفـة "مشـاعر السـودانيين" قبـل عـام ١٩٨٧م _ خـلال فـترة السـتينيات والسـبعينيات _ نسـتأنس بحدثـين ، همـا اعـدام الانقلابيـين العقيـد عـلي حامـد ورفاقـه في ١٩٥٩م. والحـدث الآخـر مشـهد جنـازة القـرشي. ففـي الحـدث الأول نفـذ عبـود حكـم الاعـدام في العقيـد عـلي حامـد ورفاقـه وسـط تكتـم شـديد. وكانـت المـرة الأولى ، بعـد الاسـتقلال ، التـي تنفـذ فيهـا أحـكام إعـدام في انقلابيـين . فكيـف اسـتقبل السـودانيون الحـدث؟ يصـف روبـرت أو. كولنـز ذلـك بقولـه (الأمـر الـذي أصـاب السـودانيين بصدمـة عميقـة حيـث لـم يعتـادوا مـن قبـل عـلى صـور مـن العقـاب بهـذه البشـاعة). [١٩٨].كمـا ورد وصـف الحـدث _ تنفيـذ حكـم الاعـدام في العقيـد ورفاقـه _ عنـد الاسـتاذ شـاموق بقولـه (اسـتقبل الشـعب ، في عامتـه ، حكـم الاعـدام بوجـوم وحـزن وسـخط)[١٩٩].

أمـا الحـدث الثانـي ، وهـو موكـب جنـازة القـرشي ، وهـو يسـير في شـوارع الخرطـوم صـوب قريـة الشـهيد. ويصفـه الأسـتاذ شـاموق قائـلا (تحـرك الموكـب ، وسـار غربـا إلى شـارع الحريـة. وفي الطريـق كان بـكاء النسـاء ونحيبهـن داخـل البيـوت يفتـت الاكباد).[الثـورة الظافـرة. احمـد محمـد شـاموق. ص١٣٨] فهـؤلاء هـن نسـاء منتصـف السـتينيات ، بمختلـف اثنياتهـن عـلى ذلـك الحـال. فهـل يسـهل ايجـاد هـذه اللوحـة

١٩٨ ـ روبرت أو. كولنز. ، تاريخ السودان الحديث ، ص ٩١.
١٩٩ ـ احمدمحمد شاموق ، الثورة الظافرة.. ص٢٥]

اليوم بين الشعب السوداني بعد ما شهد من أحداث؟!

أما مشاعر السودانيين بعد عهد مايو ، فقد تأثرت بإحداث جسام أدت إلى تكلسها . ففي مارس ١٩٧٠م. تناثرت في الجزيرة أبا جثث أثني عشر ألف انصاري، افتتحت بهم عهدها[٢٠٠].وفي يوليو عام ١٩٧١م. شهد السودانيون دموية مايو مرة أخرى خلال تصفية الشيوعيين. وشهد الشعب السوداني تصفية انقلابات لاحقة في بشاعة كبيرة. ومن بعد شهد السودانيون ، والعالم أجمع ، جثث آلاف السودانيين ملقاة على قارعة الطريق بفعل المجاعة في ثمانينيات القرن الماضي. وبالطبع كان الصادق المهدي قد شهد مع الشاهدين ، فهل بقيت له دموع ليذرفها ، وهو شيخ ، على شيوخ يشهد محاكمة المتهمين بقتلهم عام ١٩٨٧م!؟

ونختتم بسؤال صغير : إذا كان بكاء رئيس الوزراء ، صغير السن ، قليل الخبرة ، في ١٩٦٦م. قد نتج عنه ذبح ٢٤ شخصا بريئا. فهل تراه لا يستفيد من ذخيرة التجربة ، وعظة التاريخ ، ويحجر دمعه ، أم يستمر في البكاء ، وهو فوق الخمسين ، لينتج بكاؤه مجزرة جديدة؟!

*** وللأمانة ، يصعب جدا تصور وجود الصادق المهدي ، رحمه الله ، والعرقية في مكان واحد!**

---

٢٠٠ ـ روبرت أو. كولنز. ، تاريخ السودان الحديث ، ص ١١٩ .

٠٦ قمع عبود للجنوب

في عهد الرئيس عبود تم قمع الجنوب الذي تمردت طائفة من أبنائه. وكانت هناك مظالم معتبرة ، ولكن لأسباب تخصها ، لعبت المنظمات التبشيرية ، دورا بارزا في ازكاء ذلك التمرد بإثارة الكراهية ضد الشمال. ونتج عن هذا قرارات مؤثرة من قبل النظام الحاكم ضدها ، وقد بدأت اجراءته بالتضييق عليها ، وانتهت في مارس من عام ١٩٦٤م إلى طردها وأبعادها من البلاد. وبررت قرارها بأن الجمعيات قد (استغلت إسم الدين لبث الكراهية وبذر الخوف والعداوة في عقول الجنوبيين ضد أبناء وطنهم الشماليين ، مع هدفها الواضح بتشجيع قيام كيان سياسي منفصل للمديريات الجنوبية ، معرضة بذلك سلامة ووحدة الوطن للخطر) [٢٠١].وقد نتج عن تلك الإجراءات وغيرها هروب عدد من الطليعة المستنيرة من الجنوبيين كالأب ساترنينو لوهيور، والسياسي ماركو روم ، والمعلم جوزيف ادوهو ، والإداري وليام دينق [٢٠٢].وقد لعب وليم دينق دورا بارزا خلال اتصالاته بعدد من الدول المسيحية التي كانت معادية لنظام عبود ، والتي استطاعت بلورة رأي عام ضده ، مضمونه إبادة المسلمين العرب للزنوج للمسيحيين [٢٠٣].وقد اعتمدت تلك الرؤية على نطاق دولي واسع، واضحت كمسلمة من المسلمات ، خلال تاريخ الصراع السياسي في السودان وعموم افريقيا !

وفي هذا السياق ، لا نهدف إلى تأييد ما قام به عبود ، أو اعتبار

---

٢٠١ - د.فرانسيس دينق. صراع الرؤى .ص ١٣٣ .

٢٠٢ - نفس المرجع ، ص ١٣٣ .

٢٠٣ - نفس المرجع ، ص ١٣٣ .

مـا فعلـه في الجنـوب أمـرا صائبـا أو خاطئـا. كمـا لا نـود أخـذ الجـدال إلى تفاصيـل محصـت وقائعهـا مئـات البحـوث والدراسـات. ولكنـا ، هنـا نهـدف إلى طـرح السـؤال : هـل قـام عبـود _ بغـض النظـر عـن الأسـباب _ بقمـع الجنـوب؟ وتكـون اجابتنـا "نعـم"! وبعـد ذلـك نطـرح السـؤال: هـل كانـت تلـك مسـألة عرقيـة دينيـة عـلى نحـو مـا سـوقت المنظمـات التبشـيرية والمنظمـات الدوليـة؟ تكـون الإجابـة "لا". إذ يصعـب عـلى أي مطلـع عـلى الشـأن السـوداني والافريقـي توزيـع مثـل هـذه التهـم جزافـاً. والسـؤال الـذي يطـرح نفسـه : إذا ، كيـف اسـتطاع العالـم الغربـي إقنـاع العالـم برؤيتـه ؟! تمكـن مـن فعـل ذلـك بطريقـة بسـيطة جـداً ، وهـي مـا زالـت تمـارس ، وتعتمـد عـلى عـزل الوقائـع عـن مـسرح الحـدث بـدلا مـن اسـتصحابها!

إن المقصـود بعـزل الوقائـع عـن مـسرح الحـدث ، هـو فـرض قـراءة الحـدث مـع اسـتبعاد ، أو اهمـال ، وقائـع مهمـة تتعلـق بـه ، أو يمكـن عبرهـا إيجـاد زوايـا مختلفـة للنظـر ، قـد تمكـن مـن تقديـم قـرأءة أفضل ، أو عـلى الأقـل ، إضافيـة. وفي شـأن الحكـم بعرقيـة مـا اقترفـه عبـود في حـق الجنـوب لا بـد مـن الاسـتئناس بسـلوكه تجـاه غـير الجنوبيـين ، قبـل تأييـد تلـك المزاعـم أو إنكارهـا.

مسلك عبود تجاه الشمال :

اذا قرأنـا كتـاب عبـود مـن الصفحـة للغـلاف ، نصـل إلى حقيقة بسـيطة مدهشـة ، تتلخـص في أن عبـود كان رجـلا عـادلا. أو بمعنـى آخـر ، كان دكتاتـورا عـادلا قسـم بطشـه عـلى الجميـع بالتسـاوي ، ولـم يختـص الجنـوب بالبطـش!

فبمجـرد اسـتلامه السـلطة(حل جميـع الأحـزاب السياسـية ، ومنـع التجمعـات والمواكـب والمظاهـرات في كل مديريـات السـودان. وإيقـاف جميـع الصحـف ووكالات الأنبـاء ، والمطابـع إلى حـين صـدور أعـلان اخـر

من وزير الداخلية) [٢٠٤]. واعلن الطوارئ ، وحل البرلمان ، وجمد العمل بالدستور. (وقبل أن ينقضي اسبوع واحد من الانقلاب صدر قانون دفاع السودان لعام ١٩٥٨م. الذي يوقع عقوبة الاعدام ، أو السجن الطويل لكل من يعمل على تكوين أحزاب ، أو يدعو لإضراب ، أو يعمل على إسقاط الحكومة ، أو يبث الكراهية ضدها) [٢٠٥].فإذا كان مصير الداعي إلى تكوين حزب سياسي هو الاعدام أو السجن الطويل. وهذا المصير يواجه حتى من يدعو لإضراب فقط ، أو مجرد قيامه ببث الكراهية ضد الحكومة. علما بان هذا المصطلح ـ بث الكراهية ضد الحكومة ـ فضفاض لدرجة أن تعليق صغير على Facebook اليوم يمكن أن يندرج تحت جريمته!

ولم تكتف الحكومة بذلك، بل أصدرت لائحة سمتها "لائحة دفاع السودان لعام ١٩٥٨". وهذه "اللائحة"تمتلك قوى لا تمتلكها دساتير. يقول الأستاذ شاموق في شأنها أنها (تخول لوزير الداخلية سلطة مراقبة الرسائل البريدية ، خاصة أو غير خاصة ، ومراقبة الصحف وكافة المطبوعات ، وارغام المواطنين على الإدلاء بأي معلومات يطلبها البوليس، وإعلان حظر التجوال في أي منطقة ، ومنع المواطنين من مغادرة السودان ، ومنع دخول أي جرائد أو مطبوعات إلا بإذن. ومنع تنظيم المواكب ، وتفتيش أي منزل أو مبنى ، أو عربة ، أو طائرة بواسطة أي ضابط أو جندي او رجل بوليس ، وبالقوة اذا لزم الامر ، وفي أي ساعة من ليل أو نهار ، واعتقال اي مواطن بدون أمر قبض "وسوف لا يكون ضروريا أن يقدم للقاضي إذا كان من راي وزير الداخلية أن ذلك سيكون مناهضا للسلامة العامة. ولوزير الداخلية في هذه الحالة أن يأمر بحفظ هذا الشخص لأي مدة يراها مناسبة"[٣].

وأول ملاحظة على هذه اللائحة أنها اقوى من الدستور. وأبرز

٢٠٤ ـ أحمد محمد شاموق ، الثورة الظافرة. ص ١٧.

٢٠٥ ـ نفس المرجع ، ص ١٧.

دليـل عــلى ذلــك انتهاكهــا حــق الســجين في العــرض عــلى القــاضي بعــد مــرور مـــــدة محــددة مــن اعتقالــه "الماجنــا كارتــا". إن الســلطات التــي يتمتــع بهــا وزيــر الداخليــة بموجــب هــذه اللائحــة الإجرامية لا يتمتــع بها حتــى رؤســاء الــدول بموجــب اي دســتور بعــد صــدور مواثيــق حقــوق الإنســان الأساســية ، إذ أن رؤســاء الــدول لا يتمتعــون بســلطان مطلقــة حتــى وهــم يمارســون أقــصى حــدود الســلطة ، وذلــك فيمــا يتعلــق بإعلان حالــة الطــوارئ. فحالــة الطــوارئ نفســها مشروطــة بــشروط محــددة ، على رأســها عــدم المســاس بمبــادئ تحريــم الاســترقاق ، والتعذيــب وغــير ذلــك مــن الحقــوق التــي لا يجــوز هدرهــا لأي ســبب. وعليــه، اذا كانــت هــذه ســلطات وزيــر الداخليــة في عهــد عبــود ، فكيــف هــي ســلطات الرئيــس عبــود؟!

في المؤتمــر الصحفــي الأول الــذي عقــده الفريــق ابراهيم عبود في الاســبوع الثانــي بعــد الانقــلاب ، قــال للصحفيــين:(لا تكتبــوا أي شيء ضــد سياســة الحكومــة ، ولا تنتقــدوا أعمالهــا في الأمــور الداخليــة والخارجيــة ، ولا تكتبــوا شــيئاًعن الأحــزاب والطوائــف)! [٢٠٦].وأكمــل وزيــر الداخليــة تهديــدات رئيســه للصحافــة خــلال مؤتمــره الصحفــي ، وقــد جــاء في جريــدة الايــام (أعلــن وزيــر الداخليــة في مؤتمــره الصحفــي أنــه لــن يتوانــى عــن قفــل أي جريــدة أو تقديــم محرريهــا إلى المحاكــم اذا حاولــت الصحــف أن تثــير الشــكوك حــول أهــداف الحكومــة)[٢٠٧].

ومــضى الاســتاذ شــاموق يفصــل وضــع حريــة التعبــير خــلال عهــد عبــود فقــال :(وقــد واجهــت الصحافــة صعوبــات عمليــة في تطبيــق تلــك التوجيهات.وطلبــت مــن الدولــة أن تفصــل تلــك التوجيهــات ، وإن تضــع حــدودا وقواعــد واضحــة تطبقهــا الصحــف عنــد النــشر. فاصــدرت وزارة الداخليــة الأمــر التــالي "أن تدعــم الصحــف الثقــة في النظــام الجديــد لا أن

---

٢٠٦ ـ أحمد محمد شاموق ، الثورة الظافرة ١٩.

٢٠٧ ـ نفس المرجع ، ص ١٩.

تقوضها أو تثير السخط، أو تثير الاحتقار ضد الحكم الجديد. وان تشير الصحف إلى الأخطاء التي وقعت في العهد الماضي وتستنبط منها دروس المستقبل. ولا ترد الصحف على أي هجوم وجهته دولة ما أو صحافتها إلا بالتشاور مع وزارة الداخلية")[٢٠٨]. عند تمعن هذا البيان لا يتطرق شك أنه كتب في القاهرة وقرئ في الخرطوم! فالمذكرة الإيضاحية التي أجاب بها وزير الداخلية على استفساراتها حول ما تكتبه تؤكد ذلك.، وإلا ما معنى قوله (ولا ترد الصحف على أي هجوم وجهته دولة ما ، أو صحافتها ، الا بالتشاور مع وزير الداخلية)؟! وما علاقة هذه التوجيهات الصادمة الصارمة بالأحداث العاصفة ضد سعي المصريين لنهب وادي حلفا ، والذي أسست له اتفاقية مياه النيل التي وقعت يوم ٨/نوفمبر/١٩٥٩م.بعد قمع المعارضة الملتهبة ؟!

تطبيق اللائحة على الصحافة :

لم تضع الحكومة وقتا ، وانما طبقت ترهاتها المسماة "لائحة" فورا. يقول الأستاذ شاموق

(فقد عطلت صحيفة الميدان لسان حال الجبهة المعادية للاستعمار. وصحيفة الإخوان المسلمون ، لسان حال حركة الإخوان المسلمين.وصحيفة الطليعة ، لسان حال اتحاد نقابات عمال السودان. عطلت هذه الصحف تعطيلا نهائيا ، إلا أنه سمح للاستاذ عبد الماجد أن يصدر صحيفة أخرى وبإسم آخر. فأصدر صحيفة البلاغ الأسبوعية التي عطلت بعد شهر واحد من إنشائها تعطيلا نهائيا. عطلت صحيفة الأيام في يناير ١٩٥٩م. لأنها نشرت حيثيات الحكم في قضية الشفيع أحمد الشيخ ، ثم عادت للظهور. وعطلت مرة أخرى لاتخاذها موقف المعارضة ونشرها مذكرة زعماء المعارضة في نوفمبر عام ١٩٥٩م.ثم أعيدت لها شرعيتها ، فانذرت

٢٠٨ ـ المرجع نفسه ، ص ١٩.

مـرة أخـرى لأنهـا نـشرت اعلانـا مـن مواطـن سـمى ابنـه بإسـم أحـد زعمـاء المعارضة."اسـماعيل الازهـري" وأرسـل أمـر يمنـع أي إعـلان عـن مولـود يحمـل أسـما سياسـياً. وانـذرت مـره اخـرى لأنهـا كتبـت في مناسـبات مختلفـة العناويـن التاليـة: "طـار الرئيـس عبـود ورفاقـه إلى إثيوبيـا" و "حريـق في وزارة الاسـتعلامات والعمـل" و"انقـلاب ١٧ عربة في بورتسـودان". وهـددت وزارة الداخليـة جميـع الصحـف بالتقديـم للمحاكم اذا فهـم مـن العناويـن تلميـح بالسـخرية أو تعريـض بالحكومـة. وعطلـت صحيفـة النيـل لأنهـا نـشرت مقـالا عـن الديمقراطيـة. قدمـت صحيفـة السـودان الجديـد للمحاكمـة ، وغـرم رئيـس تحريرهـا خمسـين جنيهـاً مـع الانـذار النهائـي لنشرهـا مـا دار في محاكمـة قضيـة سياسـية في ينايـر ١٩٦٠. ولمـا منعـت وزارة الداخليـة الصحـف مـن الإشـارة إلى أي خـبر عـن مشـكلة ميـاه النيـل أو مشـكلة الحـدود في حلايـب. نـشرت السـودان الجديـد في حيـز صغـير أن الجانـب السـوداني سـيتطرق لمشـكلة الحـدود. فصـدر أمـر بتعطيلهـا) [٢٠٩].

إن مـا سـجله الاسـتاذ شـاموق ، مشـكورا ، في دقـة لـم يلـق حظـه من الدراسـة. وهـو للأسـف ينطبـق عـلى كثـير مـن الجهـود الصادقـة الجـادة في التوثيـق مثـل توثيقـات الاسـتاذ محمـد محمـد احمـد كـرار وغيرهـم.ان الصـورة التفصيليـة التي بـين يدينـا تجعلنـا نعيـد النظـر في مسـألة عرقيـة قمـع الجنـوب في عهـد الرئيـس عبـود. ولنـا أن نتسـاءل : اذا كان سـلوك وزيـر الداخليـة مـع نخبـة الخرطـوم عـلى نحـو مـا قرأنـا ، فكيـف يكـون سـلوك جنودهـم في أحـراش الجنـوب وقـراه البعيـدة عـن مركـز القانـون؟!

أخـشى أن كثـيراً مـن احكامنـا السـابقة حـول وقائـع تاريخنـا في حاجـة إلى إعـادة نظـر. خاصـة إذا اسـتصحبنا معـه مـا أوقعـه بالحلفاويـين ، ممـا سـبق ذكـره.

---

٢٠٩ ـ المرجع السابق ، ص ١٩-٢٠.

٠٧كارثة المجاعة

مما يؤخذ على حكومة النميري"الشمالية"، إهمالها لمواطن دارفور إبان فترة المجاعة الشهيرة أواخر عهده. وذلك صحيح تماما، حيث تم اهمال أمرالمجاعة، رغم تحذير المسئولين في الإقليم، وعلى رأسهم حاكم الإقليم احمد ابراهيم دريج، خلال تقرير شامل يحذر من كارثة وشيكة، تم توزيعه على السفارات والمنظمات الدولية في الخرطوم إلا أن النظام لم يحرك ساكنا[٢١٠].لقد استبد الحمق بالنميري لدرجة إنكار الجفاف نفسه وتسميته "شائعات مغرضة" [٢١١].وعندما التفت إليها، مجبراً، كان عشرات الآلاف من الأنفس البريئة قد لقت حتفها [٢١٢].، وكان العالم أجمع قد علم بعد تمكن الكارثة. لقد كان أمرا محزنا مخزيا واحد أسوأ إلاخفاقات التي تحسب على مايو. ويمكن الرجوع إلى تفاصيلها، خلال بحوث ودراسات عديدة، وما يهمنا هنا هو غرض دراستنا، وهو إشارة البعض إلى أن لذلك وجها عرقيا. ومن ذلك ما لمح إليه الاستاذ/عبد الجبار محمود دوسه، في معرض مقارنته بين واقعة ترحيل مواطني وادي حلفا إلى خشم القربة. ووقائع المجاعة. وفيه يقول (وكما لم يحط مشروع السد فجأة على الدولة، لأن المباحثات في أمر المشروع اخذت عدة سنوات، كذلك كانت كارثة شمال دارفور لم تكن وليدة لحظة وانما جاءت نتاجا لتراكمات تدهور بيئي معلوم وبائن القرائن والاحوال. غير أنه في حالة شمال دارفور كان الإهمال هو سيد الموقف، بينما كان

---

٢١٠ ـ روبرتأو كولنز، تاريخ السودان الحديث، ص١٨٤

٢١١ ـ المرجع نفسه، ص١٨٤.

٢١٢ ـ توفي في العام ١٩٨٥م أكثر من٩٥ ألف غرابي. المرجع السابق. ١٨٥.

الامعـــان هـــو حكيـــم حالـــة حلفـــا ، فقـــد اختـــارت الدولـــة منطقـــة خشـــم القربـــة ، أو حلفـــا الجديـــدة كمـــا يحلـــو للقادمـــين تســـميتها وطنـــا بديـــلاً للمهجريـــن . وتـــم تخطيـــط المنطقـــة) [٢١٣].

لا جـــدال في ملاقـــاة أهـــل وادي حلفـــا _ فيمـــا يتعلـــق بحفـــظ أرواحهـــم _ معاملـــة افضـــل ممـــا لقيـــه جوعـــى غـــرب الســـودان خـــلال مجاعـــة الثمانينيـــات مـــن القـــرن المـــاضي في عهـــد نمـــيري ، الذيـــن ماتـــوا جوعـــا ، فـــرادى وجماعـــات. ولكـــن ، هـــل كان منطلـــق ذلـــك عرقيـــا؟ لا ، لـــم يكـــن كذلـــك ، ولنـــا أدلـــة نســـتعرضها في نقـــاط ،كمـــا يـــلي :

النقطة الأولى:

نعـــم ، لـــم يكـــن الحدثـــان مفاجئـــان . فترحيـــل أهـــل وادي حلفـــا كان موضـــوع بحـــث جـــدي منـــذ بضـــع ســـنوات. أمـــا المجاعـــة فلـــم تكـــن مفاجئـــة للعلمـــاء وأهـــل التخصـــص وعمـــوم المراقبـــين عـــن كثـــب لأوضـــاع الـــتردي البيـــئ الـــذي بـــدأ قبـــل ثلاثـــة عقـــود تقريبـــا. ولكنـــه ، مع ذلـــك كان مفاجئـــاً لغيرهـــم ، وإن كانـــوا مســـؤولين تنفيذيـــين ، حيـــث كانـــوا غارقـــين في مشـــاكل الســـودان السياســـية.

ففـــي ١٩٨١م. أشـــعل أهـــل دارفـــور الســـاحة السياســـية الســـودانية بمســـألة رفـــض تعيـــين حاكـــم للإقليـــم مـــن غـــير أهلـــه. وقـــد اخـــذت هـــذه المســـألة مـــن النمـــيري وقادتـــه جهـــدا كبـــيرا حتـــى تمكنـــوا مـــن الوصـــول إلى حـــل لهـــا. وفي ذات العـــام _ يونيـــو ١٩٨١م _ فاجـــأ الســـلطة اضراب عمـــال الســـكك الحديديـــة في عطـــبرة ، وكان عددهـــم ثمانيـــة آلاف ممـــا أدى إلى شـــلل البـــلاد ، وعـــبر النمـــيري عـــن غضبـــه بفصـــل ٤٥ ألـــف عامـــل بالســـكك الحديديـــة الذيـــن كانـــوا قـــد وقفـــوا وحدهـــم ، ثـــم اضطـــروا للعـــودة. وفي ديســـمبر وقعـــت مظاهـــرات حاشـــدة نتجـــت عنهـــا اعمـــال شـــغب ، وتـــم قمعهـــا بوحشـــية مـــن قبـــل قـــوى الشرطـــة والأمـــن . وفي العـــام ١٩٨٣م. ارتجـــت اركان النظـــام بوقـــع إضراب القضـــاة لمـــدة ثلاثـــة أشـــهر

٢١٣ ـ عبد الجبار محمود دوسه ، دارفور وأزمةالدولة، ص ٦٢.

وذلـك بسـبب الأجـور وتدهـور شروط العمـل، وتضامـن معهـم المحامـون ، وبالـكاد اسـتطاع حلحلتهـا جزئيـاً حتـى خـرج الأطبـاء بتقديـم اسـتقالات جماعيـة ، وبشـق الأنفـس اسـتطاع التوصـل إلى حـل معهـم. ولـم يكـن المهندسـون أقـل حـراكا ، وسـاند كل ذلـك دعـم شـعبي كبـير. ولجـأ بعدهـا لإصـدار المرسـوم الرئـاسي رقـم ٢٥٨ بتاريـخ ٣٠/٤/١٩٨٤م. ليحـول دون مزيـد مـن الإضرابـات [٢١٤].وفضـلًا عـن ذلـك كانـت للاقاليـم المختلفـة مشـاكلها الاقتصاديـة والسياسـية وغيرهـا مـن ازمـات. وهـذا يلقـي إضـاءة قـد تسـاعد في تفسـير تقاعـس السـلطة المركزيـة عـن إغاثـة الجوعـى قبـل فـوات الاوان.

النقطة الثانية:

كان ترحيـل أهـل حلفـا مرتبـا لـه خـلال تلـك الاجتماعـات ، وكان اختياريـاً _ عـلى الأقـل مـن جانـب الحكومـة _ وبالتـالي ، كانت لهـا جداول لـكل شيء. أمـا المجاعـة ، وإن لـم تكـن مفاجئـة للعلمـاء وأهـل التخصـص ، الا أنهـا كانـت كذلـك بالنسـبة للمسـؤولين المسـتهترين المتجاهلـين نصـح أهـل الشـأن مـن ناحيـة ، والغارقـين في ازماتهـم السياسـية والاقتصاديـة والأمنيـة المذكـورة ، المهـددة لبقائهـم مـن ناحيـة أخـرى. ومـن ثـم غـاب أي ترتيـب أو تنسـيق للحيلولـة دونهـا والمواطـن المسـكين.

النقطة الثالثة:

كان حجمهـا وتأثيرهـا مجهـولا ، كمـا كانـت الاعـداد المهـددة بالمجاعـة مجهولـة، غـير محـددة . أما أهـل وادي حلفـا فكانـت أعدادهـم وممتلكاتهم مرصـودة بدقـة خـلال كشـوفات منقحـة ، ويشـمل ذلـك كل مايتعلـق بهم.

النقطة الرابعة:

كانـت وادي حلفـا مدينـة صغـيرة ، بينمـا كان الإقليـم الـذي ضربتـه المجاعـة بمسـاحة تفـوق مسـاحة بعـض الـدول. ممـا جعـل تعامـل

٢١٤ - روبرت أو. كولنز. ، تاريخ السودان الحديث. ص١٨١.

عبـود مـع مسـاحة ضئيلـة مقارنـة بإقليـم دارفـور الـذي كان يفـترض أن يتعامـل معـه النمـيري.

النقطة الخامسة:

كانـت الخزينـة العامـة في عهـد الرئيـس عبـود مزدهـرة. فقـد كانـت قيمـة العملـة السـودانية مرتفعـة جـدا تسـاوي دولارات عديـدة. وفي عهـد الرئيـس نمـيري انعكـس الحـال رأسـا عـلى عقـب ، فأصبـح الجنيـه جـزءا مـن الـدولار . وذلـك بسـبب الهـزة التـي تلقاهـا الاقتصـاد العالمـي مطلـع السـبعينيات مـن القـرن المـاضي ، نتيجـة لارتفـاع أسـعار النفـط بصـورة مفاجئـة ، مـع تراجـع اسـعار المـواد الأوليـة التـي كان ومـا زال يعتمـد عليهـا الاقتصـاد الافريقـي. لقـد عنـى ذلـك أن تبيـع الـدول الأفريقيـة موادهـا الأوليـة ببخـس وتشـتري المـواد النفطيـة ومشـتقاتها بفحـش ، ممـا أدخـل كثـير مـن دول افريقيـا في فـخ الديـن العالمي.وقـد نـال السـودان نصيبـه مـن ذلـك التدهـور في عهـد نمـيري، ومـا يـزال! او بمعنى آخـر ، كان الجنيـه السـوداني في عهـد عبـود في قمتـه ، وفي عهـد النمـيري بلـغ بدايـة الحضيض.ففـي العـام ١٩٧٣م بالـكاد تسـاوت القيمـة بـين صـادرات السـودان ووارداتـه _ مـع معـدلات تضخـم منخفضـة واعبـاء خدمـة ديـون معقولـه _ أمـا في العـام ١٩٨٣م. فقـد بلغـت الديـون ٧ مليـارات دولار تقريبـاً (مـع جملـة فوائـد تبلـغ حـوالي مليـار دولار)مـع عجـز تجـاري يبلـغ حـوالي واحـد مليـار ومائتـي مليـون دولار.[٢١٥].

النقطة السادسة:

في عهـد الرئيـس عبـود كانـت منتجاتنـا النقديـة وفـيرة الكميـة ، عظيمة القيمـة : فالقطـن ، السمسـم ، الصمـغ العربـي وغيرهـا كانـت غزيـرة الإنتـاج عاليـة المـردود. وعنـد مجـيء عبـود للحكـم وجـد القطـن مكدسـا في مخـازن الحكومـة ، فباعـه وامتـلأت الخزينـة مـن عائداتـه. [٢١٦].أمـا

٢١٥ - روبرت أو. كولنز. ، تاريخ السودان الحديث. ص١٨٣

٢١٦ - روبرت أو. كولنز. ، تاريخ السودان الحديث. ص

في عهـد الرئيـس نمـيري فقـد انحـسر الغطـاء النباتـي بفعـل الجفـاف السـاحلي والتصحـر ، إضافـة إلى عوامـل أخـرى ، معقـدة ،أدت جميعـا إلى قلـة الإنتـاج وقلـة المـردود.

النقطة السابعة:

عنـد تهجـير أهـل وادي حلفـا كانـت مشـكله الجنـوب بسـيطة وفي بـدء تمرحلهـا. وكانـت آثارهـا محصـورة ، حيـث لـم تتمكـن بعـد مـن حيـازة قـوة عسـكرية مؤثـرة ، كمـا أن مؤهـلات قادتهـا كانـت متواضعـة للغايـة، وكان ميـزان القـوى لصالـح الجيـش. أمـا في عهـد النمـيري فقـد بـدأ التمـرد الجديـد مـن حيـث انتهـى التمـرد الأول ، بـدأ قويـا جـدا ضمـن قيادتـه عقيـد سـابق في الجيـش السـوداني ، يحمـل شـهادة علميـة رفيعـة مـن جامعـة عالميـة، وقبـل ذلـك كانـت لـه خـبرة سـابقة في جيـش جوزيـف لاقـو (التمـرد الأول).وحولـه أشـخاص أكثـر حنكـة وتأثـيرا مـن أعضـاء التمـرد الأول.وقـد تزامنـت المجاعـة مـع هـذا التمـرد ، وقـد وجهـا معـا الضربـة القاضيـة لنظـام نمـيري المترنـح اصـلا.

النقطة الثامنة:

اسـتقرار حكـم عبـود مقارنـة بحكـم نمـيري. فرغـم أن النظامـين كانـا قـد عانـا حـدة الانقلابـات العسـكرية إلا أن انقلابـات عهـد عبـود كانـت بسـيطة التركيـب ، مجـرد طموحـات شـخصية هنـا وهنـاك ، عـلى الأرجـح . تمكـن عبـود مـن التخلـص منهـا سريعـاً. بينمـا كانـت انقلابـات عهـد النمـيري معقـدة التركيـب ، دوليـة الأطـراف ، متشـعبة الدعـم. لـذا كانـت مرهقـة مكلفـة. لقـد كان الرجـل لسـنوات عديـدة ، يرقـص حافيـا عـلى سـطح صفيـح سـاخن! فقـد كلفـه سـحق الأنصـار ، في مـارس١٩٧٠م. حـوالي ١٢,٠٠٠ نفـس ، وهـو رقـم ينبـئ عـن حجـم التكلفـة العسـكرية والماليـة. وفي يوليـو ١٩٧١م. برهـق كبـير اسـتطاع القضـاء على الشـيوعيين الذيـن كادوا أن يقضـوا عليـه. وقـد كلفـه سـحق الشـيوعيين ، فضـلا عـن

التكلفـة العسـكرية والمالية ، تكلفـة سياسـية ، حيـث اضطـر بعدهـا للقفز مـن المعسـكر الشرقـي ، ليسـقط داخـل فيـه المعسـكر الغربـي الـشره. دون دراسـة أو اعـداد ، فقـط أراد التحـول مـن الـشرق الـذي ينتمـي إليـه خصومـه إلى خصومهـم. وكانـت بدايـة سلسـلة جديـدة مـن السـقوط. ولم تمـض ثـلاث سـنوات حتـى اهتـز النظـام مـن ضربـات انقـلاب العقيـد حسـن حسـين. وفي السـنة التاليـة ، العـام ١٩٧٦م. إثـر انقـلاب محمـد نـور سـعد تـم اجتيـاح الخرطـوم بتكلفـة بشريـة عالية.واسـتمرت المعارك في ازقتهـا واحيائهـا.وان هـي إلا اشـهر حتـى وقـع النمـيري بتاريـخ ١٩٧٧/٧/٧م في بورتسـودان اتفاقـه الشـهير مـع الصـادق المهدي.ويعـود كثـير مـن المعارضـين للداخـل لقـد أدت الأحـداث العاصفـة التـي ظلـت تـضرب نظـام نمـيري ، ليـس لترنـح نظامـه فحسـب ، وانمـا لترنـح الوطـن نفسـه. لأن كل هـذه المعـارك كانـت تكلفتهـا كاملـة السـداد مـن اقتصـاد الوطـن ، ومـوارده ، وأمنـه واسـتقراره.

النقطة التاسعة:

نجـاة مـن التكلفـة الباهظـة للحـرب وقـع النمـيري عـددا مـن اتفاقيات السـلام. أولهـا اتفاقيـة أديـس أبابـا ألتـي وضعـت حـدا لحـرب الجنـوب الاولى. وبالفعـل تمكـن مـن النجـاة مـن تكلفـة فاتـورة الحـرب الباهظـة ، لكنـه لـم ينـج مـن تكلفـة فاتـورة السـلام التـي تمثـل رهقـا واسـتنزافا للمـوارد الأفريقيـة ، فمـا أن تـم توقيـع اتفاقيـة السـلام ، حتـى تقاطـر أدعيـاء البطولـة مـن كل حـدب وصـوب ، صـار الـكل بطـلا للسـلام. عـاد المسـتعمر الزنجـي ، بـكل هيئاتـه ونزواتـه. توافـدت طائفـة الفقهـاء والأعيـان المعفيـين مـن الضرائـب مـن شـتى أنحـاء الجنـوب والعالـم. بـرز الباشـبوزق منتفخـي الاوداج ، غارقـين في بدلاتهـم الأوروبيـة ذات المـاركات الأنيقـة الفاخـرة. واصطـف الجهاديـون أمـام القيـادة العامـة يريـدون اقتحامهـا كفاتحـين. لقـد وجـد النمـيري نفسـه في لجـة مـن الـصراع مـع جنرالاتـه بشـأن دمـج هـؤلاء القادمـين في المؤسسـة العسـكرية. وفي النهايـة

تـــم حـــل كل هـــذه المعضـــلات بحـــل ســـحري تمثـــل في ضـــخ مزيـــد مـــن الأمـــوال. لقـــد أســـتمر النظـــام يدفـــع لأكثـــر مـــن عقـــد مـــن الزمـــان قبـــل أن يعـــود لاســـوأ ممـــا كان عليـــه وكانـــت الاتفاقيـــة الثانيـــة مـــع المعارضـــة التـــي كانـــت قـــد اجتاحـــت العاصمـــة في ١٩٧٦م. حيـــث وقـــع معهـــا اتفاقيـــة ســـلام ســـميت بالمصالحـــة الوطنيـــة. وقـــد (أدت المصالحـــة الوطنيـــة إلى تعيـــين عـــدد مـــن قـــادة المعارضـــة في مواقـــع بـــارزة) [٢١٧].وكذلـــك (تســـيد تنظيـــم الإخـــوان المســـلمون الاتحـــاد الاشـــتراكي) [٢١٨]. لقـــد حملـــت أحشـــاء هـــذه المصالحـــة الوطنيـــة كارثـــة مؤجلـــة ، تمثلـــت في تدشـــين تمكـــين تنظيـــم الجبهـــة الإســـلامية رســـميا مـــن رقبـــة الســـودان ، تلـــك الكارثـــة التـــي تمـــت ترجمتهـــا ، بعـــد ســـنوات قليلـــة ، إلى انقـــلاب ٣٠/يونيـــو/١٩٨٩م. ومـــا تمخـــض عنـــه مـــن أحـــداث.

لقـــد أتـــت المصالحـــة الوطنيـــة بـــكل ســـوءات العهـــد التركـــي المـــصري وزادت عليهـــا كيـــل بعـــير. لقـــد تـــم شـــحن الأضـــداد في مركـــب الاتحـــاد الاشـــتراكي ، وكان لا بـــد مـــن مخصصـــات وامتيـــازات وترضيـــات حتـــى لا يغـــرق. فانشـــغل بهـــا عـــن مســـغبة أهـــل دارفـــور. فجـــف الـــزرع ، وهلـــك الـــضرع ، ونفقـــت الســـوائم ، ومـــات أهلهـــا ، قـــرى كاملـــة أغلقـــت أبوابهـــا بمـــوت أصحابهـــا ، والنمـــيري ومجلســـه وموظفـــوه منشـــغلين بدفـــع حيـــل ومماحـــكات الفقهـــاء والأعيـــان المعفيـــين مـــن الضرائـــب ، والباشـــبوزق أكلي قـــوت الشـــعب ، وطابـــور الجهاديـــين! وهـــو مـــا لـــم يواجهـــه حكـــم عبـــود ، لحســـن حظـــه ، وإلا لنفقـــت خزنتـــه ، ومـــا اســـتطاع توفـــير أجـــرة نقـــل أهـــل وادي حلفـــا فقـــط ، دعـــك مـــن دفـــع تعويضـــات لهـــم!

النقطة العاشرة:

في وقـــت متزامـــن تزاحـــم في المـــدن ، خاصـــة العاصمـــة والمـــدن المجـــاورة، لاجئـــوا الحـــرب مـــن جنـــوب الســـودان ، ونازحـــوا المجاعـــة مـــن غـــرب

---

٢١٧ ـ د. فرانسيس دينق ، صراع الرؤى. ص ١٦٠.

٢١٨ ـ د.منصور خالد. الفجر الكاذب. ص ٥.

السـودان. فخلـق اربـاكا لحكومـة مرتبكـة أصـلا ، شـحيحة المـوارد. وهـو مـا لـم تعانيـه حكومـة عبـود خـلال تهجيرهـا أهـل وادي حلفـا.

النقطة الحادية عشرة:

صادفـت المجاعـة عجـزا إقتصاديـا كبـيراً في ميزانيـة الدولـة ، عكسـته صفـوف الوقـود في الطلمبـات التـي شـهدت شـحا كبـيراً في الإمـدادات ، بسـبب ضعـف التمويـل. وهـو مـا لـم تعانيـه حكومـة عبـود خـلال تهجيرهـا أهـل وادي حلفـا.

النقطة الثانية عشرة:

تولـت مسـألة تهجـير أهـل وادي حلفـا ، بصـورة مبـاشرة ،حكومتـان ، السـودانية والمصريـة ، ووضعـت لهـا ميزانيـة مسـبقة. ورغـم مـا رافقهـا مـن تجـاوزات ، إلا أنهـا كانـت تمثـل بنـدا رسـميا في ميزانيـة البلديـن. عكـس المجاعـة التـي مولتهـا حكومـة نمـيري الضعيفـة جـدا ، مـن خـارج بنـود الـصرف المعتـادة ، ودون سـند الا المسـاعدات الإنسـانية التـي جـاءت بعـد هـلاك الكثيريـن.

النقطة الثالثة عشرة:

وقـد تزامـن مـع المجاعـة نـزوح مـن تشـاد التـي كانـت في حـال اضطرابـات سياسـية ، ممـا زاد رهـق السـلطة المحلية.والمركزيـة.

النقطة الرابعة عشرة:

تصادفـت المجاعـة في الغـرب والـشرق مـع حلـول اجـل القـروض غـير المرشـدة التـي كان النظـام قـد وقـع فيهـا. حيـث (وجـد النظـام نفسـه في دائـرة مـن الديـون المتصاعـدة والإنتـاج المتدهـور، وأصبـح معظـم دخل العملـة الصعبـة ، الـذي تـم التحصـل عليـه مـن التصديـر مطلوبـاً لسـداد الديـون) [٢١٩].

٢١٩ ـ د.فرانسيس دينق ، صراع الرؤى. ١٦٦.

النقطة الخامسة عشر :

في وقت مبكر بدأت دار زغاوه تتعرض لموجات الجفاف وزحف الصحراء بسبب وقوعها في إقليم شبه الصحراء. وذلك منذ أواخر الخمسينات وأوائل الستينات [٢٢٠].ومنذ العام ١٩٦٦م. بدأ شح الأمطار في الإقليم.فقد (بدات كميات الأمطار تنحسر إلى أقل من المتوسط المألوف "٢٠٠_٣٠٠ مم" في العام، بنسبة تعادل ٣٠٪ حتى جاءت أسوأ سنوات جفاف الساحل ما بين عامي ١٩٧٠ _١٩٧٤م.جاء هذا الجفاف في أعقاب ثماني سنوات ، متتالية ، شحيحة الأمطار. وهذا هو ما جعل هذه الموجة من الجفاف مؤثره بصورة مأساوية بالنسبة لأفراد قبيلة البرتي) [٢٢١]. لقدأثر ذلك كثيرا على مجتمعات دارفور ، خاصة قبائل الشمال كالبرتي والزغاوة. ورغم كفاءة مجتمع الزغاوة في إدارة مواردهم، إلا أن هذه الإدارة انهارت بفعل ضربات(الجفاف المتتالية منذ عام ١٩٦٦م.وكانت قمة قسوتها في كل من الموجتين الأخيرتين لجفاف الساحل في ١٩٧٠ _١٩٧٤م.)

اذا ، بدا هذا الشيء الذي يقال له "جفاف وتصحر" منذ أواخر الخمسينيات وأوائل الستينات. واشتدت وطأته ، خاصة على قبائل الشمال منتصف الستينيات. وتطور إلى مجاعة أهلكت الأمة خلال الفترة من ١٩٧٠ _١٩٧٤م. وعادت لتضرب ، مجددا ، ضربة تأهلت بموجبها دارفور إلى احتلال المرتبة الأولى في اخبار العالم ، لدرجة أن يجتمع اشهر نجوم الغناء في الكوكب ، ويتغنوا لشحذ همم العالم لإنقاذ جوعى الكوكب ، وعلى رأسهم أهل دارفور. وما زالت أغنية We are the World شاهدة على التاريخ. كل ذلك معلوم ، لكن السؤال هو: حسنا ، تقاعست السلطة الشمالية عن إنقاذ أهل دارفور ، ولكن ، ماذا فعل أبناؤها؟! او ماذا كانوا يفعلون؟

---

٢٢٠ ـ د.يوسف تكنه ، دارفورصراع السلطة والموارد. ص١٩١.

٢٢١ ـ دارفور.صراع السلطة والموارد، د.يوسف تكنه. ص١٩٠

كانـــوا مشـــغولين بالـــصراع لأجـــل احتـــكار ســـلطة تمثيـــل الإقليـــم وقصرهـــا عـــلى أهـــل دارفـــور. ففـــي ١٩٦٤م. في اجتمـــاع أقيـــم في جامعـــة الخرطـــوم ، تمـــت إجـــازة الأفـــكار الرئيســـية لمؤسســـة جبهـــة نهضـــة دار فـــور ، وانتخـــاب اللجنـــة التنفيذيـــة الاولى[٢٢٢].ورغـــم تصـــدر بنـــد (تطويـــر دار فـــور والنهـــوض بهـــا في مجـــالات التنميـــة والخدمـــات إلى مســـتوى المديريـــات الأخـــرى بالســـودان الشـــمالي). إلا أن البنـــد الثانـــي طغـــى عليـــه ، وهـــو الـــذي ينـــص عـــلى (وقـــف ممارســـات الأحـــزاب السياســـية بتصديـــر مرشـــحين للبرلمـــان القومـــي بالخرطـــوم مـــن غـــير أبنـــاء دارفـــور ليفـــوزوا في دوائـــر جغرافيـــة بدارفـــور كأعضـــاء في البرلمـــان ، ويحجبـــون بذلـــك مشـــاركة أبنـــاء دارفـــور في الهيئـــات السياســـية التمثيليـــة)!

كان الهـــدف ممتـــازا ، كـــون قـــصر التمثيـــل البرلمانـــي عـــلى أهـــل المنطقـــة ، فهـــم الأقـــدر والأجـــدر بالدفـــاع عنهـــا ، وذلـــك بافـــتراض حســـن الاداء وكفاءة النيابـــة. لكـــن ، هـــل كانـــت كفـــاءة الأداء هـــي الهـــدف مـــن الاعـــتراض عـــلى المرشـــحين المســـتوردين مـــن المركـــز؟ للاســـف لـــم يكـــن ذاك هـــو الهـــدف الأســـاسي ، وانمـــا كان الهـــدف هـــو الحصـــول عـــلى هذه الســـلطة التـــي تذهب للاغـــراب! إنهـــا "ســـلطة الرجولـــة". تلـــك التـــي أجتهـــد د. فرانســـيس دينـــق ، خلالهـــا ، لاســـتلهام عـــذر للمتعلمـــين مـــن شـــباب الدينـــكا شـــديدي الولـــع بالســـلطة ، تلـــك الســـلطة التـــي يســـعون نحوهـــا بقـــوة ، واذا منعـــت عنهـــم قاتلـــوا ، وإن دمـــروا مجتمعاتهـــم! وفي ذلـــك يقـــول (وجـــد الشـــباب ، خاصـــة في الجنـــوب ، ممـــن تلقـــوا التعليـــم كخطـــوة نحـــو تقلـــد القيـــادة الحديثـــة لشـــعبهم وجـــدوا أنفســـهم في حـــيرة لأنهـــم لا ينتمـــون إلى مجموعـــة شـــباب المقاتلـــين التقليديـــة ولا يمثلـــون جـــزءًا مـــن ســـلطة الرجولـــة في الخرطـــوم. اعدهـــم التعليـــم لـــدور قيـــادي داخـــل إطـــار الدولـــة ، ولكـــن أنكـــر عليهـــم ذلـــك الـــدور الحديـــث ، ولهـــذا انخـــرط العديـــد منهـــم في النشـــاط التقليـــدي للمقاتـــل داخـــل حركـــة التمـــرد) [٢٢٣].

---

٢٢٢ - د.يوسف تكنه ، دارفور. صراع السلطة والموارد. ص ٩٧

٢٢٣ - د.فرانسيس دينق ، صراع الرؤى.. ص٢١١.

في الانتخابات البرلمانية عام ١٩٦٥م. حصدت الجبهة (٢٤نائبا من ابناء دارفور في الدوائر المخصصة لها من أحزابهم المختلفة. دون ان يكون هناك نائب واحد "مصدر" لها من خارج المديرية، وكلهم يؤمنون بالاهداف التي نادت بها جبهة نهضة دار فور) [٢٢٤].حسنا ، حصل أبناء دارفور على هذا العدد الكبير من النواب ، يجمعهم هدف واحد هو تنمية الإقليم ، كتلة برلمانية متحدة من ٢٤ نائب تمثل جميع الإقليم ، يمكنها التأثير على عدد مضاعف من النواب الآخرين أن قدموا طرحا جديا لقضية جادة. وهل ثمة قضية أكثر إلحاحا من التصدي لما يواجه الإقليم ، فماذا فعلوا؟! ماذا فعلوا مع هذا الزحف الصحراوي والجفاف الساحلي الأخذ في التطور؟!

للأسف ، لم أجد ، موقفا يكافئ هذا الحدث الهائل ، إذ كان يقف هناك "ديك المسلميه يشاهد بصلته تقلى"! ففي وصف حال الانتعاش التجاري لدارفور بعد حرب ١٩٧٣م. بين مصر وإسرائيل يقول الأستاذ/عبد الجبار محمود دوسه(ذلك الانتعاش التجاري الاقتصادي جعل الإقليم قبله لكل الراغبين من أبناء السودان في العبور عبره إلى ليبيا ، وأولئك الذين يريدون أن يجدوا موطئ قدم تجاري فيه. لقد شاهد المواطنون في إقليم دارفور التلفزيون الملون قبل اي مكان آخر في السودان رغم دخول محطة الاقمار الاصطناعية إليه خلف الكثير من أقاليم السودان الأخرى. كانت التليفزيونات الملونة وغيرها واحدة من آلاف السلع ، والمقتنيات والواردات التي كان يستجلبها القادمون من أبناء الإقليم من ليبيا ، للاستخدام الشخصي والتجاري. ومما لا زال عالقا بالذاكرة أن الأطفال في مدينة الفاشر كانوا يلبسون الملابس الفاخرة الجاهزة من الماركات العالمية المشهورة ، بما في ذلك الأحذية الإيطالية الشهيرة بأقل الاسعار لوفرتها في سوق المدينة ، ولم تكن اللبسة الجاهزة الكاملة للطفل لتزيد عن جنيه ونصف ، اي خمسة دولارات إلى نهاية سبعينيات القرن الماضي)[٢٢٥].

---

٢٢٤ ـ د.يوسف تكنه ، دارفور. صراع السلطة والموارد. ص ١٠٠

٢٢٥ ـ عبد الجبار محمود دوسه ، دارفوروأزمة الدولة ص ٦٦.

كان هـذا حـال الأهـالي ، والرمـال تزحـف نحوهـم في همـة كثيـب كثيـب. فمـاذا عـن حـال النخبـة الدارفوريـة بالعـودة إلى قـول الاسـتاذ/ دوسـه ، والـذي فيـه يقـول (وكمـا لـم يحـط مـشروع السـد فجـأة عـلى الدولـة ، لأن المباحثـات في أمـر المـشروع اخـذت عـدة سـنوات ، كذلـك كانـت كارثـة شـمال دارفـور لـم تكـن وليـدة لحظـة وانمـا جـاءت نتاجـا لتراكمـات تدهـور بيئـي معلـوم وبائـن القرائـن والاحـوال. غـير أنـه في حالـة شـمال دارفـور كان الإهمـال هـو سـيد الموقـف) [٢٢٦].

اذا ، يؤكـد السـيد دوسـه تمـام إدراك النخبـة الدارفوريـة حقائـق التطـورات البيئيـة مـن حولهـم. ومـما يدعـم هـذا الاتجـاه مـا نقـل د.تكنـه عـن د.شريـف عبـد اللـه حريـر أن بعـض الدراسـات قـد أوردت (بـأن الزغـاوة هجـروا ٤٧٥ قريـة مـن قراهـم البالـغ عددهـا ٨٠٤ في خـلال الفـترة مـن ١٩٧٠م. إلى ١٩٨٤م. إلى أجـزاء مختلفـة مـن دارفـور ومناطـق أخـرى مـن السـودان) [٢٢٧]. ففـي ظـل أوضـاع بالغـة السـوء مثـل مـا اسـتعرضنا ، كان ينبغـي جمـع الأمـة حـول الهـدف الأعظـم ، الأكثـر أهميـة عـلى الاطـلاق ، وهـو التصـدي بقـوة لهـذه الكارثـة ، لكـن ذلـك لـم يحـدث ، أو توخيـا للدقـة ، تـم اسـتصحابها عـلى اسـتحياء ، عـلى هامـش مؤتمـرات الصلـح بـين القبائـل. فقـد كثـرت النزاعـات الدمويـة بـين الرزيقـات الشـمالية ، وقبائـل جنـوب دارفـور بسـبب قلـة المرعـى، مـما اسـتدعى انعقـاد المؤتمـر الثالـث بـين قبائـل مديريتـي شـمال وجنـوب دارفـور خـلال الفترةمـن ١٦_١٨/١/١٩٨٠م. حيـث اشـترط على رعـاة شـمال دارفـور عنـد دخولهـم إلى مراعـي جنـوب دارفـور الالتـزام بتوصيـات وقـرارات المؤتمـر التـي تتعلـق بأمـر المـوارد الطبيعيـة ، واهمها (عـدم قطـع الأشـجار بجميـع انواعهـا مـن أجـل المرعى/عـدم الصيـد إلا في حـدود القانون/الحفـاظ عـلى المرعـى مـن التلـف والحرائق...الـخ). [٢٢٨].

---

٢٢٦ ـ نفس المرجع ، ص ٦٢.

٢٢٧ ـ د.يوسف تكنه ، دارفور. صراع السلطة والموارد. ص ١٩٨

٢٢٨ ـ د.يوسف تكنه ، دارفور. صراع السلطة والموارد. ص ٢٠٢

وتتجلى المفارقة، أن البند الاكثر أهمية ، وهو التدهور البيئي تم اختزاله باعتباره نتيجة وليس سببا للأزمة. حيث يلاحظ أن الحلول المفروضة كتوصيات ، كانت تستهدف بصورة مباشرة منع القتال بين القبائل ، لا وقف التدهور البيئي، إن وقف التدهور البيئي كان هدف أشد ضرورة وأكثر ملاءمة لهذا الجحفل الذي انحدر من مديريتين ،وهو أمر نادر الحدوث ، وكانت لتصدر توصياته مباشرةً نحو سبل مكافحة الزحف الصحراوي والجفاف ، والتي ستؤدي ،تلقائيا ، إلى وقف القتال بين الرعاة من شمال دارفور وجنوبها.

وعلى ضوء ذلك ، نعيد قرأءة التحذيرات التي أطلقها د. دريج بصفته حاكما للإقليم. ورغم تقديري لذلك ، حيث أجتهد لأجل إحاطة السلطة المركزية بقدوم الكارثة ، وكذا إعلام المجتمع الدولي عن طريق مخاطبته السفارات والمنظمات الدولية. إلا أن الأمر المؤكد ، أن دوره كان سلبيا ، فقد تأخر جدا!

فإذا استصحبنا المعلومات الواردة ، خاصة المتعلقة ببدء الجفاف والتصحر ، في إقليم شبه الصحراء _ دار زغاوة والبرتي _ منذ أواخر الخمسينيات ، وبدء شح الأمطار منذ العام ١٩٦٦م. واستمرار هذا الشح لثماني سنوات متوالية ، أدت إلى أسوأ موجات جفاف ساحلي ، نتجت عنها مجاعة إستمرت أربعة سنوات (١٩٧٠ _ ١٩٧٤م). وباستصحاب المعلومة المتعلقة بنزوح وهجرة عدد ٤٧٥ قرية من قرى الزغاوة _ من جملة ٨٠٤ قرية _ بفعل المجاعة الناتجة عن الجفاف والتصحر ، وذلك خلال الفترة مابين الأعوام ١٩٧٠ _ ١٩٨٤م. باستصحاب كل ذلك نجد أن تحذيرات د. دريج تكاد تخلو من مضمون! فإذا ، كانت هذه الأحداث تحت سمع وبصر النخب الدارفورية ، منذ أواخر الخمسينيات ، وفعلت فعلتها التي فعلت في الإقليم مراراً و تكرارا ، لماذا الصمت لنحو ثلاثة عقود ، والنهوض مؤخرا جدا بعد بلوغ السيل الزبى؟!

كنت اتمنى ان تكون انتفاضة دار فور ١٩٨١م. بسبب الجفاف والتصحر ، لكنها للأسف ، كانت ركضا خلف "الغنيمة" عشق المستعمر الزنجي!

انتفاضة دارفور١٩٨١م:

وفقـا للسيد/دوسـه ، أن أيـا مـن منصـب المحافـظ أو مديـر المديريـة لـم يعـين فيـه مسـؤول مـن ابنـاء دارفـور ، وذلـك حتـى العـام ١٩٨٠م حينمـا عـين محمـود بشـير جمـاع محافظـا عـلى محافظـة شـمال دارفور، كأول مسـؤول مـن ابنائها[٢٢٩].وبعـد مـرور عـام فقـط مـن تعيينـه، أصـدر النمـيري قـرارا بعزلـه في تاريـخ ١٩٨٠/١٢/٣١م. وفي الوقـت ذاته، عـين العميـد معاش/الطيـب المـرضي حاكمـا عـلى إقليـم دارفـور ، وهـو لا ينتمـي إلى دار فـور ، في حـين عـين عـلى بقيـة الأقاليـم حكامـا ينتمـون إليهـا.[٢٣٠]

لا جـدال في كـون ذلـك مثـيرا للحنـق ، ولكـن ، في سـياق الوقائـع ، هـل كان تعيـين حاكـم مـن داخـل الإقليـم او خارجـه القضيـة الاكثـر إلحاحـا ؟! للأسـف ، لـم يكـن الوقـت مناسـباً للجـدال حـول مـن يحكـم دارفـور ، وانمـا كان الأمـر المهـم للغايـة هـو كيفيـة تـدارك الكارثـة حتـى لا يمـوت انسـان دارفـور! تلـك كانـت هـي البطولـة الحقيقيـة ، لأن العـدو كان الجفـاف السـاحلي والتصحـر ، لا الجلابـي! مـن المؤسـف أن لا أقـرأ شـيئا ، متعلقـا بالسـلوك الشـخصي للطيـب المـرضي ، حينمـا انتفضـت دارفـور اعتراضـا عليـه. اذ انحـصرت سـداة الدعـوى ولهاتهـا في تهمـة كونـه مـن خـارج الإقليـم. وللمفارقـة ، خـلال تلـك الفـترة ، أثبتـت الأحـداث ، أن تعيـين مسـؤول عـلى إقليـم دارفـور ، مـن خـارج الإقليـم ، كان أمـر أكثـر رجاحـة! ولكـن تـم تعيـين ابـن المنطقـة د. دريـج، وكانـت الطامـة!

عـلى الصعيـد الشـخصي ، كان د. دريـج خيـارا جيـدا لتـولي حكـم الإقليم ، فهـو يمتلـك التأهيـل العلمـي والعمـلي وعميـق الاحـترام ، وكان ليكـون الافضـل في ظـل ظـروف طبيعيـة ، لكـن الظـروف لـم تكـن طبيعيـة في ذلـك الوقـت. فقـد أدت تطـورات الجفـاف السـاحلي والتصحـر إلى الكارثـة

---

٢٢٩ ـ عبدالجبار محمود دوسه.دارفور وازمة الدولة ، ص٩٨

٢٣٠ ـ نفس المرجع ، ص ١٠١

التي طالما تشاغل عنها كثيرون ممن يفترض اهتمامهم. وجر ذلك تداعيات أفضت إلى نزاعات أهلية متشعبة. وبالطبع ، كانت قبيلة الفور في قلب الصراع. كان يمكن لدريج ، إذا كان من خارج الإقليم ، أن يجد مساحة تحرك اكبر بين القبائل لكبح جماحها ، وربما أثمرت جهوده الطيبة في رتق النسيج المهلهل . ولكن ، للأسف ، كان الواقع مغايرا ، حيث نظر إليه ك "دريج الفوراوي" أكثر من كونه حاكما للإقليم ، ما أدى إلى تآكل وقاره ، خاصة بين خصوم قبيلته ، وهو الموقف الذي تورط فيه مرغما. وربما بسبب ذلك قفزت الحرب إلى درجة غير مسبوقة كانت أبرز نتائجها ، بعد سنوات قليلة ، بروز كيانات متصارعة تحت مسميات شاذة مثل "التجمع العربي" و "دار فور للفور" و "دولة زغاوة الكبرى"! وللمفارقة ، كانت هذه الكيانات المتصارعة ، قبل سنوات قليلة ، كيانا واحداً متحدا ضد الطيب المرضي.... الذي لا ينتمي للاقليم! [٢٣١].

لقد عاش دينكا الانقوك والحمر في عزلة نسبية ، ومع ذلك ، كانت تتخللها بعض الاحتكاكات العابرة التي يجتهد الزعماء لحلها. يصف د. فرانسيس دينق مستوى العلاقة بين القبيلتين حيث يقول (تحسنت العلاقة بالدور الحيادي للاداريين البريطانيين. وبانسحاب الاداريين البريطانيين عند الاستقلال ، بدأ وضع الانقوك والحمر على خط التماس بين الشمال والجنوب في التدهور التدريجي ، ووصل حدا كان فيه الفرق ضئيلاً مقارنة بالوضع السائد في الجنوب عامة) [٢٣٢].

إن هذا النموذج بين دينكا الانقوك والحمر يوضح مدى أهمية الإداري الذي لا ينتمي للاقليم. ،إذ لولا الدور الحيادي للاداريين الانجليز لساءت العلاقة بين القبيلتين. وبالطبع ، يعود العامل الحاسم في هذا الدور الحيادي للاداريين البريطانيين إلى عدم انتمائهم للقبائل المحلية.

---

٢٣١ ـ مقارنة مع دور تجاني السيسي عندما كان حاكما للاقليم.

٢٣٢ ـ د.فرانسيس دينق ، صراعالرؤى.ص ٢٣٥.

٠٨المركز والهامش

هــي أطروحــات بحثيــة اســتهلكت خــلال رصــد بعــض الأنســاق الاجتماعيــة ، الاقتصاديــة والسياســية. وقــد طرحــت قبــل قــرن ونصــف كأداة تحليــل للثــورة المهديــة. وكان ممــن فعلــوا ذلــك فريدريــك انجلــز. كتــب ســيرجي ســمرنوف (وفي رأي انجلــز أن حركــة المهديــة نشــات بســبب الــصراع الــذي دار بــين الأغلبيــة المســتغلة "القبائــل الرحــل" والاقلية المستغلة "أثريــاء المــدن") [٢٣٣].ويعــود أمــر أحيائهــا في الســودان إلى د. أبكــر آدم اســماعيل ، خــلال كتابــه ذائــع الصيــت. "جدليــة المركــز والهامــش". وهــو جهــد مقــدر ، ولنــا فيــه نظــرات. ولأن نطــاق هــذه الدراســة لا يســعف ، نكتفــي الآن ، بملاحظــة عابــرة حــول أطروحــة المركز والهامش.وذلــك فيمــا يتعلــق بموضــوع البحــث، خــلال هــذه الجزئيــة ، وهــي المســألة العرقيــة.

إن أول مأخــذ عليهــا كونهــا منحــازة ضــد العربيــة كعــرق والإســلام كديــن. وفي ذلــك أعتمــد الكاتــب عــلى ثلاثيــة د. محمــد عابــد الجابــري (نقــد العقــل العربــي: التكويــن، البنيــة ، العقــل الســياسي)[مركز دراســات الوحــده العربيــه. بــيروت] وقــد نقــل عنــه (أن أهــم إلاشــكاليات في الثقافــة العربيــة الإســلامية التــي تواجــه العــرب والمســلمين قبــل غيرهــم هــي أن:..........٤ /الثقافــة العربيــة الإســلامية ظلــت تجــتر التشــدد العرقــي الكائــن مــن زمــن الجاهليــة). [٢٣٤].ومثــل هــذا الادعــاء العريــض لا يمكــن التســليم بــه دون تمحيــص. وبــادئ ذي بــدء ، نتفــق مــع الكاتــب أن ثمــة تشــدد عرقــي في الثقافــة العربيــة والإســلامية. ولكــن نختلــف

---

٢٣٣ ـ ميخائيل سمرنوف ، دولة المهدية من وجهة نظر مؤرخ سوفيتي. ص١١٨.

٢٣٤ ـ د. أبكر آدم اسماعيل. جدلية المركز والهامش. ص ٧٠.

معــه في جعـل التشــدد العرقــي منتوجـا حصريـا لهمـا دون غيرهمـا . وإذا كان هــذا الزعــم صحيحــاً مــا هــو التفســير لنظــام "النبالــة" في البــلاد الأوربيــة المســيحية ، وهــو موجــود حتــى الآن؟ إن نظــام النبالــة يقابــل نظــام "الشرافــة" في البــلاد المســلمة ، فكمــا يوجـد هنــا "شريــف" مــا زال يوجــد في أوروبــا "نبيــل". وهنــا وهنــاك ، لا ســبيل للولــوج إليهمــا الا عــبر بوابــة العــرق. معلــوم أن مجلــس العمــوم البريطانــي مفتــوح أمــام أي بريطانــي ، ولكــن ، هــل مجلــس اللــوردات كذلــك ؟! أن قمــة التشــدد العرقــي يتمثــل في هــذا المجلــس الــذي يحتكــره ، إلا قليــلا ، النبــلاء وورثتهم شرعــا. فهــل ثمــة تشــدد عرقــي اعظــم؟ والتشــدد العرقــي يبلــغ منتهــاه في الهنــد اذ أن "الشرافــة" أو "النبالــة" مرتكــز أســاسي مــن مرتكزاتهــا الاجتماعيــة والسياســية والاقتصاديــة والثقافيــة، وهــي كذلــك ركــن أســاسي في بنــاء المجتمــع الافريقــي عمومــا. وفقــا لمــا ذكــره د.فرانســيس دينــق عن مجموعــة الدينــكا ، فــإن (الزعمــاء ينحــدرون مــن ســلالات محــددة ســلفا. والكبــار يســودون عــلى الشــباب ، والرجــال عــلى النســاء). [٢٣٥].

وعــلى ضــوء ذلــك ، فــإن التشــدد العرقــي ليــس قــصرا عــلى الثقافــة الإســلامية ، وانمــا تعرفــه كل الكيانــات الإنســانية. وكان في الســودان حتــى عهــد قريــب _ عنــد كثــير مــن القبائــل _ لا يســتهجن الــزواج مــن خــارج القبيلــة فحســب ، وانمــا داخــل القبيلــة نفســها تكــون البنــت حصريــا عــلى أبنــاء العمومــة والخؤولــة ، دون ســائر أبنــاء القبيلــة. كتــب د فرانســيس دينــق (بــين الفينــة والأخــرى تســمع تعليقــات مشــينة عــن أسر مــن الدينــكا ، تحمــل الــدم العربــي ، والتــي لا تعنــي فقــط أصــل الرقيــق ، بــل وعــدم صفــاء الــدم الدينــكاوي أيضــا. ويمكــن أن تتأثــر قــرارات الــزواج مــن عائــلات معينــة ، وبخاصــة الرجــل ، بخلفيــات مــن هــذا القبيــل. ولكن درجــات القبــول الشــخصي والعــام تســمو بشــكل واضــح عــلى نعــرات التحامل).[١]وكــذا أوضــح مــدى احتقــار فــروع قبيلــة دينــكا الانقــوك اخوتهــم الذيــن يســمونهم فــرع "الالي" لســببين: كونهــم آخــر مــن تحــرك

٢٣٥ ـ د.فرانسيس دينق ، صراع الرؤى. ص ١٨٧ .

مـن الشـمال نحـو الجنـوب. وكونهـم جسـمانيا يشـبهون العـرب![2] وهـذا ينـافي حـصر د. أبكـر آدم اسـماعيل للاسـتعلاء العرقـي بـين سـلالات العـرب ، وذلـك في قولـه (أمـا عـلى المسـتوى الاجتماعـي ، فقـد بـرزت ظاهـرة الاسـتعلاء العرقـي مـن قبـل الصنـف الثانـي). وقصـد بالصنـف الثانـي العـرب[٢٣٦].

وفقـا لقانـون دالي فـإن (الملـك وراثـي للابـن الأكـبر ، فـإذا لـم يـك مؤهـلا فلأخيـه الـذي يليـه) [٢٣٧].وهـذا هـو القانـون الـذي يحكـم عـرش سـلطنة الفـور. حيـث ينحـصر الملـك داخـل هـذه السـلالة ولا يخـرج عنهـا. والفـور ليسـوا بدعـا مـن الأمـر. إذ يسـود هـذا النظـام المبنـى عـلى التشـدد العرقـي كل الممالـك والسـلطنات تقريبـا. إن الإدارة الأهليـة في كل مـكان تؤسـس عـلى هـذا التشـدد العرقـي ، حيـث أن الشـئ الـذي يجمـع بـين قادتهـا (هـو أنهـم انحـدروا مـن بيئـات أسريـة ، وقبليـة توارثـت تقاليـد الحكـم وإدارة السـلطة بدارفـور منـذ عهـود بعيـدة) [٢٣٨].وهـو مـا تشـترك فيـه قبائـل السـودان جميعـا.

وفقـا لدكتـور تكنـه ، فإن مجتمـع الزغـاوة ينقسـم إلى ثـلاث مجموعات طبقيـة ، هـي فئـة السـلاطين ، وفئـة الرعايـا ، وفئـة الحدادين[٢٣٩].وهـي تقسـيمات عرقيـة وراثيـة صارمـة ، غـير مسـموح فيهـا بالتجـاوز ، ومرتكزهـا الأسـاسي هـو التشـدد العرقـي. ويقـول إن السـلطان بشـاره دوسـه ، سـلطان دار كوبـي أحجـم عـن مقابلـة الملـك السـعودي فيصـل ، عنـد زيارتـه لجنـوب دارفـور ، إبـان معـرض سـبدو ، حيـث ذكـر أن سـبب ذلـك تحرجـه مـن الذهـاب للملـك ، حيـث أن العـادة في دارفـور (هـي أن الملـك هـو الـذي يقـوم بزيـارة السـلطان ، حسـب المقـام ، وليـس العكـس كمـا ارادوا لـه في الدعـوة)! وكذلـك (قيـل إنـه تخـرج من

٢٣٦ ـ د ابكر ادم اسماعيل جدلية المركز والهامش.. ص ١٠٠.
٢٣٧ ـ د.يوسف سليمان تكنه ، دار فور والصراعالسلطة والموارد. ص٢٣٣.
٢٣٨ ـ نفس المرجع ، ص ٢٨٩ .
٢٣٩ ـ نفس المرجع ، ص ١٩٣.

مشـــاركة الاكل مــع زعمــاء العشــائر ، مــن الملــوك والشراتــي والنظــار في هــذه المناســبة ، باعتبــار أنهــم اولاد مســاكين) [٢٤٠].

وعــلى العمــوم ، لا ينحــصر التشــدد العرقــي في قبيلــة الزغــاوة وحدهــا، وانمــا يــكاد يكــون شــاملا كل قبائــل الســودان العربيــة وغــير العربيــة.

السلطة والثروة :

بمجــرد خــروج المســتعمر ورفــع علــم الاســتقلال ، ســيطر بعــض الشــماليين عــلى الســلطة ومــا يســتتبعها ، بالــضرورة ، مــن ثــروة. وليــس ابلــغ دلالــة مــن واقعــة ســودنة الثمانمائــة وظيفــة. ولكــن الســؤال هــو : هــل لذلــك دلالــة عرقيــة ؟ أو بوضــوح أكثــر : هــل فعلــوا ذلــك انطلاقــا من شــماليتهم "كونهــم شــماليين"ام لذلــك تفســير آخــر؟!

قــد تســعفنا تفاســير عديــدة في تفهــم ذلــك الاحتــكار. وأولهــا في ســياق الآيــة الكريمــة{ إِنَّ الْإِنْسَــانَ خُلِــقَ هَلُوعًــا ، إِذَا مَسَّــهُ الــشَّرُّ جَزُوعًــا ، وَإِذَا مَسَّــهُ الْخَــيْرُ مَنُوعًــا} . فانطلاقــا مــن هــذا ، يكــون مــا قامــوا بــه مــن محاولــة للاســتحواذ أمــرا مفهــوم الأســباب ، هــي أنهــم "انســان" وهــذا الإنســان إذا مســه الخــير منوعــا. ولا شــك أن الدولــة الغنيمــة خــير ، لابــد مــن منــع الآخريــن عنــه! وإذا قــدر لهــذه المســألة أن تحــصر في إطــار هــذا التفســير لربمــا لــم تقــم حــرب. لأنهــا مســألة "شرور إنســانية" وليســت "شــمالية". ولكــن ، للأســف ، مضــت الأمــور في اتجــاه معاكــس.

احتكــر اؤلئــك الشــماليون الســلطة بمجــرد رفــع علــم الاســتقلال ، وبمجــرد فعلهــم هــذا تصــدى لهــم الآخــرون ـ خــلال أقــل مــن ثلاثــة أعــوام ـ فقــد ســجلت لجنــة التحقيــق في اضطرابــات عــام ١٩٥٥م. في الجنــوب أنــه (لــم تكــن الإدارة الشــمالية في جنــوب الســودان اســتعمارية، إلا أن أغلــب الجنوبيــين لســوء الحــظ كانــوا يعتبرونهــا اســتعمارية). [٢٤١]. وعــلى ذلــك الأســاس أشــعلوا حربهــم الطويلــة. وأمــا أهــل الغــرب والشرق

٢٤٠ ـ نفس المرجع ، ٢٩٥

٢٤١ ـ د.فرانسيس دينق ، صراع الرؤى. ص ١٢٩

، فقـد ارتفـع صوتهـم ، معارضـا الاحتـكار ، حيـث تـم تأسـيس كيانـات جهويـة في العـام ١٩٥٨م. وبعـد عقـود انتهـوا إلى النتيجـة ذاتهـا ، وهـي الحـرب!

بفهـم عـام ، يمكـن القـول إن احتـكار السـلطة والثـروة ليـس أمـر مسـتهجنا في افريقيـا والسـودان إلا حـين يمارسـه "الآخـر"! يكـون غـير لائـق فقـط عندمـا يقـع مـن "الآخـر". ودليـل ذلـك عـشرات الحـركات المسـلحة ، التـي تقاتـل بلدانهـا داخـل أفريقيـا. يقـول د.محمـد سـليمان. (خـلال تأملنـا لـكل النزاعـات الدمويـة في السـودان وفي أقطـار القـرن الأفريقـي ، لاحظنـا أن القضايـا التـي تتعلـق بالتوزيـع العـادل للثـروات الطبيعيـة ، والاجتماعيـة ، والمشـاركة السياسـية الديمقراطيـة عـلى أسـاس قـدم المسـاواة ، والتنميـة المتكافئـة ، تقـف عـلى رأس قائمـة مطالـب مـن يحملـون السـلاح)[٢٤٢].وعليه ، فـإن السـؤال الـذي لـن يجيـب عليـه حملـة السـلاح هـو : هـل ازعجكـم احتـكار السـلطة والثـروة مطلقـا ، ام قيـام الشـماليين بفعـل ذلـك؟

حتـى أن منعـوا الإجابـة ، فـإن التاريـخ سـخي يمنحنـا إياهـا! يقـول التاريـخ إن سـلطنة الفـور كانـت موجـودة منـذ عـدة قـرون حتـى قـضى عليهـا في ١٩١٦م. وقـد حكمهـا عـشرات السـلاطين ، جميعـم مـن قبيلـة الفـور ، بـل مـن بيـت محـدد داخـل القبيلـة. ويكفـي أن نعلـم أن مـدة حكـم ثلاثـة مـن سـلاطينها بلغـت مائـة وسـتة وعشريـن سـنة: فقـد حكم سـليمان صولـون ٤١ سـنة ، مـن ١٥٩٦ _ ١٦٣٧م. وحكـم ابنـه موسى ٤٥ سـنة ، مـن ١٦٣٧ _ ١٦٨٢م. وحكـم حفيـده _ ابـن مـوسى _ أحمـد بكـر ٤٠ سـنة ، مـن ١٦٨٢ _ ١٧٢٢م. فـإذا أخـذ ثلاثـة مـن السـلاطين يمثلـون الجـد ، الأب ، والحفيـد مائـة وسـتة وعشريـن سـنة مـن عمـر دارفـور ، فـاي احتـكار أعظـم؟! وينطبـق ذات الأمـر عـلى النيـل الازرق التـي ضـاق أهلهـا بسـيطرة الشـماليين مـدة تـكاد لا تذكـر ، مـع أن سـلطنة الفونـج

٢٤٢ ـ د. محمد سليمان ، السودان. حرب المواردوالهوية.. ص٨٣.

تـوارث حكمهـا عـشرات السـلاطين (منـذ العـام ١٥٠٥م. وحتـى ١٨٢٠م.) حفيـد ، عـن أب ، عـن جـد !

ومـا يؤسـف ، أن هاتـين السـلطنتين ، رغـم احتكارهمـا السـلطة والثـروة لأكثـر مـن ثلاثـة قـرون ، لـكل منهمـا ، إلا أنهمـا فشـلتا في تنميـة مناطقهمـا تمامـاً. ثلاثـة قـرون ولـم تـتركا خلفهمـا تنميـة تذكـر : اقتصاديـة ، اجتماعيـة ، إنسـانية ، أو تنميـة مـن أي نـوع! حتـى الديـن فشـلتا في تطويـره بمـا يناسـب هـذه الثلاثـة قـرون مـن عمـر مجتمعاتهمـا. قـد يجـادل البعـض بـأن ذلـك كان غـير ممكـن لانقطاعهمـا عـن العالـم. وعليـه نـرد ، أن دارفـور كانـت طريقـا يربـط الـشرق بالغـرب ، وكانـت تـرد إليهـا بضائـع مـن اوربـا قبـل قرنـين . حتـى البـن الاوربـي كان موجـودا في دارفـور. فقـد ذكـر ناختيقـال أنـه وجـده هنـاك في ١٨٧٣م[٢٤٣].ونقـل عنـه قولـه (النـاس في دارفـور ينفقـون بـاسراف عـلى الملابـس أكثـر مـن أهـل وداي. فالملابـس المسـتوردة مـن برنـو وأقصى الغـرب الـذي مـا زال النـاس في وداي يعطونهـا تقديـرا واعـزازا ليسـت ذات قيمـة في دارفـور. فهـم يلبسـون الأقمشـة الأوربيـة والأقمشـة القطنيـه الرفيعـة الصنـع والحريـر المخلـوط وحتـى المخمـل.... وأسـاليب قصتهـا وحياكتهـا مختلفـة جـداً. فهنـاك الثـوب الخميـس ، أو أذن الكلـب نسـبة لفتحـة الكـم المقطوعـة عـلى شـكل مثلـث ، والـذي يسـقط مـن الكتـف إلى الكـوع. وهنـاك خشـم القربـة...ودرب الدود...الـخ. ويلبـس كبـار القـوم مـن العلمـاء القفطـان بالإضافـة إلى الثـوب وهـو مفتـوح مـن قـدام ، ويغطـى الـرأس بطاقيـة صغـيره ملونـة ، وهـي جيـدة الصنـع وغنيـة في ألوانهـا. أمـا الأحذيـة فهـي غالبـا مـن صنـع مـصري. وتلبـس بنـات الطبقـة العليـا ونسـاؤها سراويـل مـن الحريـر أو الكنفـوس المصنـوع مـن أقمشـة أوربيـة ، يطلـق عليهـا "نمـرة سـبعة" أو مـن الحريـر). [٢٤٤].

---

٢٤٣ ـ جوستاف ناختيقال وتاريخ دارفور، ترجمة النور عثمان ابكر، الناشر، الشركة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ٢٠١١م ، ص ٢٥

٢٤٤ ـ نفس المرجع ، ص ١٤

وكانت السلطنة مولعة باستيراد السلاح ممن حولها ، مع أن استيراد الكتب كان أسهل. لكنها لم تفعل!

أما سلطنة الفونج ، فلم تقل شانا عن دارفور. فقد كانت سنار ثاني أعظم مدينة أهلة بالسكان بعد القاهرة. كان يفد إليها التجار من القاهره ، الهند ، النوبة ، دنقلا ، البحر الاحمر ، فزان ، برنو وغيرهن. كانت مثل دبي اليوم مفتوحة للتجارة. ومع ذلك ، عجزت خلال ثلاثة قرون عن تحقيق تنمية لأهلها بما يتناسب مع هذا العمر السلطوي المديد. اولئك الذين استبد بهم الغضب جراء عجز حكومات الشمال عن تنمية منطقتهما خلال أقل من عقد واحد أو عقدين! يقول د. شريف حرير (فقد شاعت وتشيع مشاعر قوية معادية للجلابة في غرب وجنوب وشرق السودان. وقد قادت هذه المشاعر إلى حركات إقليمية في دارفور وكردفان ، وشرق السودان . كان وقودها شعور قاطني هذه الأقاليم بأنهم قد استبعدوا من الوصول إلى سلطة الدولة التي يسودها السودانيون النهريون، ويحمي موقعهم المسيطر ، ويؤيده التعيين الانتقائي في هيئات الدولة ، باستخدام المحسوبية التي تقوم على شبكات الجلابة التجارية والإدارية) [٢٤٥].

لم تكف نخب دار فور يوماً عن التذمر بشأن ذلك. كتب الاستاذ دوسه (اولئك الجنود الذين يأتي غالبهم من دارفور ، وعلى وجه الخصوص من القبائل العربية ، والتي تعيش أسوأ أنواع التهميش والتخلف التنموي . حيث يقضي معظم أبنائها حياتهم منذ الصغر على ظهر الماشية، والجمال والخيول والابقار ، في الترحال بلا تعليم ولا عناية صحية نظراً لغياب التنمية في دارفور بشكل عام ومناطقهم بشكل خاص) [٢٤٦].لا نود الخوض في تفنيد ذلك الآن ، لكن ، ماهو مفهوم الكاتب للتنمية؟! أليس الأمر في غاية البساطة ، ويتمثل في

---

٢٤٥ ـ د.شريف حرير ود. تيرجي تفيدت، السودان. النهضة أو الانهيار.. ص ٥٧.

٢٤٦ ـ عبد الجبار محمود دوسه ، دارفور وأزمة الدولة. ص٩٦.

إقنـاع آبـاء وأمهـات هـؤلاء الأطفـال ببيـع بعـض هـذه النعـم (الأبقـار ، الجمـال ، الخيـول... إلـخ) وتشـييد مـدارس للصغـار ، بـدلا مـن تركهـم يقضـون عمرهـم عـلى ظهورهـا؟! أليـس ذلـك أسـهل وأفضـل مـن حمـل السـلاح وتجنيـد هـؤلاء الغلمـة ليموتـوا في الحـرب؟

يـرى دوسـه أن إقليـم دارفـور قـد ظلـم في عهـد الإنقـاذ ، بعـد سـتة أشـهر مـن الانقـلاب ، في أول تشـكيل وزاري وتعديـل في المناصـب الدسـتورية.وان تعيـين الـولاة والمحافظـين قـد تجـاوز أبنـاء دارفـور، رغم انتمـاء كثـير منهـم للحـزب الحاكـم. وهـو شـئ مقصود.ويؤكـد إرسـاله رسـاله مكتوبـة للرئيـس البشـير فحواهـا الشـكوى مـن التجـاوز المتعمـد ، خاتمـاً إياهـا ، بتهديـد مبطـن حـين قـال (قـد يصمـت النـاس ولكـن في الصمـت كلام)! ويمـضي إلى شرح المقصـود منـه بقولـه (ولعلنـا الآن نـدرك أن كلام الصمـت ذاك قـد بـدأ ارتـداد صـداه جهـرا ، وبقـوة في النـزاع المسـلح ، حيـث بـدأت الثـورة ومـا زالـت)[٢٤٧]. وهـذا مما يدلـل عـلى أن النخبـة كانـت قـد بيتـت النيـة لأجـل توريـط البـلاد في حـرب لـم تكـن ابـدأ ضروريـة، فقـط لأنهـم اسـتبعدوا مـن الوصـول إلى مركـز القـرار. وفي الواقـع ، هـذا هوسـبب الحـرب اغلـب الاحيـان. عندمـا تفـوت الوظائـف النخبـة في مجتمـع مـا. فإنهـم في هـذه الحالـة يحاولـون الحصـول عـلى ما فاتهـم بالحسـنى ، وان اسـتعصى عليهـم ذلـك ، تندلـع الحـرب ويحـرق المجتمـع. أنهـا خاصيـة المسـتعمر الزنجـي - الفقهـاء والأعيـان المعفيـين مـن الضرائـب ، الباشـبوزق ، والجهاديـين - الـذي إن أعطـي رضي وان منـع أحـرق المدينـة.!

المركزوالهامش في عهد المهدية :

تسـببت الثـورة المهديـة في إفـراغ كثـير مـن أقاليـم السـودان عندمـا فرضـت عليهـم هجـرة قسريـة لإسـقاط حكومـة الأتـراك والمصريين.فقـد زحـف المهـدي وحولـه امـواج متلاطمـة مـن البـشر ، أسـقط بهـم الحكومة

٢٤٧ ـ نفس المرجع ، ص ٢٥

وكدسـهم فيمـا عرفـت لاحقـا بمدينـة ام درمـان وغيرها مـن المـدن الكبرى. ومـن بعـد فـرض الخليفـة هجـرة عـلى القبائـل مما أفقـر الريـف تمامـاً وكان الحصـاد مجاعـة سـنة سـتة. التـي كان مـن آثارهـا أن (انهمـرت سـيول المهاجريـن مـن الجهـات النائيـة صـوب وسـط السـودان للإقامـة بأمدرمـان ، وغيرهـا مـن المـدن القريبـة ، وتركـزت القـوات العسـكرية الكـبرى ومنشـآت الخدمـات الحربيـة في المـدن الكـبرى. وتضـاءل مركـز سـنار ، كمـا تضـاءل إلى حـد كبـير مركـز دار فـور) [٢٤٨].

أمـا اقتصـاد السـوق فقـد (تطـور عـبر الاقتصـاد السـائد للاكتفـاء الذاتـي ، لـدى إنشـاء كثـير مـن الأسـواق المحليـة الجديـدة في أرجـاء البـلاد المختلفـة ، لكـي تصبـح فيمـا بعـد اسـواقا كـبرى في شـتى المراكـز. وسـوق ام درمـان ، هـو السـوق المركـزي ، الـذي اتصلـت بـه كل الأسـواق الأخـرى ، بمـا في ذلـك الأسـواق النائيـة)[٢٤٩].إن هـذا يدلنـا عـلى أن تنميـة المركـز وإهمـال الأطـراف كان صناعـة مهدويـة بامتيـاز ، وصـادف أن مهندسـها الفعـلي كان الخليفـة التعايـشي ، اشـهر أبنـاء غـرب السـودان. لقـد أجتهـد لجمـع الجميـع في البقعـة ومـا حولهـا ، شـأن شـيخه المهـدي. وقـد أدى ذلـك إلى تدمـير ماحـق لدارفـور. نعـم ، يعلـم النـاس أن الأتـراك والمصريـين هـم مـن جعلـوا العاصمـة الخرطـوم ، وجعلـوا المركزيـة القابضـة _ عـدا سـنوات قليلـة مـن عهدهـم _ هـي اسـلوب الحكـم ، وأضعـف ذلك مـن دور سـنار ودارفور.ولكنهـم لـم يهجـروا النـاس كمـا فعلـت معهـم المهديـة ليتركـوا ديارهـم قاعـا صفصفـا! ومـع ذلـك ، فـإن تصرفهـا كان مفهـوم الدوافـع كسـلطة عسـكرية متسـلطة.حيث (تبقـى الحقيقـة دائمـا أن السـلطة العسـكرية ، غالبـا مـا تفـرز التمركـز في عاصمـة كبـيرة، فيهـا كل شيء ، مـع إهمـال تـام لبقيـة الأقاليـم ، يصحبـه تدهـور كامـل لأحـوال النـاس المسـالمين نتيجـة للضغـط والحاجـة ، خـراب التجـارة ،وتدهـور التعليـم ، وتدنـي الـروح المعنويـة ، حتـى للضبـط والربـط في الجيـش نتيجـة للنفخـة الكذابـة ، واسـتمرار الزهـو والإعجـاب بالنفـس) [٢٥٠].

---

٢٤٨ ـ سيرجي سمرنوف. ، الدولة المهدية من وجهة نظر مؤرخ سوفيتي. ص١٦٥.

٢٤٩ ـ نفس المرجع ، ص ١٦٤

٢٥٠ ـ ونستون تشرشل ، تاريخ الثورة المهدية والإحتلال البريطاني للسودان ، ص ٧٣.

مهمـــا يكـــن ، فـــإن ســـند رؤيـــة المركـــز والهامـــش ألى اســـباب عرقيـــة كان خلـــلا جوهريـــا حيـــث جعـــل مـــن ألحـــق والباطـــل يـــدور تبعـــا للعـــرق. فأصبـــح كل مـــن كان أصلـــه يعـــود لمناطـــق محـــددة ظالمـــا بالجملـــة ، فنقول "الشـــماليون ظالمـــون" بـــدلا مـــن أخـــذ كل منهـــم بجريرتـــه. وكـــذا نقـــول "الغرابـــة مظلومـــون" ! هكـــذا جملـــة ، مـــع أن فيهـــم مـــن هـــو أســـوأ الســـوء!

إن الشـــمال عانـــى ذات أزمـــات البـــلاد ، وزاد عليهـــا في بعضهـــا! لنقـــرأ خـــبرا مفـــاده شـــكاية منطقـــة في الولايـــة الشـــمالية يســـتنجد أهلهـــا مـــن ضر وقـــع عليهـــم. ففـــي تحقيـــق أجرتـــه الصحفيـــة ســـلمى عبداللـــه ، عـــن أثـــر التعديـــن العشـــوائي عـــلى عـــدة قـــرى ـ واوا ، ارو ، صـــواردا ،عبـــود وكويـــكا ـ والشـــكاية غايـــة في البســـاطة والغبـــن ، تتمثـــل في تضررهـــا مـــن مـــواد ســـامه تســـتخدم في صناعـــة التعديـــن ـ ســـيانيد و زئبـــق ـ إذ تســـببت في وفـــاة اعـــداد كبـــيرة مـــن النـــاس بـــداء السرطـــان الناتـــج عـــن الاســـتخدام غير الســـليم. وذكـــر أن معظـــم البيـــوت رزئـــت بإصابـــة فـــرد أو أفـــراد منهـــا. ويبـــدو أن آذان الحكومـــة بالـــكاد تصغـــي إليهـــم ، رغـــم العائـــد الكبـــير مـــن هـــذا التعديـــن. فرفعـــوا مظلمتهـــم للصحـــف عـــسى ولعـــل! [٢٥١].وفي هـــذا الســـياق ، تواتـــرت الأنبـــاء منـــذ عهـــد مايـــو بشـــأن دفـــن الرئيـــس جعفـــر النمـــيري النفايـــات المشـــعة في الشـــمال. وممـــن أشـــار إلى ذلـــك بروفيســـور ســـيد احمـــد العقيـــد ، حيـــث قـــال (النفايـــات المشـــعة التـــي تـــم دفنهـــا في الشـــمال ، في عهـــد ســـئ الذكـــر العقيـــد جعفـــر نميري).[٢٥٢].فهـــل يعقـــل هـــذا؟! اذا كانـــت الأمـــور تبنـــى عـــلى العرقيـــة كمـــا اعتقـــد الكثـــيرون ، ومازالـــوا ، فمـــا أســـهل التخلـــص مـــن مثـــل هـــذه الســـموم في أجـــزاء أخـــرى مـــن الســـودان. كان بإمـــكان "أمـــير المؤمنـــين" دفـــن هـــذه النفايـــات في غـــرب الســـودان ، أو جنوبـــه ، أو حتـــى في الـــشرق ، فمـــن كان بمقـــدوره الاعتراض؟!

وإذا اضفنـــا إلى ذلـــك وفـــاة اعـــداد كبـــيرة مـــن النـــاس ، خاصـــة الأطفـــال

---

٢٥١ ـ صحيفة التيار. العدد. ١٧٠٤ .بتاريخ ٢٠١٦/١٠/٣٠م. مقال/القاتل الصامت.

٢٥٢ ـ بروفيسور سيد احمد العقيد ، الخليفة الشهيد ، ص ١٧٢

في قـرى المناصـير لسـنوات طويلـة ، دون حـل جـذري مـن الحكومـة ، رغم نداءاتهـم آلتـي لـم تنقطـع نجـد في الأمـر عجبـا! ولكنـي ، مـع ذلـك ، أتسـاءل مـا دور المواطـن الايجابـي في إيجـاد حـل ناجـع؟!

وثمـة سـؤال جوهـري: لمـاذا لا يسـتطيع أهـل السـلطة ومعظمهـم شـماليون حـل مشـاكل المواطـن البسـيط ، في الشـمال عـلى الأقـل؟! والإجابـة غايـة في البسـاطة ، وهـي أنهـم كانـوا قـد قـد نهبـوا الدولـة نهبـا ، لسـعادة أسرهـم الصغـيرة ، لا الشـمال . وعليـه ، فمـن أيـن ياتـوا بالمـال لإسـعاد الشـمال كلـه؟! لـن يسـتطيعوا ، وإذا شـكا هـؤلاء البسـطاء فالشـكوى إليهـم، فهـم الخصـم والحكـم!

وهـو ذات الـدور الـذي تمارسـه نخـب الهوامـش. إنهـا خصيصـة المسـتعمر الزنجـي أينمـا كان، وهـذا هـو أصـل الـصراع الحقيقـي ، بـين ظالـم ومظلـوم ، سـواء كانـا مـن الإقليـم ذاتـه أو أقاليـم مختلفـة.

وليـس بـين عـرق وعـرق. فعندمـا يكـون الـصراع عـلى حقيقتـه التـي أوضحنـا يسـهل اتحـاد المظلومـين مـن كل أنحـاء السـودان ضـد الظلـم والظلمـة ، لأن المعيـار بسـيط واضـح هـو الحـق والباطـل ، لا العـرق والعـرق المضـاد !

الباب الرابع

ضلالات الترميز العرقي

الفصل الأول
ضلالات الترميز العرقي

أدى الترميــز العرقــي إلى خطــأ منهجــي أفــضى إلى إســاءة تشــخيص الأزمــة. نعــم ، كانــت لجنــوب الســودان أســبابه التــي قتلــت بحثــا ، ولكــن ، للأســف لــم تــزد معظــم البحــوث عــن اغراقهــا في مســتنقع العــرق والهويــة. عــلى كل ، مــن بــين ركام تخبــط القوميــين ، ومــا تمخــض عنــه مــن فشــل ذريــع في إدارة الدولــة ، ارتفــع صــوت العرقيــين داعيــا إلى التخلــص مــن الســبب الجوهــري لتخلــف الجنــوب وهــو مصــدر العنصرية ، أي المندكــورو باعتبــاره يحمــل العرق/الهويــة المختلفــة. وذلــك بإشــعال الحــرب. وصنــع الخــراب و مــن بعــد ، ربمــا ، التفكــير في البنــاء!

وفي المقابــل ، كان لآخريــن رؤيــة أكثــر عمقــاً ، وابعــد إدراكا. فقبــل أكثــر مــن ســتة عقــود تقريبــا ، كتــب المفكــر والقيــادي الجنوبــي جوزيــف اوكيــل قرنــق (هــل اليمينيــون عــلى حــق في زعمهــم بــأن مشــكلة جنــوب الســودان هــي عنصريــة في جوهرهــا؟ ومــاذا ســيكون مســتقبل شــعب جنــوب الســودان اذا انفصــل؟ في رأينــا أن فكــرة اليمينيــين في القــول بــأن اختــلاف العــرق هــو جوهــر قضيــة جنــوب الســودان فكــرة خاطئــة. فــإذا كان العامــل الحاســم في قضيــة الجنــوب هــي العــرق ، فبمــاذا يمكــن لليمينيــين أن يفــسروا النزاعــات بــين شرق وغــرب وشــمال نيجيريــا؟ أو نزاع الشــمال والجنــوب في غانــا؟ أو طلــب بوغنــد الانفصــال في دولــة مســتقلة؟ أو النــزاع بــين مــصر والعــراق؟ في بدايــات القــرن التاســع عــشر أنشــئت دولــة ليبيريــا كدولــة للرقيــق المحرريــن الذيــن جمعوا مــن امريــكا وأوروبا. فكيــف يمكننــا اذا أن نعلــل كــون هــؤلاء الرقيــق المحرريــن قــد اســتعبدوا

زنــوج ليبيريــا المحليــين حتــى ســنة ١٩٣٩م؟ وبالمقابــل ، كيــف اســتطاعت أعــراق متباينــة أن تعيــش بســلام وســعاده في أقاليــم الاتحــاد الســوفيتي؟ فهنــاك تجــد الــروس والجورجيــين والتتــار ، والاوزبيــك والكازاخســتانيين والمنغوليــين يتعايشــون جنبــا إلى جنــب. الا يبــين ذلــك بوضــوح أن اختــلاف ألاعــراق ليــس عنــصراً حاســماً في قضيــة جنــوب الســودان؟ فالعامــل العنــصري والعرقــي لــم يكــن يومــاً بالعنــصر الأســاسي والحاســم. وحتــى في جنــوب افريقيــا فــإن جوهــر الأزمــة ليــس عرقيــا. فالتمييــز العرقــي هو مجــرد نتيجــة. إنــه مظهــر لعوامــل خفيــة أعمــق) [٢٥٣].

للاســف ، ذهبــت صرخــات جوزيــف اوكيــل قرنــق معــه. إذ نــدر بعــد ذلــك إن ارتفــع صــوت بهــذا القــدر مــن الدقــة والشــمول. فرغــم حــدوث العديــد مــن الأمثلــة حــول العالــم ، ممــا بــات مؤيــداً لرؤيتــه العميقــة ، إلا أن مــوج العرقيــة كان متلاطمــا. وللســخرية ، لــم تــؤد بــروز حــالات كالصومــال ، والكنغــو إلا إلى مــا ظنــه العرقيــون تأكيــدا لمزاعمهــم!

في الواقــع ، يبــدو أن جوزيــف قرنــق كان قــد اســتلهم رؤيتــه مــن ثنايــا الداخــل أكثــر مــن الخــارج. إذ يبــدو تحفيــز المجتمــع المحــلي أكثــر وضوحــا مــن أثــر صراعــات نيجيريــا وغانــا وغيرهمــا. فالمجتمــع الجنوبــي يبــدو شــديد التجانــس ظاهريــاً ، لكــن هــل يخلــو مــن الازمــات الحــادة بــين مكوناتــه ؟

يقــال إن قتــالاً عنيفــاً بــين الدينــكا والشــلك ســاد القــرن الســابع عــشر بســبب الأرض. واســتمرت الحــروب بينهمــا خــلال المائتــي عــام التاليــة ، إلى أن وضــع رث الشــلك القــوي اكــوت (١٨٢٥ _١٨٣٥م) لهــا حــدا، عندمــا اســتطاع القضــاء عــلى تهديــد الدينــكا لأرض مملكته[٢٥٤].أمــا النويــر فقــد دارت بينهــم وجيرانهــم الدينــكا حــرب شرســة طيلــة ثلاثــة قــرون. [٢٥٥].

---

٢٥٣ ـ جوزيف قرنق ، مأزق المثقف الجنوبي، ص٤٧/٤٨.
٢٥٤ ـ تاريخ السودان الحديث. روبرت أو كولنز. ص٢٢.
٢٥٥ ـ نفس المرجع ، ص ٢٣ / ٢٤

وفي أواسط القرن الثامن عشر فتك النوير بالدينكا ، ونهبوا نساءهم وأموالهم واغتصبوا أرضهم[٢٥٦].وفي ستينيات القرن العشرين ، خلال مؤتمر المائدة المستديرة ، برز الجنوبيون ككيانات عرقية شديدة التباين[٢٥٧] وكان ذلك حال الاتحاد الوطني الأفريقي السوداني في لندن خلال تلك الفترة. [٢٥٨] وفي ١٩٦٩م. حدث صدام كبير بين الدينكا والباريا ، بسبب سيطرة الدينكا على حكومة النيل التي تكونت عقب مؤتمر الحركة في ١٩/مارس/١٩٦٩م. [٢٥٩].

وفي بدء التسعينيات من القرن الماضي ، إبان إنشقاق الناصر الكبير، اغارت قوات الانيانيا المكونة من النوير بدعم من ائتلاف مشار _ غوردون كونغ _ ولام اكول على أرض الدينكا ، في وحشية ، فقتلت ونهبت. وردت الحركة الشعبية بوحشية أكبر [٢٦٠]. وقيل إن أكثر من ألف شخص قتلوا نتيجة صراع الأجنحة المنقسمة ، عندما اعترض النوير سرية من جنود الانقوك وابادوهم، حيث كانوا في طريقهم للانضمام للحركة الشعبية[٢٦١].واستمرت المعارك بين أجنحة الحركة الشعبية المختلفة فيما بينها ، وبين جميع جيوش التمرد مع بعضها بعضا حتى توقيع اتفاقية سلام نيفاشا. وهذا غيض من فيض!

وفي عام ١٩٨٦م. في كوكا دام خاطب د. قرنق القوى السياسية الشمالية ، مؤكداً أن قضيتهم الأساسية تتمثل في أن السودان ظل ، ولا زال يبحث في وجدانه عن هويته الحقيقية ، وأن اتخاذ السودانيون الاسلام والعروبة هوية للبلاد هو سبب لجوء الجنوب للانفصال[٢٦٢].

---

٢٥٦ - نفس المرجع ، ص ٢٤

٢٥٧ - نفس المرجع ، ص ١٠٢

٢٥٨ - نفس المرجع ، ص ١٠٢

٢٥٩ - نفس المرجع ، ص ٩٨

٢٦٠ - صراع الرؤى.د. فرانسيس دينق. ص٢٢٠

٢٦١ - نفس المرجع ، ص ٢٢٣

٢٦٢ - صراع الرؤى.د. فرانسيس دينق. ص٣١

في الحقيقة ، لم يبدأ الجنوبيون استخدام المصطلح اولا ، وانما استعاروه من الشمال. فمنذ عشرينيات القرن العشرين ، غرقت النخبة السودانيه ،في لجة من الجدال حول من هو السوداني ؟ وما هي المعايير التي تجعل الإنسان سودانيا؟! وفي الثلاثينيات ، ما بين عامي ١٩٣٤/١٩٣٥م ، في صحيفة الفجر ،طرح محمد احمد المحجوب مسألة الهوية ، مؤكداً على ضرورة "إنشاء ثقافة سودانية منفصلة عن الثقافة المصرية" ولكن ملتقية معها على صعيد شرقي ، عروبي، اسلامي [٢٦٣]. وقد أنتجت جدالا كثيفاً ، ومنذ ذلك الحين غرقت النخبة في هذا المستنقع ولم تخرج ، رغم حسم الجدل على الصعيد القانوني الذي يعرف السوداني ، خلال معايير استحقاق الجنسيه السودانية. وعلى ضوء ذلك ، كان متوقعا من النخبة إنهاء النقاش والمضى قدماً ، إلا أنها ، بكل أسف ، اختارت الغرق في مياه وهمية إسمها الهوية!

وفي السياق ذاته ، رغم وحدة الدين في الشمال ، إلا أن هناك من ظل يبحث عن هويته بعيدا عن السودان الشمالي. خلص د. أبكر آدم اسماعيل إلى القول :(وزبدة القول إن الصراع في السودان قد تطور إلى صراع هويات ، صراع بين المركز والهوامش. وهذه قمة الأزمة في الوضعية التاريخية لجدلية المركز والهامش) [٢٦٤].

وفقا لروبرت أو كولنز فإن (تحديد ما يشكل الهوية هو من الأمور المحيرة ، وصعبة المنال ، بالضبط مثل محاولة تفسير العنصرية. ولكن تحديد من هو السوداني مازال يمثل مقوما آخر للعنصرية الثقافية. ففي زمن الفتح التركي المصري تم تبني الهوية الإسلامية العربية من جانب سكان السودان الشمالي. وتمثلت مقومات هذا في التحدث بالعربية والادعاء بالاصل العربي ، واعتناق

٢٦٣ ـ د.محمد أبو القاسم حاج حمد ، السودان. المأزق التاريخي وآفاق المستقبل.. ص٣٥٥.
٢٦٤ ـ د.ابكر ادم اسماعيل ، الديمقراطية واشكال الهوية.. ص٦٥.

الديانة الإسلامية. أما في سنوات الحكم البريطاني المصري فقد أدخل المسئولون البريطانيون اللغة الإنجليزية ، والفكرة الغربية عن القومية وسط أبناء العائلات العربية المرموقة. ولكن ، هؤلاء بدورهم بدأوا في البحث عن الهوية السودانية)[٢٦٥].

اذا ، يبدو أنه ، على رأس أكثر الأشياء غموضاً يبرز مصطلح "الهوية". فما هي؟! الله وحده يعلم! ما هي هذه الهوية؟! مهما صيغت في شأنها التعريفات فهي عدم! إنها محض وهم ، شئ ما ، لا لون له ولا رائحة ، ولا طعم ، ولا يمكن الامساك بها! ما هي عناصرها؟! العرق ، اللغه ، الدين ، الثقافة...الخ. جميعها عوامل متحركه ، قابلة للتبدل ، في الواقع هي أقرب لنظرية التبادل والتوافيق: فمثلا ، يمكن فقدان اللغه أو اكتسابها ، ويمكن تبديل الدين ، أما الثقافة فقابلة للاستلاب أو الابدال الكامل ، وكذا يمكن تغيير تركيبة الاعراق بالتزاوج مختلط الاعراق ، خاصة إذا تكرر على نحو مستمر،وهكذا ، فماذا بقي من عوامل ؟! إن انموذجا صغيراً يفضح وهميتها جهارا : فما هي هوية شخص مولود في الصين ، لأب افريقي من أم اسكندنافية ، يتحدث اللغة التايلندية ، ويعتنق الديانة الهندوسية؟! أو لنموذج أقل سفسطة ، حيث ولد شخص اسود لأبوين سودانيين في بريطانيا ، ويتحدث الانكليزية ولا يعرف حرفاً من أي لغة أو لهجة سودانية ، ولا يدين بدين، ويحمل الجنسية البريطانية. فأي هوية له؟!

ومع كل هذا ، رؤي أن اختلاف الهوية/العرق هو الجذر الأساسي للمشكلة الجنوبية الشمالية ، وأنه المهدد لبقاء السودانيين الجنوبيين والشماليين معا. كتب د. فرانسيس دينق (فهناك العديد من الأسباب التي تشير إلى أن المشاكل القائمة على العرق ، الدين ، الثقافة، والاثنية سوف تظل تقوض وتهدد السودان الموحد. ومهما يكن حجم إطار

---

٢٦٥ - روبرت أو كولنز.تاريخ السودان الحديث. ص٢٥.

الوحـدة الوطنيـة واسـعا أو محـدودا ، فـإن أسـس الهويـة نفسـها ، والتـي تقـف حجـر عثـرة أمـام الوحـدة الكاملـة والتكامـل ، سـوف تعمـل عـلى تقسـيم البـلاد. فالخلاصـة الحتميـة تشـير إلى أنـه ، وحتـى في حالـة تحقيق إطـار فضفـاض للوحـدة ، ربمـا لا يتحقـق القبـول المتبـادل بالدرجـة التي تضمـن اسـتمرارية الوحـدة. ولذلـك فـإن الخيـار الوحيـد المتبقـي في هـذه الحالـة هـو تقسـيم البـلاد).[٢٦٦].

في الواقـع ، لـم تكـن حـال الجنوبـي مـع الجنوبـي أفضل مـن حاله مع المندكـورو. ومـن مثـل ذلـك مـا حملـه بيـان أحـد قـادة الحركـة الشـعبية الكبـار ، وليـم نـون ، والـذي أصـدره يـوم ١٩٩٢/٩/٢٨م. منتقـداً فيه د. جـون قرنـق واصفـاً إيـاه بأنـه (وحـش فظيـع ، يقـوم بترسـيخ النعـرات القبليـة)[٢٦٧].وفقـاً لفتحـي الضـو لخـص البروفيسـور/ بـاري وانجـي المشـهد ، عندمـا كان يواسـيه فيمـا يعانيـه مـن تنمـر بعـض الجنوبيـين في الحركـة الشـعبية عليـه ، إسـتناداً إلى خلفيتـه كـ جلابـي. فقـد جـاء في ثنايـا حديثـه (... وعليـه ، يجـب أن لا يكـون رد فعلـك الحديـث عـن الجنوبيـين كجنوبيـين ، فالجنوبيـون يختلفـون فيمـا بينهـم ، ولهـم نفـس النظـرات مـع بعضهـم البعـض ، ولهـذا يجـب أن يكـون رد فعلـك حـول إنسـانية الفـرد) [٢٦٨].

إذا ، توصـل الجنوبيـون ، بصـورة أو أخـرى ، إلى أن الوحـدة هـي جـذر الأزمـة. أو بدقـة أكثـر ، الوحـدة الوطنيـة داخـل وطـن تعيـش فيـه حـوالي ٥٧٠ جماعـة ، معظمهـا غـير متجانـس مـع الجنـوب هـو أسـاس المشـكلة. وفي الوقـت ذاتـه ، فـإن وحـدة العنـصر الزنجـي وقلـة عـدد جماعاتـه _ حيـث تعيـش في الجنـوب حـوالي ٦٠ جماعـة زنجيـة الأصـل _ هـو مفتـاح الحـل. وكان ذلـك هـو الأسـاس الـذي بنـي عليـه الانفصـال. وعـلى هـذا

٢٦٦ ـ صراع الرؤى.د. فرانسيس دينق. ص٣٠

٢٦٧ ـ فتحي الضو ، السودان سقوط الأقنعة ، سنوات الخيبة والأمل ، الطابعون شركة سوتير ، الزيتون ، القاهرة ٢٠٠٦م ، ص ٢١٦

٢٦٨ ـ نفس المرجع ، ص ٢٠٦

الأساس وقع، حينما صاح باقان اموم "باي باي مندكورو"! "باي، باي مندكورو"! ومن بين ثنايا هذه الصرخة ولدت دولة جنوب السودان!

وباعجل ما كان ، وعلى نحو متوحش ، اندلعت حرب ضروس بين ذوي العرق والهوية الواحدة ، تصارعت الرؤى. نقلت إذاعة B.B.C بتاريخ ٢٠١٥/٦/٣٠م. خبرا مروعا عن الدولة الوليدة، حيث اتهمت الأمم المتحدة جنوداً من جنوب السودان باغتصاب عشرات الفتيات اغتصابا جماعياً ، قبل حرقهن في منازلهن. وكان هذا تطورا نوعيا للحرب ، إذ لم تبلغ الأمور مثل هذا الحد من الدناءة والوحشية، طيلة نصف قرن من الصراع مع المندكورو! وفي العام ٢٠١٨م. دعا مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة ، حكومة جنوب السودان إلى إدانة المسؤولين عن الاعتداءات الجنسية الأخيرة التي وقعت في البلاد ومحاسبتهم. وأعرب عن استعداده لفرض عقوبات على الجناة. وتعود الأحداث إلى الفترة مابين ٢٢_٢٩ نوفمبر ٢٠١٨م. حينما قام رجال مسلحون يرتدون ملابس عسكرية ومدنية ، ويعملون في المناطق التي تسيطر عليها الحكومة ، في ربكونا بولاية الوحدة ، باغتصاب أكثر من مائة وخمسين امرأة وفتاة![٢٦٩]. وقبل ذلك ، في العام ٢٠١٧م كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد هددت حكومة جنوب السودان باتخاذ إجراءات ضدها إذا فشلت في إنهاء الحرب المستمرة التي أسفرت عن مصرع عشرات الآلاف من الأبرياء ، وتشريد نحو أكثر من مليوني شخص.[٢٧٠].وهذا غيض من فيض!

بعد عامين ، تقريباً ، من اندلاع الحرب ،في حوار مع الناشط الجنوبي ستيفن لوال أشار إلى تقرير منظمة العفو الدولية الذي حدد قتلى حرب الجنوب بعد الانفصال بحوالي ١٦٠ ألف قتيل ، وتشريد

٢٦٩ ـ صحيفة الانتباهة. العدد ٤٤٨١. بتاريخ ٢٠١٨/١٢/١١م.

٢٧٠ ـ صحيفة السوداني. العدد. ٤٢٦٨. نقلا عن واشنطن

نحـو مليـون شـخص ، مـع تعطـل للتنميـة والاسـتقرار [٢٧١].وبعـد عقدين تقريبـا ، مـن مقـال د فرانسـيس دينـق الجـازم بـأن اختـلاف العـرق والهويـة يقوضـان الوحـدة الوطنيـة ، ممـا يحتـم الانفصـال حفاظـاً عـلى العـرق الجنوبـي وحمايـة لـه. هاهـو الناشـط اسـتيفن يـرد عـلى محـاوره الصحفـي الـذي كان قـد سـأله عمـن اسـتندوا إلى ذات الأسـباب ، وطرحـوا الانفصـال عـن الدولـة الوليـدة، إذ صـاح بعصبيـة (ينفصلـون عمـن؟! هـم كلهـم جنوبيـون ، ومتحـدون ، وانفصلنـا عـن السـودان الشـمالي لأن فيـه ٦٠٠ قبيلـة! نعـم، هنـاك مـن يتحـدث عـن مـشروع دولـة اعـالي النيـل الكـبرى. وهـذا حلـم لـن يتحقـق إطلاقـاً. هناك ميـزة عنـد شـعب الجنوب. أنهـم يتحـدون عنـد الشـدة) [٢٧٢].وبالطبـع، لـن يفـوت عـلى فطنـة السـيد اسـتيفن إدراك أن كلا الرقمـين ٦٠٠ و ٦٠ يقبـلان القسـمة عـلى اثنـين عـلى الأقـل. ويجـب عليـه دومـا تذكـر قـول مواطنـه د. فرانسـيس دينـق أن (الدينـكا والنويـر مقاتلـون لا يتوانـون في إثبـات حقوقهـم كمـا يرونهـا بالقوة)[٢٧٣].وكـذا قولـه في موضـع آخـر (ومجتمـع النيليـين عنيـف جـدا ، ليـس فقـط في مجابهـة المعتديـن الغربـاء ، ولكـن أيضـا داخـل المجتمـع نفسـه) [٢٧٤].

والسـؤال الجـدي هـو ، لمـاذا اندلعـت الحـرب في الدولـة الوليـدة ، بعـد سـنة واحـدة تقريبـا مـن تحقيـق حلمهـا الأعظـم ، الانفصـال؟! وكيـف يتصـور لجـوء رئيـس دولـة ونائبـه للحـرب لأجـل حـل خلافاتهمـا بـدلا مـن حلهـا في اجتمـاع مغلـق بـين زجاجـات الكـولا؟!

ينظـر كثـيرون إلى الأسـباب الظاهـرة المتحجـج بهـا ، ولكـن الحقيقـة هـي أن السـبب الرئيـسي يعـود إلى ضـلالات الترميـز ، التـي أدت إلى خطـأ التسـبيب ابتـداء. فالنخبـة الجنوبيـة عندمـا اجتهـدت لأجـل فـرض فرضية

---

٢٧١ ـ صحيفة المجهر السياسي. عدد ١٠٩١. بتاريخ ٢٠١٥/٧/١٢م.
٢٧٢ ـ صحيفة المجهر السياسي. عدد ١٠٩١. تاريخ ٢٠١٥/٧/١٢
٢٧٣ ـ د. فرانسيس دينق ، صراع الرؤى. ص١٨٤
٢٧٤ ـ نفس المرجع ، ص ١٨٥

عرقيـــة الأزمـــة تســـببت في أذيـــة الشـــمال كثـــيرا ، ولكنهـــا أذت الجنـــوب أكثـــر! نعـــم ، حقـــق لهـــا فرضهـــا فرضيـــة عرقيـــة الـــصراع دعمـــاً شـــعبويا كاســـحا ، مكنهـــا مـــن تحقيـــق الإنفصـــال بيـــسر ، وهـــو الجانـــب المـــشرق مـــن المســـألة. أمـــا الجانـــب المظلـــم ، فقـــد تمثـــل في ترســـيخ هـــذه الفرضيـــة ، وتأكيدهـــا في الذهنيـــة الشـــعبويه الجنوبيـــة ، وبالتـــالي ، فـــإن أي خـــلاف بـــين مكونـــات الدولـــة الجديـــدة ، هـــو بالـــضرورة خـــلاف عنـــصري. لـــذا ، فبمجرد حـــدوث خـــلاف سلفاكير/مشـــار حتـــى تداعـــت قبائلهمـــا منـــاصرة لهمـــا ، دون اكـــتراث لجوهـــر مـــا اختلفـــا حولـــه. وهـــي حالـــة تحاكـــي مـــا حـــدث قبـــل ســـتة عقـــود تقريبـــا ، حينمـــا تـــم إعطـــاء الوقائـــع التـــي حدثـــت آنـــذاك ـ الســـودنه ، ترحيـــل الازانـدي.....الـــخ ـ بعـــدا عرقيـــا أصبـــح وقـــوداً للحـــرب أشـــعل الحريـــق في الدولـــة الأم، وامتـــدت نيرانـــه لتحـــرق الدولـــة الوليـــدة نفســـها عنـــد نشـــوئها بعـــد ســـتة عقـــود. لقـــد امتـــد الأمـــر حتـــى اكتســـح الديـــن الواحـــد. فرغـــم أن أســـاس الصلـــوات تمجيـــد الســـلام والمحبـــة ، إلا أن بعـــض أبنـــاء الدينـــكا لـــم يـــروا بأســـا في التظاهـــر ضـــد صـــلاة مســـيحي معهـــم في ذات الكنيســـة ، لســـبب عرقـــي. حيـــث نـــددوا بحضـــور د. ريـــاك مشـــار النائـــب الأول لرئيـــس الجمهوريـــة ، الـــذي ينتمـــي إلى قبيلـــة النويـــر ، للصـــلاة معهـــم في كنيســـتهم ، واصفـــين إيـــاه ب "العـــدو"![٢٧٥].

---

٢٧٥ ـ صحيفة الصيحة. العدد ٦٤٠. بتاريخ ٣١/مايو/٢٠١٦م. ص١٠.انصاف العوض

الفصل الثاني
الوحدة الوطنية

وفي تطـور لافـت ، تحولـت الوحـدة الوطنيـة نفسـها إلى أسـاس جديـد للانفصـال في كل أنحـاء السـودان! فقـد بـدأت الاصـوات ترتفـع مـن كل مـكان تطلـب الإنفصـال عـن السـودان ، وللسـخرية ، فإنهـم يسـتندون إلى ذات الأسـباب التـي اسـتند إليهـا الجنوبيـون ، إذ تـرى كل مجموعـة ضرورة الابتعـاد عـن الأعـراق الأقـل تجانسـا معهـا. ويبـدوا أنهـم لـم يسـتوعبوا درس انفصـال الجنـوب! أو اسـتوعبوه وملؤهـم الغـرور ، الـذي يسـوق لهـم حججـا سـاذجة تـؤدي بهـم إلى القـول : إننـا أكثـر تماسـكا مـن الجنوبيـين ، ولـن ننحـدر إلى مـا وصلـوا إليـه. حسـنا ، لنـرى!

لنأخـذ دعـاة فصـل مـا أسـموها دولـة النهـر والبحـر. اولئـك الذيـن يقدمـون طرحـا يقـوم عـلى ضرورة فصـل الشـمال النيـلي والبحـر ، ليكونا دولـة واحـدة خاليـه مـن الازمـات. وذلـك بالابتعـاد عـن دارفـور وجـزء كبـير مـن كردفـان وغيرهمـا. وقبـل أن يجـف مـداد دعوتهـم ، كان هنـاك مـن أهـل البحـر مـن يصيـح في وجههـم: مهـلا! في الواقـع لـن نكـون معـا ، لسـبب بسـيط هـو كونكـم انتـم جـذر الأزمـة لدينـا ، ومرجـع تخلفنـا! وهـو ليـس بالقـول الجديـد ، إذ قيـل قبـل ثلاثـة وسـتين عامـا في مؤتمـر البجـا!

ومـا لا يفهمـه كثـيرون ، أنـه ليـس هنـاك جـزء متماسـك في هـذا البلـد! فحتـى اذا بقـى مـا حـول النهـر وحـده ، دون البحـر ، فإنـه أوهـن مـن بيـت العنكبـوت. الـم يكـن تفككـه سـببا رئيسـيا في غـزو البـلاد منـذ

عهد محمد علي باشا؟ أولم يستمر الاستعمار التركي المصري لسبعة عقود بسبب تنازع القبائل.! وما الذي اسقط دولة سوبا وسنار؟! بل حتى القبيلة الواحدة لا تحتمل بعضها . واما ما يبدو من تماسك طفيف فيعود إلى وجود "آخرين" يستحسن التماسك في مواجهتهم. وإذا ذهب هؤلاء الآخرون ، ستظهر الاشياء عارية : ستغدوا الانتخابات أكثر قبلية ، أما الانقلابات فستنزع عنها فستان القومية الشفاف ، وسينقلب ولدنا على ولدكم ، وسيضاف إلى عيدي الفطر والاضحى المباركين عيد تجليد النحاس!

إن من يزعم اختلاف الشمال عن الجنوب لم يستوعب التاريخ جيدا. إن أكثر شيء مؤكد هو هلهلة عموم المجتمع السوداني ، بما في ذلك مجتمع الشمال النهري. ومما يقوله التاريخ القريب إن الشايقية كانوا في حرب دائمة مع ملوك النوبة. وفي أواسط القرن الثامن عشر هاجموا ممالك النوبة وخربوا دنقلا العجوز ، وسفكوا دماء كثيرة ، ومزقوهم شر ممزق ، ومن بعد فرضوا عليهم جزية تساوي نصف دخلهم السنوي[٢٧٦].

وكذلك هجم الشايقية على مملكة الدفار وخربوها ، وشتتوا أهلها الذين فروا إلى جزيرة قنتي[٢٧٧].وفي العام ١٧٨٤م. ونتيجة صراعات مريرة في منطقة الجزيرة ، هجم شيخ قري _ المخلوع _ ومعه الشكرية على مدينة اربجي ، بالقرب من الحصاحيصا ، وكانت آية في العمران، فسووها بالتراب ، وتركوها قاعا صفصفا[٢٧٨].

حسنا ، دعك من صراعات القبائل فيما بينها ، ولناخذ صراعا داخليا بين فرعي قبيلة واحدة. إن تاريخ فرعي قبيلة الجعليين مثير جدا. فوفقا لمقال للكاتب E.A.Robinson المنشور في العدد الخامس

٢٧٦ ـ نعوم شقير، جغفراقية وتاريخ السودان، ص ٤٦٤.

٢٧٧ ـ نفس المرجع ، ص ٤٦٥

٢٧٨ ـ د. بدر الدين حامد الهاشمي ، السودان بعيون غربيه.. الجزء الثاني. ص ٨٥ _٨٩.

مــن مجلــة "الســودان في رســائل ومدونــات" الصــادرة في ١٩٢٥م. أن محمــد ود نمــر، في حــوالي العــام ١٧٨٩م. اســتعان بمرتزقــة مــن قطــاع الطــرق المشــهورين ، للهجــوم عــلى شــندي وعــزل إبــن عمــه مــك الجعليين ســعد ود ادريــس ، وذلــك مقابــل ٦٠ أوقيــة مــن الذهــب الخالــص حــال نجــاح العمليــة. وقــد اســتغلوا غيــاب الملــك ســعد ـ الــذي كان يــزور ســنار ـ وهجــم المرتزقــة معززيــن بجنــود مــن الجعليــين "النمراب"عــلى شــندي ، وقتلــوا الــوصي عــلى العــرش. وفــر غالــب الســعداب إلى المتمــة. وعــاد الملــك ســعد ليســتقر في المتمــة ، ومنهــا كان شــغله الشــاغل زعزعــة عــرش النمــراب في شــندي. وكان هــذا دأبــه حتــى تــوفي في ١٧٩٩م. وورث ابنــه مســاعد هــذه الحــروب المســتمرة. وفي الوقــت ذاتــه ، كان الهمــج يتلاعبــون عــلى فرعــي القبيلــة المتناحريــن ، وبحيلــة ماكــرة أوقــع الهمــج بالملــك محمد مــك شــندي ، وباعجوبــة نجــا إبنــه نمــر الــذي عــاش حينــا مــن الدهــر بــين البطاحــين ، وتــزوج منهــم. وكان الهمــج قــد عينــوا الملــك ســعد كمــك وحيــد عــلى الجعليــين. وكان البطاحــين يغــيرون عــلى مناطــق الجعليــين بصــورة متكــررة لنهــب الأبقــار. وفي العــام ١٨٠٢م. هجــم النمــراب والبطاحــين عــلى شــندي، ودارت معركــة شرســة خــسر فيهــا الجانبــان أرواحــا كثــيرة ، ثــم تقهقــر الســعداب إلى المتمة[٢٧٩].ونتيجــة جهــود كبــيرة مــن علمــاء المجاذيــب وشــيوخ الدامــر ، انتهــى الأمــر بالصلــح بينهمــا عــلى تقســيم ديــار القبيلــة ـ شــندي والمتمــه ـ لينتقــل الملــك مســاعد إلى المتمــة ويبقــى نمــر في شــندي[٢٨٠].

(في العــام ١٨٠٣م. هاجــم الشــكرية والهدنــدوة قبيلتــي البطاحــين والخوالــدة. طــردت القبيلتــان البطاحــين "الذيــن وصفوهــم بــسراق البقر" إلى شــمال وشرق البطانــة)[٢٨١].وفي العــام ١٨٠٣م. خــاض البطاحــين والشــكرية حــروب عبثيــة قتــل فيهــا عــوض الكريــم ابــو ســن شــيخ

٢٧٩ ـ نعوم شقير. جغرافية وتاريخ السودان ، ص٤٣٧

٢٨٠ ـ نعوم شقير ، ص ٤٣٧

٢٨١ ـ د. بدر الدين حامد الهاشمي ، ص ٨٩

الشـــكرية [٢٨٢]. وفي العـــام ١٨٠٤م. أسر الشـــيخ كمتـــور الوزيـــر محمـــد ود رجـــب ، واودعـــه الســـجن. ونهبـــت جيوشـــه ســـنار نهبـــا شـــديدا. وبموجـــب صلـــح رد الشـــيخ كمتـــور مـــا نهبـــه وأطلـــق سراح الوزيـــر محمـــد ود رجـــب. وغـــدر بـــه لاحقـــا ، المدعـــو أبـــو الريـــش في كمـــين فقـــد فيـــه الشـــيخ كمتـــور ١٢ مـــن اخوتـــه[٢٨٣].

وفي العـــام ١٨١٣م. هـــدى اللـــه فرعـــي الجعليـــين _ النمـــراب والســـعداب _ للتعـــاون فيمـــا بينهمـــا ، ولكـــن فقـــط للاغـــارة عـــلى جارتهمـــا بربـــر ، منتهزيـــن غيـــاب ملكهـــا نـــصر الديـــن ابـــو حجلـــة ، الـــذي كان في طريقـــه الى ســـواكن. فغـــزوا المدينـــة ونهبوهـــا ، وولـــوا عليهـــا ملـــكا تابعـــا لهمـــا![٢٨٤].

وفي العـــام ١٨١٣م(توجـــه ود عـــدلان لجمـــع الجزيـــة مـــن عربـــان رفاعـــه بنواحـــي جبـــل مويـــه ، فجمـــع الجزيـــة وهـــرب منهـــم اللبيـــح فأرســـل خلفـــه العبـــاس فادركـــوه وقتلـــوا بعضـــاً مـــن جماعتـــه ، ونهبـــوا منهـــم أمـــوالا كثـــيرة) [٢٨٥].وفي العـــام ١٨١٨م. قتـــل البطاحـــين ، كذلـــك ، زعيـــم الشـــكرية احمـــد ود الشـــيخ عـــوض الكريـــم ابـــو ســـن _ عـــوض الكريـــم ابـــو ســـن الـــذي قتلـــه البطاحـــين في العـــام ١٨٠٣م. _ وانحـــازوا إلى الملـــك نمـــر ، وعـــزم الشـــكرية عـــلى حربهمـــا معـــا ، لكـــن وســـاطة معتـــبرة مـــن الأعيـــان والفقهـــاء جعلتعهـــم يتراجعـــوا [٢٨٦].

ووفقـــاً ل E.A.Robinson أن الشـــكرية بالفعـــل ســـيروا جيشـــاً عرمرمـــا، تصحبـــه عائلاتهـــم وهـــي إشـــارة الى الإصرار عـــلى المـــوت أو الإنتصـــار ، ولـــولا تلـــك الوســـاطة ، لكانـــت شـــندي قـــد ســـويت بـــالأرض. لكـــن ، تلـــك الوســـاطة حقنـــت الدمـــاء. فعـــاد الشـــكرية ادراجهـــم. وفي الطريـــق قتلـــوا كل مـــن صادفـــوه مـــن البطاحـــين ، رجـــلا كان أو امـــرأة! [٢٨٧].

٢٨٢ ـ نعوم شقير، ص ٤٣٧
٢٨٣ ـ نعوم شقير. جغرافية وتاريخ السودان ، ص٤٣٨
٢٨٤ ـ بدر حامد الهاشمي ، السودان بعيون غربية ، ص ٩٠
٢٨٥ ـ نعوم شقير، ص ٤٤١
٢٨٦ ـ نفس المرجع ، ص ٤٤٢
٢٨٧ ـ بدر حامد الهاشمي ، السودان بعيون غربية ، ص ٩١

خــلال تقديمــه مقــال E.A.Robinson كتــب مترجمــه بروفيســور الهاشــمي:(لا اهــدف مــن نــشر هــذا المقــال عــن ألمــك نمــر إلا إلى تبيــان مــا يحــاول البعــض التغطيــة عليــه مــن تاريخنــا الدمــوي ، وثاراتنــا القبليــة القديمــة ، ومــن محاولــة تصويــر العلاقــات القبليــة والاثنيــة في البــلاد كأنهــا "ســمنا عــلى عســل" وأن الحــروب الحاليــة أمــر طــارئ ، والاســتعانة بالاجنبــي مــا هــي إلا "حالــة مســتحدثة"، وأن علينــا الآن أن نعيــد تلــك العلاقــات ســيرتها الأولى ، وهــل كانــت ســيرتها الأولى إلا حروبــا ودمــاء؟ اظــن ان علينــا ، قبــل نســيان أو تنــاسي المــاضي ، أن نعــترف بــه ، وأن نــشرح اســبابه ونوازعــه ، وان نــدرك أن غالــب مشــاكلنا الراهنــة لهــا جــذور تاريخيــة ، وأن علينــا أن نأخــذ منهــا الــدروس والعــبر ، وان نعلــم أن الجــرح لا يــبرأ عــلى صديــد كمــا تقــول العــرب) [٢٨٨].

وفي هــذا الســياق ،قــد يعتقــد أنــاس أن مــا نتحــدث عنــه مجــرد تاريــخ! نعــم. هــو تاريــخ ، لكنــه مــا زال حيــاً بحيــاة اســبابه ومســبباته: فالمســتعمر الزنجــي مــا زال حيــاً ، والغنيمــة مغريــة. ان الشــمال اليــوم مســتمتع باقتســام الغنيمــة لأنهــا كافيــة ، تتضمــن مــوارد القطــر كلــه. ولكــن هــل ســتكون كذلــك إذا انكمشــت مصادرهــا؟! إن ذهــاب الجنــوب كال البــلاد ب "رمــاد الشــح". فهــل يحتمــل الأمــر أكثــر؟!

ومــن ناحيــة أخــرى ، فــإن الاســتئثار بمنافــع الدولــة مــن وظائــف وامتيــازات لــن يكــون كافيــاً عنــد غيــاب الجهــات التــي كان يتوســع عــلى حســابها ، وســيكون الحســاب ولــد ، بــين "ابونقــدح وابونقــدح"! والســلاح وفــير ، في مطامــير البطانــة وعتامــير الصحــارى ، وجبــال الــشرق ، وفي كل مــكان. ســيكون الــصراع قبليــا جــدا لأجــل دخــول البرلمــان ، وســيكون الانقــلاب العســكري غايــة في القبليــة ، وســتعود الممالــك والمشــيخات!

---

٢٨٨ ـ نفس المرجع ، ص ٨٦

قـد يظـن البعـض أن مـا نتحـدث عنـه مجـرد اسـاطير مـن المـاضي السـحيق . وإن حـدث فلـن يقـع إلا في الأقـاصي البعيـدة. ولهـؤلاء نقـول ، مهـلا ! الـم يحـدث هـذا قبـل عقديـن تقريبـاً حـين تقاتلـت بعـض قبائـل مـا حـول شـندي؟! وألـم يكـن قـاب قوسـين أو أدنـى مـن الحـدوث ، قبـل أقـل مـن عامـين ، وعـلى مرمـى حجـر مـن العاصمـة بـين الكواهلـة والبطاحـين؟! الـم تـر حجـم الحشـود ، وكـم السـلاح والعتـاد الـذي خرج ، تصحبـه قـدور راسـيات وجفـان كالجوابـي ، أعـدت ليـوم كريهـة؟! ولـولا لطـف اللـه ، لانزلقـا إلى وادي غـير ذي زرع! لقـد اسـتفحلت الأمـور حتـى كادت أن تقـوض بيـوت الزوجيـة ، خـلال دعـوة كريهـة غايـة في الجاهليـة ، هـددت بالفرقـة القسريـة ، بـين كل زيجـة جمعـت القبيلتـين! والمفارقـة ، أنهمـا _ الكواهلـة والبطاحـين _ بلغـا حـدا مـن متانـة الاصرة ممـا لا يتصـور معـه نشـوء تعـارك بالأيـدي بينهمـا ، ناهيـك عـن أنـدلاع حـرب ، كانـت قـاب قوسـين أو أدنـى مـن أن تـأكل الـزرع والـضرع! أمـا الـشرق ، فمـا فعلـه تـرك يغنـي عـن الاسترسـال ، ومـا فعلـه الآخـرون كـرد فعـل لفعلـه ، ومـا اسـتعدوا لفعلـه ، يثبـت المقـال!

وهـل يجـب ذكـر أن سـبب إنهـاك حـراك الأمـير عثمـان دقنـه ، في شرق السـودان ، كان النـزاع القبـلي. وأنـه قبـل الـشروع في مهمتـه اضطـر إلى توحيـد الجبهـة الداخليـة المتصدعـة جـدا، فمـاذا فعـل؟! يصـف ضرار صالـح ضرار الأمـر حيـث قـال (ثـم اصلـح الأمـير عثمـان بـين الزعمـاء المتخاصمـين: إذ كان القتـال ناشـبا بـين الاشراف والكميـلاب ، وبـين النابتـاب وبيـت معـلا ، وبـين نابتـاب عمـر وإبراهيـم ، وبـين منسـع ويماريـام ، وبـين الشـبودينباب والبشـاريين ، وبـين بهتاحقـوس بـن منقشـتا وتيجـراي في جهة سـفينتين ، وبين دمـار ايـام وبـرم بـلاس كافـل ، وبـين نابتـاب أكـد وبيـت شـقدي. فاسـتطاع

أن يحــل هــذه المنازعــات وقــرب بالمصاهــرة بــين المتباعديــن.... إلــخ)[٢٨٩].

وعــلى ضــوء ذلــك ، يبــدو الفــرق ضئيــلا بــين الجنــوب والشــمال مــن حيــث ثقافــة الســلام ، وإن تظاهــر الشــمال بالعكــس. مــا يؤكــد أن المســألة لا علاقــة لهــا بالعرقيــة ، وانمــا هــي مســائل موضوعيــة ، حيثمــا توفــرت أســبابها قفــزت إلى الســطح. وحتــى الآن توفــر جــزء كبــير مــن هــذه الأســباب ، فالدولــة مــا زالــت غنيمــة ، والمســتعمر الزنجــي مــازال موجــودا بــكل فئاتــه (الفقهــاء والأعيــان المعفيــين مــن الضرائــب ، والباشــبوزق، والجهاديــين) وحتــى المواطــن الــذي لــم يدنــس يــده بالغنيمــة ، لا تعففــا منــه ، ولكــن ، لــم تتــح لــه الســانحة بعــد!

٢٨٩ ـ محمد سليمان صالح ضرار. امير الشرق عثمان دقنه. الناشر/الدار السودانية للكتب. الطبعة الأولى ، ص ٥٣

الفصل الثالث
العنصرية

قال تعالى : { الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩)}[٢٩٠]

وفقا لروبرت أو. كولنز فإن (العنصرية موضوع معقد ومحل خلاف ، ولكن لا يزال مضمون تعريفها الأساسي هو الاعتقاد بأن بعض العرقيات متفوقة والبعض الآخر متدنية. وقد بنيت العنصرية عميقة الجذور في السودان على الاساسين ، التاريخي والثقافي أكثر من بنائها على اللون. وهي ايضا عنصرية فردية ومؤسسية أكثر من كونها ايدلوجيا) [٢٩١].

اتفق مع روبرت أو. كولنز في أن العنصرية موضوع معقد ومحل خلاف وأنها تقوم على الاساسين التاريخي والثقافي. ولكن اختلف معه في زعمه أنها في السودان عنصرية مؤسسية ، حيث أن الصحيح أنها فردية وليست مؤسسية. وقد يشاطره كثيرون الرأي فيما يتعلق بالسودان بالنظر إلى ما يطرأ بين فينة وأخرى ، من بذاءات عنصرية يتفوه بها البعض هنا وهناك. بل يمكن القول إن الفرحة تجتاح الكثيرين أوان ظفرهم بمثل هذه البذاءات العنصرية ، فهي عندهم دليل لادانة عرق مصدر البذاءة ، واثباتا لما وقر في القلب ضد الآخر!

٢٩٠ ـ سورة التوبة ، الآية ٩٧-٩٩ .

٢٩١ ـ روبرت أو كولنز ، تاريخ السودان الحديث.. ص ٢٤.

إن مـن المؤكـد أن التفـوه بالبـذاءات العنصريـة لـم يسـتجد اليـوم ، ولـن يتوقـف في الغـد، وهـو مـا ينبغـي التعامـل معـه بحكمـة وحسـم! لقـد تناقلـت الأنبـاء هـذا العـام خـبرا ، مفـاده سـخرية محـام في محكمـة في الخرطـوم ، خـلال محاكمـة مشـهورة ، مـن الاسـتاذ لقمـان حسـن همـام ، ووصفـه بالفـاظ عنصريـة دنيئـة. وقـد هـاج كثـير مـن النـاس ، ونـددوا بـه ، وتعـدى رد فعـل آخريـن المحامـي المتهـم بالفعلـة إلى عمـوم رهطـه! ولاشـك أن التنديـد ورد الفعـل القـوي الـذي جوبـه بـه مصـدره يعـد أمـر حميـد ، وهـو مـن قبيـل إنـكار المنكـر ، وينبغـي الدفـع بـه إلى غايتـه حتـى ينـال قائلـه ، إن ثبتـت التهمـة في مواجهتـه ، أقـصى عقوبـة قضائيـة واجتماعيـة. ولكـن ، لا ينبغـي أن يتعـداه إلى غـيره ، { وَلَا تَـزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْـرَى }. وفي السـياق ذاتـه ، قبـل نحـو خمسـة وأربعـين سـنة حـدث أمـر مماثـل. حيـث كتـب الاسـتاذ التيجانـي الـكارب مقـالا يجلـو فيـه بعـض الخبايـا عـن انقـلاب محمـد نـور سـعد "المرتزقـه". وقـد حكـى بعـض مـا حـدث للعميـد محمـد نـور سـعد حينمـا كان معتقـلا ، بعـد فشـل انقلابـه. فقـد ذكـر أن الرائـد ابوالقاسـم محمـد ابراهيـم تلفـظ في حـق المعتقـل بعبـارة غايـة في العنصريـة والتوحـش ، حـين خاطبـه والرائـد زين العابديـن محمـد احمـد بقولـه (ماقلـت ليكـم سـيبونا مـن الحاجـات الفارغـة دي. اجلـدوا العـب ده وخلونـا نخلـص)! وغضـب الرائـد زيـن العابديـن ووبخـه ثـم اشـتبك معـه، ففـرق بينهمـا الرائـد مأمـون عـوض أبـو زيـد [٢٩٢].

وقـد سـبق أن كتبـت في العـام ٢٠٠٠م.[٢٩٣].إن السـودانيين (في الاسـتعلاء العرقـي كأسـنان المشـط). وهـذه حقيقـة مؤكـدة ، فالاسـتعلاء ليـس حكـر لعـرق دون غـيره. ورغـم ذلـك ، يتهـم البعـض الآخـر ، ويتعـدى الإتهـام إلى الدولـة نفسـها ، فيقـال إنهـا دولـة عنصريـة. والمفارقـة ، أن مثـل هـذه التهـم تطـال حتـى بـلاد مشـتهرة بتقاليدهـا الديمقراطيـة ، مثـل الولايـات

٢٩٢ ـ صحيفة التيار. العدد ١٩٤١م. بتاريخ ٢٠١٧/٧/٩م..

٢٩٣ ـ في صحيفة الرأي الآخر ، في مقال «جدلية التشوهات ومستقبل وحدة السودان _ الحلقه الاولى»

المتحـدة الأمريكيـة ، فكثـيرا مـا يوجـه إليهـا الإتهـام مـن بعـض الاعـراق ، خاصـة الزنـوج ، بأنهـا دولـة عنصريـة!

وعـلى ضـوء ذلـك ، نتسـاءل: مـا هـي الـشروط الواجـب توفرهـا لوصـم بلـد مـا بالعنصريـة؟ يمكـن القـول عمومـا بـأن هنـاك ثلاثـة مسـتويات ينبغـي اسـتصحابها للتقريـر بشـأن وصـف بلـد مـا بأنـه عنـصري. وهـذه المسـتويات هـي الفـرد ، المجتمـع "الشـعب" ، ثـم الدولـة. فـإذا اسـتحق فـرد صفـة عنـصري ، فـإن هـذا لا يعطـي الحـق في دمـغ أسرتـه أو قبيلتـه اجمعهـا بذلـك. وإذا ثبـت عـلى مجموعـة أو مجموعـات أو طائفـة أو طوائـف صفـة عنـصري ، فـإن ذلـك لا يعطـي الحـق في دمـغ المجتمـع كلـه "الشـعب"، إلا إذا ثبـت أن كافـة أفـراده يتصفـون بالعنصريـة. ولكـن إن كان هنـاك عنصريـون في مجتمـع مـا _ شـعب _ وفي الوقـت ذاتـه ، ومـن المجتمـع نفسـه كان هنـاك أفـراد ينكرونهـا ، فإنـه لا يحـق لنـا وصـم كل هـذا المجتمـع "الشـعب" بالعنصريـة.

أمـا لأجـل التقريـر حـول عنصريـة دولـة مـا ، يتوجـب علينـا النظـر إلى نظمهـا وقوانينهـا ومـدى مسـاندتها للعنصريـة. فـإذا كانـت الدولـة خلال نصوصهـا تجرمهـا وتديـن مرتكبهـا ، لا نكـون أمـام دولـة عنصريـة ، ولا يجـب وصمهـا بهـا ، حتـى وإن كانـت هنـاك مشـكلة في تطبيـق تشريعـات مكافحـة العنصريـة. وبالتـالي ، فـإن شـكاية بعـض الأفارقـة والاعـراب دولهـم لـدى المؤسسـات الدوليـة ، ووصفهـا بالعنصريـة ، في هـذه الحالـة ، ليـس بالأمـر السـديد . وعـلى العمـوم ، لا تكـون الدولـة عنصريـة ، إلا حـين تفـرض تشريعاتهـا العنصريـة أو تسـاندها ، لدرجـة أن يصبـح التمييـز حقـا للبعـض عـلى الاخر.

وللمحاججـة ، ناخـذ امريـكا كمثـال ، ونسـال :هـل امريـكا بلـد عنصري ؟ علمـا بـأن هنـاك جماعـات داخلهـا تتفاخـر بأنهـا كذلـك ، وهنـاك حـالات مذابـح عنصريـة ، وقـدر مـن الحـوادث العنصريـة التـي تحـدث

بــين الفينــة والأخــرى! تكـون الإجابـة : امريـكا ليسـت بلــدا عنصريــا ، لأن قوانينهــا تجرمهــا وتدينهــا . وكذلــك المجتمــع الأمريكــي "الشــعب" ليـس عنصريــا لانــه يديــن العنصريــة حيــث يقــف البيــض والســود وغيرهــم عــلى قــدم المســاواة في إدانتهــا ، فــإذا كان هنــاك ابيــض يرتكــب جريمــة العنصريــة ، فــإن هنــاك بيــض ، أكثــر عــدداً وأعــلى صوتــاً ، يدينونهــا بشــدة ، فكيـف بعـد ذلـك يوصـم المجتمـع الابيـض جميعـا بالعنـصري؟!

ومــع ذلــك ، لــم يكــن المرء ليــتردد في وصفهــا بالدولة العنصريــة. وذلك خــلال عهــد التمييــز العرقــي الرســمي ، المســنود بتشريعــات تقننــه، مثــل قوانــين Jim Crow Laws التــي كانــت تمنــع الســود مــن التمتــع بحقوقهم المتســاوية مــع البيــض في الحافــلات. كانــت امريــكا دولــة عنصريــة عندمــا اســتطاع الكمســاري جرجــرة الســيدة Rosa Louise Parks إلى المحكمــة ، لأنهــا جلســت في مقاعــد البيــض. وســاندته التشريعــات حيــث حوكمــت قضائيــاً وادينــت ، وصــدر الحكــم في ديســمبر/١٩٥٥م. يومهــا ، لــم يكــن المــرء ليــتردد ابــداً في وصفهــا بالعنصريــة. أمــا بعــد إعــلان المحكمــة العليــا الأمريكيــة عــدم قانونيــة سياســة التمييــز العنصري داخــل الحافــلات ، وما تبعــه مــن تداعيــات سياســية وقانونيــة أدت إلى إدانــة التمييــز العنــصري وإلغــاء تلــك التشريعــات ، بــل وإصــدار تشريعــات تنكــر العنصريــة ، وتعتــبر مخالفتهــا انتهــاكا للقانــون ، لايمكــن ابــدأ القــول بــأن امريــكا عنصريــة وإن كثــرت المذابــح العنصريــة!

وعــلى النســق ذاتــه ، طالمــا في الســودان تشريعــات تجــرم العنصريــة ، وتحاكــم وتديــن مرتكبهــا ، وطالمــا أن عمــوم الشــعب ضدهــا لا يمكــن أن يقــال ، في ظــل أي حكومــة أننــا بلــد عنــصري. نعــم ، قــد يكــون بيننــا عنصريــون ، لكــن مجتمعنــا مــن اقصــاه إلى أقصــاه ليــس عنصريــا. فحيثمــا تفــوه أحدهــم ببــذاءة قــام عليــه الجميــع ، مــن أنحــاء القطــر كافــة، فكيــف يوصــم الجميــع بالعنصريــة؟!

إذا ،في امريــكا عنصريــون ، ولكــن امريــكا ليســت بلــدا عنصريــا. وفي

ألمانيا عنصريون ولكن المانيا ليست بلدا عنصريا. وعلى ضوء ذلك ، يصح القول إن في أفريقيا عنصريون لكن أفريقيا ليست عنصرية. وأن في السودان عنصريون ، ولكن السودان ليس بلدا عنصريا. ويصح القول إن في المجتمعات السودانية عنصريون ، لكن المجتمع السوداني ليس عنصريا. وبلادنا لا تدعم أو تربي العنصرية. إن هذا الوطن لم ، ولا يبارك فعل العنصرة ، لكن هذا قدره أن يكون بعض بنيه عاق. فحاربوا العنصريين لا الوطن ، وحاربوا العرقية لا الاعراق!

العنصرية قدر الإنسان:

يرى البعض أن في وجود عنصريين في البلاد نقصانا لها ، وهو فهم خاطئ ، فالبلاد لا تضام بعنصرية فرد أو جماعة. وكذلك لا يتصور زوال العنصرية زوالا نهائيا من أي مكان في الدنيا. فهي قدر إلهي أوجدها لحكمة يعلمها هو! فالاستعلاء أصل من أصول الكون. وقد أشار إلى ذلك المولى عز وجل خلال رده على الكفار في شأن زعمهم تعدد الآلهة ، فقد قال لهم في سورة المؤمنون ، الآية"٩١": ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فإذا كانت الآلهة ، وفقا للافتراض في الآية ، لا يجتمعون إلا ويستعلى بعضهم على بعض ، فكيف لا يستعلى المرضى من البشر على بعضهم بعضا؟!

إن قصة خلق الانسان تخبرنا أن أقدار الله لا فكاك منها. فعندما قال الله عز وجل للملائكة{ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}، تساءلوا حائرين{"قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ} حينها لم يقل لهم سبحانه وتعالى: حسنا ، سأجعلهم يكفون عن ذلك! أو ساخلقهم على طريقة أو هيئة تنهاهم عن سفك الدماء. لم يقل أي شئ من ذلك ، وانما كان كل

مـا قالـه:{ "قَـالَ إِنِّـي أَعْلَـمُ مَـا لَا تَعْلَمُـونَ}. بعدهـا خلـق الانسـان سـفاحا ، سـفاكا للدمـاء!

والمؤكـد ، أنـه كان يمكـن خلـق الانسـان بحيـث لـن يسـتطيع سـفك قطـرة دم واحـدة ، لكنـه تعـالى خلقـه هكـذا ، وكل مـا أمـده بـه لابعـاده عـن سـفكها عقـل وشريعـة. شريعـة تبـين لـه حـدوده ، ومنهـا الا يسـفك الدمـاء. وعقـل لاسـتيعاب هـذه الشريعـة. وهـو مـا سـارت عليـه الأمـور حتـى بعـث سـيدنا محمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم. وقتهـا كان بمقـدور سـيدنا جبريـل عليـه السـلام ، وهـو ينـزل القـران أن ينـزل معـه مـا يكف الإنسـان عـن المعصيـة ، لكنـه لـم يفعـل . وكلمـا كان أن تـرك المعصيـة كمـا هـي ، وأنـزل للإنسـان شرعـة تحرمهـا عليـه ، وتقـول لهـم: "يـا أولي الألبـاب" ابعـدوا عـن المعصيـة!

والجريمـة معصيـة ، وهـي موجـودة إلى قيـام السـاعة. لـذا ، لا تفكـر السـلطة مـن منطلـق انعدامهـا مطلقـاً ، وانمـا تكافحهـا وهـي تعلـم أنهـا سـتظل موجـودة اليـوم وغـدا. وبـذات المنطـق لا يفـترض أن يهزمنـا وجود العنصريـة وندعـو لهـدم المعبـد والدعـوة إلى تقطيـع أوصـال بلادنـا، ولكن علينـا الجـد في كفاحهـا. فالانفصـال "حـل مؤقـت" لا أكثـر!

وعـلى ضـوء ذلـك ،حتـى لـو اسـتقلت كل قريـة سـودانية ورفعـت علمها وأصبحـت دولـة. لا يفـترض اسـتبعاد النـاس حـدوث واقعـة عنصريـة من فـرد أو جماعـة ، اليـوم أو غـدا ، أو بعـد غـد في هـذه "القريـة الدولـة". ولكـن يفـترض التفكـير في مجابهتهـا بحكمـة وحسـم تـؤدي لرتق النسـيج الاجتماعـي لا فصمـه، وهـو مـا سـنعالجه لاحقـاً إن شـاء اللـه..

الباب الخامس

العلاقة بين الغرابة والجلابة

الفصل الاول
علاقات حميده

الأصـل أن العلاقـة بـين الغرابـة و الجلابـة كانـت طبيعيـة تقـوم عـلى الاحـترام المتبـادل والمصالـح الإنسـانية ، ولـم تؤسـس عـلى العـداوة. ومـن بعـد نتيجـة اسـباب موضوعيـة ، تحـدث في كل مـكان وبـين كافـة التجمعـات السـكانية ، حـدث توتـر في العلاقـات. وكان يفـترض أن يأخـذ دورتـه وتعـود الحيـاة إلى طبيعتهـا. لكـن ، للأسـف ، تـم التعامـل معهـا كأنهـا كارثـة هابيـل وقابيـل. ويمـضي الزمـان ويأتـي التطـور بالعلـم الـذي يفـترض أن يعيـد الحيـاة إلى طبيعتهـا ، ولكنـه يتحـول إلى أداة أشـد لؤمـا ومكـرا، تولـت تقطيـع مـا تبقـى مـن وشـائج. فصـارت الأجيـال عـلى الضفتـين (غرابـة _جلابـة) كلمـا تعلمـوا تألمـوا ، بفعـل نـكأ الجـراح. وكلمـا زادت قراءتهـم وكثـر اطلاعهـم تراكمـت احقادهـم. لـذا ، وجـدت أن ثمـة واجـب لفعـل مـا يلـزم.

عكـس مـا يعتقـد كثـيرون كانـت العلاقـة أكثـر قدمـا ومتانـة . فقـد كانـت هنـاك علاقـات متنوعـه، عـلى رأسـها التجـارة و التعليـم تحولـت سريعـا الى اسـتيطان ومواطنـة. فقـد شـجع سـلاطين الفـور علمـاء الديـن عـلى القـدوم والعيـش فيهـا ، وعـبر تسـهيلات منـح الحواكـير المعفـاة مـن الضرائـب وفـد إليهـا علمـاء كثـر مـن خـارج السـلطنة. فمـن ممالـك غـرب السـلطنة اسـتقر بعـض العائـدون مـن الحـج في دارفور.[٢٩٤] .ومـن سـلطنة الفونـج وفـد كثـيرون ، كان منهـم الشـيخ حامـد ود فـارس ، الذي جـاء مـن (بربـر أرض الجعليـين واسـتقر بدارفـور يـدرس علـوم الديـن

٢٩٤ ـ د. يوسف تكنه ، دارفور صراع السلطة والموارد.. ص١٣١.

الاسلامي إلى أن توفي بها [٢٩٥] ويقول د. يوسف تكنه أن "اوفاهي" يرجح (أن بعض اولاد جابر قد وفد إلى دار فور ما بين عامي ١٧١٠ - ١٧٢٠م. وقد منحوا بعض الحواكير) [٢٩٦].

كان ويليام جورج براون وهو رحالة بريطاني ، أول أوربي تطأ قدماه أرض دارفور ، وذلك في العام ١٧٩٣م. وبقي فيها حتى العام ١٧٩٦م. وقد سجل مشاهداته في كتاب باسم "رحلات في أفريقيا ومصر وسوريا ١٧٩٢ _ ١٧٩٨م.". وقد ذكر خلاله أن سكان دارفور ينقسمون إلى خمس مجموعات أكبرها الفور ، ثم يليهم العرب. وذكر أن المجموعة العربية تنقسم إلى تجار وشيوخ وعرب رحل من البقارة. وقال إن أغلب الشيوخ والتجار من شمال السودان والمناطق النيلية. وأشار براون إلى أن مدينة كوبيه تمثل العاصمة التجارية، بينما تعتبر الفاشر العاصمة السياسية . وكان سكان العاصمتين خليطا من الأجناس حيث تجد فيها تجارا من طرابلس وتونس، وسنار والمحس والدناقلة [٢٩٧].ووفقا لناختيقال فإن الجلابة كانوا قد استقروا في دارفور منذ قرون [٢٩٨].ومما يؤكد قدم تواجدهم في تلك الانحاء مولد كثير منهم خلال تلك العهود البعيدة في دارفور ، مثال ذلك القائد المهدوي الشهير محمد خالد زقل ، حيث نقل د. تكنه عن كتاب تاريخ دار فور السياسي ١٨٨٢ _١٩٨٩م. لمؤلفه موسى المبارك أن(محمد خالد زقل ولد بدار فور ، وبدأ حياته فيها تاجراً بسيطا ثم أثرى فيما بعد ، ولما فتحت دارفور انخرط في خدمة الإدارة التركية. وتقلب في مناصب عديدة حتى أصبح مديراً لدارا. وقد ورث التجارة من أبيه الذي قضى شطرا من حياته في دارفور. وكان لزقل صلة بالمهدي هي أنه ابن عمه) [٢٩٩]. وكذلك ، الحاج احمد

---

٢٩٥ ـ نفس المرجع ، ص ١٣٠

٢٩٦ ـ نفس المرجع ، ص ١٣٠

٢٩٧ ـ بروفيسور/ بدر الدين حامد الهاشمي السودان ، بعيون غربية. الطبعة الأولى. ص ١٨٥-١٨٦.

٢٩٨ ـ جوستاف نختيقال ، رحلتي إلى دارفور ، ترجمة النور عثمان أبكر ، ص ١٤٥

٢٩٩ ـ د. يوسف تكنه ، دار فور. صراع السلطة والموارد. ص٢٨.

تنقـا تنقـا ، التاجـر الـذي رافقـه الرحالـة ناختيقـال خـلال رحلتـه مـن وداي إلى دار فـور. يقـول عنـه ناختيقـال أنـه عـاش في طينـه عـدة سـنوات ، وكان قـد قـدم مـن دنقـلا حيـث هاجـرت أسرتـه قبـل عـدة أجيـال ، وتلقـى تعليمـه في الأزهـر الكبـير في القاهـره وتربـى في بـلاط سـلطان دار فـور محمـد الحسـين ، وكـون لـه أسرة هنـاك ، وأسرة أخـرى في الأبيـض ، وقـد كان يتاجـر بـين الأبيـض ووداي بالبضائـع المصريـه [٣٠٠].

أمـا فيمـا يتعلـق بالتجـارة ، والتـي اشـتهر بهـا الجلابـة ، فقـد كانـت رسـمياً تحـت حمايـة الحكومـة. لاحـظ ناختيقـال خـلال مرافقتـه للجلابي الحـاج احمـد تنقـا تنقـا ، في رحلتـه مـن وداي إلى دار فـور ، أن الملـوك والسـلاطين كانـوا يحمـون القوافـل التجاريـة عنـد عبورهـا سـلطناتهم وممالكهـم. ويقـول إن قـوات الحمايـة التابعـة لمملكـة وداي اوصلتهـم حـدود دار فـور ثـم توقفـت، ومـا أن دخلـوا دارفـور حتـى وصلـت إليهـم قـوات الحمايـة التابعـة لهـا ، حيـث رحبـت بهـم ورافقتهـم حتـى نهايـة حدودهـا الإداريـة. [٣٠١].ومما يـدل عـلى قـوة الحمايـة لهـؤلاء التجـار _ الجلابـة _ أنهـم مـا كانـوا يتحركـون في شـكل قوافـل تجاريـة كبـيرة فقـط ، وانمـا كانـت هنـاك قوافـل تجاريـة صغـيره ، بـل وكان هنـاك تجـار فـرادى يتحركـون في أمـن وأمـان [٣٠٢].

يبـدو أن الجلابـة كانـوا حريصـين عـلى اسـتقرارهم في تلـك الانحـاء. يصـف ناختيقـال سـلوكهم العـام تجـاه المجتمـع فيقـول (والجلابـة يتقيـدون بالعـادات بحـرص أكـبر مـن العـرب ، وكل واحـد منهـم يمثـل خـير تمثيـل عائلـة الجلابـة كلهـا) [٣٠٣].وفي وفي موضـع آخـر يصـف ناختيقـال سـلوك الحـاج حمـزه ، وهـو اخ الخبـير محمـد – زعيـم الجلابة وصهـر السـلطان – ويشـيد بـه بسـبب إحضـاره رسـالة لـه مـن الحاكـم

٣٠٠ ـ جوستاف نختيقال ، رحلتي إلى دارفور ، ترجمة النور عثمان أبكر ، ص٣٣

٣٠١ ـ نفس المرجع ، ص ٤١.

٣٠٢ ـ نفس المرجع ، ص ٣٣.

٣٠٣ ـ نفس المرجع ، ص ٣٩.

العـام للسـودان والقنصـل العـام لألمانيـا في مـصر ، وقـد كان مرفقـاً معهـا (٥٠٠) دولار ماريـا تريـزا سـلمها لـه دون مماحكـة أو نقصـان. فكتـب (مـا أشـد الفـارق بـين تسـليم الحـاج حمـزه المـال لي وذلـك الطرابلـسي الجشـع محمـد سـوميت في ابـشي ، الـذي وصفـت سـلوكه فيمـا سـبق. إن الحـاج حمـزه لـم يهتـم حتـى بـأن يحصـل عـلى إيصـال فـوري. وليـس هـو سـوى ابـن للسـودان ، بينمـا ذلـك الطرابلـسي قـد اعتـاد التعامـل مـع الاوربيـين. إن العـرب السـكان بالسـاحل الشـمالي لأفريقيـا ، وخاصـة في طرابلـس ، هـم أقـل كثـيرا ، وفي مجـالات كثـيرة عـن مسـتويات ومعايـير تجـار النيـل) [٣٠٤].

ويبـدو أن المقـام قـد طـاب لهـم هنـاك ، إذ اتخذوهـا وطنـا حقيقيـاً حيـث يقـول (والمسـافة مـن طينـه إلى منطقـة كبكابيـة تسـتغرق سـير ثلاثـة أيـام ، ويسـكن المنطقـة في معظمهـا الجلابـة) [٣٠٥].وكانـت مناطقهم الافضـل ، حيـث اختـاروا أكثرهـا جمـالا ووفـرة غـذاء، دون منازعـة مـن أحـد. فقـد اسـتوطنوا وادي كبكابيـة الأسر الجـذاب ، وهـو نقطـة البدايـة لـوادي برقـو (وتقـع قـرى الإقليـم المكتـظ بالسـكان عـلى ضفـاف النهـر ويسـكنها الجلابة)[٣٠٦].وقـد اسـتقروا في كوبيـه (وهـي المركـز الرئيـسي لـكل التجـار الذيـن اسـتقروا في دارفـور ، وأهـم مدينـة في البـلاد بعـد الفاشر)[٣٠٧].ويبـدوا أنهـم قـد عمـروا فيهـا طويـلا ، فقبـل ذلـك بحـوالي سـبعة عقـود كان الرحالـة محمـد عمـر التونـسي قـد زار دار فـور في ١٨٠٣م. ووصـف كوبيـه بأنهـا كانـت ، وقتـذاك ،مـن أكـبر مـدن دارفـور ووقـف عندهـا ، حيـث ذكـر انهـا مركـز تجـاري هـام ، تقـع عـلى ملتقـى طـرق تجاريـة مهمـة.وان معظـم سـكانها اجانب.[٣٠٨].كذلكـت كذلـك توقـف التونـسي عنـد مدينـة كبكابيـة _ مدينـة الجلابـة _ وقـد بهرتـه

---

٣٠٤ ـ المرجع السابق ، ص ٥٣
٣٠٥ ـ نفس المرجع ، ص ٣٥
٣٠٦ ـ نفس المرجع ، ص ٣٧
٣٠٧ ـ نفس المرجع ، ص ٣٩
٣٠٨ ـ محمد بن عمر التونسي ، تشحيذ الأذهانبسيرة بلاد العرب والسودان ، ص٥٥.

بغنى أهلها وثرائهم [٣٠٩].تتبع ناختيقال مواطن سكنى الجلابة في ربوع دار فور حيث كتب(أهم مناطق إقامتهم في دارفور هي كوبيه والمناطق المحيطة بها ، حيث يوجد ألفان منهم ، وفي منطقة كبكابية على مسيرة ثلاثة أيام غرب كوبيه حيث لهم نفس العدد ، وكورس ودالاقو إلى الجنوب منها ، حيث تضم ثلاث قرى ، ونمرو جنوب كوبيه ، وتيتل وكفوت ومليط في شمال البلاد التي تضم ، بجانب الجلابة ، المقيمين في الفاشر العاصمة وعددهم قرابة خمسمائة بيت، قرابة ألف إلى ألف وخمسمائة. بيت. وهم أيضا موجودون في جنوب وسط دارفور في منواشي ، وشعيرية ، وطويشة ، وفي حفرة النحاس حيث مجموعهم بين خمسمائة وألف بيت. كما نجدهم في أم مشانة في شرق المملكة ، وكان منهم هناك في ذلك الوقت عدد أكبر ، حتى من عددهم في كوبيه. وبذا يكون عدد الجلابة في دارفور كلها خمسة آلاف بيت على الأقل) [٣١٠].

إن خمسة ألف بيت تعني عشرات الآلاف من الأنفس: فلفظة بيت كانت تعني لنا كسودانيين أسرة ممتدة ، وفي الغالب ، لن يقل عدد أعضائها عن عشرة أشخاص. وذلك يعني أن عدد الجلابة في ربوع دار فور قد يتجاوز الخمسين ألف شخص! وهذه الافادة كتبها الرحالة ناختيقال في عام ١٨٧٤م. فإذا كان الجلابة قد استقروا هناك _على قوله _ قبل قرون ، فمتى وفدوا؟! وكيف عاشوا في أمن وأمان، ومارسوا حياة طبيعية طوال قرون؟! وهل كانوا ليبقوا كل تلك المدة الطويلة اذا كانوا مهددين في أنفسهم أو أموالهم؟!

ولم يقتصر دور الجلابة على التجارة بل امتد للسياسة . إذ برزت أسماء عديدة خلال تاريخ دارفور ، كانت قريبة من البلاط بصورة أو أخرى. فقد كان عبد الله ود النو، وهو من دنقلا أحد

---

٣٠٩ ـ نفس المرجع ، ص ٦١ .

٣١٠ ـ جوستاف نختيقال ، رحلتي إلى دارفور ، ترجمة النور عثمان أبكر ، ص١٤٥ ــ ١٤٦

أبـرز المؤثريـن عـلى السـلطان محمـد الفضـل ، رغـم أنـه لـم يشـغل منصبـا محـددا.[٣١١].وفي عهـد ابنـه السـلطان محمـد الحسـين كان الفقيـه الدرديـري هـو المستشـار السري للسـلطان ، إذ كان يتمتـع باحـترام ولديـه تقديـر خـاص. وبلـغ نفـوذه السـياسي ، بعـد وفـاة السـلطان ، أن كان ضمـن القـادة السـاعين لتنصيـب الأبـن الأكـبر للسـلطان ، لكـن سـبقهم الآخـرون مـن أنصـار الابـن الأصغـر ابراهيـم ، الـذي تـولى الحكـم ، وكان مصـيره – الفقيـه الدرديـري – السـجن [٣١٢].وفي عهـد السـلطان ابراهيـم كان الرجـل الاكثـر أهميـة في البـلاط السـلطاني هـو كبـير الجلابـة الخبـير محمـد الـذي كان صهـرا للملـك.[٣١٣]. يصفـه ناختيقـال قائـلا (وكان الخبير رجـلا هامـا ، لا بحكـم علاقتـه الوثيقـة بالملـك فحسـب ، بـل أيضـاً بحكـم ثروتـه الكبـيرة. والتـي يقـال إنهـا تفـوق ثـروة التجـار المسـلمين في مـصر ، أو حتـى في جده)[٣١٤].ويسـتدعي هـذا سـؤال بدهـي : كيـف اسـتطاع هـذا الجلابـي تكويـن ثـروة بهـذا القـدر في قلـب دارفـور ، أن لـم يجـد بيئـة مسـاندة للغايـة؟!

ووفـق التسلسـل التاريخـي لسـلطنة الفور فـإن السـلطان ابراهيـم كان آخـر سـلطان قبـل إسـقاطها بواسـطة الزبـير باشـافي ١٨٧٤م. فـإذا كان هـذا هـو حـال الجلابـة في ربـوع دار فـور، فمتـى وكيـف سـاءت العلاقـة؟

---

٣١١ ـ جوستاف نختيقال ، رحلتي إلى دارفور ، ترجمة النور عثمان أبكر ، ص٩١

٣١٢ ـ نفس المرجع ، ص ١٠٧

٣١٣ ـ نفس المرجع ، ص ٤٥

٣١٤ ـ نفس المرجع ، ص ٥٢

الفصل الثاني
توتر العلاقة

يمكـن القـول إن العلاقـة قـد سـاءت نتيجـة ظـروف موضوعية وليسـت عرقيـة. ففـي السـنوات الأخـيرة مـن حكـم السـلطان محمـد الحسـين الـذي كان قـد فقـد بـصره . وضعفـت قبضتـه، تغـول مـن حولـه عـلى سـلطاته فاسـتبدوا بالنـاس. وكانـت أختـه زمـزم "الايابـاسي" عـلى رأس هـؤلاء فقـد (كانـت لهـا شـخصية كالرجـال ، تمـارس سـلطة واسـعة ، حتـى أنهـا كانـت تفعـل مـا تريـد دون خشـية. وكانـت مسـتبدة بطبعهـا ، وكانـت تجـوب البـلاد عـلى رأس رجالهـا المسـلحين، تنتـزع المناطـق ألواقعـة تحـت سـيطرتها ، وتسـتولى مـن الملـك عـلى الحواكـير التـي تـروق لهـا بـكل سـهوله. كانـت مكروهـة ، ويخافهـا النـاس في كل البـلاد) [٣١٥].

هـذه هـي الفـترة التـي بـدأت فيهـا معانـاة الجلابـة مواطنـي دارفـور. فقـد شـملهم ماجـرى عـلى مواطنهـا مـن عسـف تنابلـة السـلطان الكفيـف. أختـه "الايابـاسي" زمـزم وزبانيتهـا الذيـن اخافـوا الجميـع ، وكرهـا النـاس. وبالطبـع ، كان الجلابـة مـن النـاس ، وكان لديهـم مـا يثـير طمـع الايابـاسي !

لقـد حـل العقـاب بكوبيـه الجميلـة ، كمـا حـل بغيرهـا خـلال تلـك الفـترة. يصـف ناختيقـال حالهـا قائـلا (إن المـكان كان أكثـر سـكانا فيمـا مـضى. وقـد انخفـض عـدد السـكان بشـكل حـاد في الخمسـة عـشر عامـاً الأخـيرة بسـبب الممارسـات التعسـفية ، وضعـف الملـك حسـين. إذ رغمـا عـن طيبـة طويتـه كان جشـعا ، كمـا تـرك البـلاد لنهـب عبيـده

٣١٥ ـ جوستاف نختيقال ، رحلتي إلى دارفور ، ترجمة النور عثمان أبكر ، ص١٠٤

المفضلين. ولتصوير ذلك امدني شمس الدين والحاج احمد ، علي الفور بأسماء ثمانين عائلة ، من العائلات المرموقة كانت ضحية للظلم في تلك الفترة من جانب الحكومة.وقد اتجهوا شرقا دون أي ممتلكات ، أو ظلوا في فقر مدقع حتى دمروا وماتوا. وقد انتقل قسم صغير إلى الفاشر ، واستقر بها ، حيث أصبحوا أقل عرضة للنهب من قبل العبيد، وهم تحت بصر الملك)[٣١٦].لقد عانى الناس جميعا ، لا الجلابة وحدهم ، قصورا امنيا مروعا خلال هذه المرحلة ، وحتى عهد السلطان ابراهيم. يعكس ذلك رد الملك نفسه على طلب ناختيقال بشأن السماح له بزيارة بعض أقاليم مملكته لغرض البحث العلمي، يقول ناختيقال إن الملك رد عليه بانه (لم يحكم بما يكفي ، في ظل الظروف الراهنة الصعبة لكي يضمن سلامتي، وأمني، وحياتي خارج عاصمته)! [٣١٧].

كذلك ، كان للاقتصاد المتداعي تاثير كبير على العلاقة . ففي أواخر الخمسينيات من القرن التاسع عشر واجهت تجارة الرقيق والعاج ضغوط دولية أدت إلى تقلص اقتصاد كثير من الممالك والسلطنات. وقد واجهت سلطنة الفور مهدداً آخر على اقتصادها المتداعي ، هو غزو البحارنه _ الجلابة _ اراضي الوثنيين جنوب إقليم دارفور خلال خمسينيات وستينيات القرن التاسع عشر. حيث انتشروا فيها لأجل صيد الأفيال والحصول على العاج أحد المصادر الرئيسية لاقتصاد السلطنة. يصف ناختيقال حال الاقتصاد خلال تلك الفترة بقوله (ولقد كانت مصادر العاج تغيض منذ أن بدأ البحارنه في استغلالها، واستولوا على الإقليم في جنوب دارفور فقنع الناس باستيراده من وادي)[٣١٨].ويصف الحال في موضع آخر (وكانت حالة البلاد تتدهور أكثر فأكثر ، بسبب قلة العاج الذي كان يستجلب من بلاد الوثنيين

٣١٦ ـ نفس المرجع ، ص ٤٣

٣١٧ ـ نفس المرجع ، ص ٥٥

٣١٨ ـ جوستاف نختيقال ، رحلتي إلى دارفور ، ترجمة النور عثمان أبكر ، ص٤٢

الواقعــة جنوبــاً إلى الجنــوب الغربــي. والتــي ظلــت تســتغل منــذ ســنوات مــن قبــل وداي والبحارنــه).

وقــد تطــورت الأزمــة الاقتصاديــة للســلطنة إلى أزمــة سياســية. فقــد بــدأ الزبــير يطالــب الســلطان حســين بــأراضي الوثنيــين ، وكان ملحاحــا. وفي حــدة رد الملــك (بأنــه لا يخــشى مــن الزبــير ، وأنــه لــم يتعــود أن يــرى تجــار الخيــول يختصــون بأمــر الحكــم ، والتــي هــي عــادة مــن شــأن الملوك)[٣١٩].ومــع ذلــك ، وبمــرور الوقــت (أصبحــت كل المناطــق الواقعــة جنــوب دارفــور تأتمــر بأمــر الزبــير ، لا بأمــر ســيدها وحاكمهــا الحقيقــي. فأصحــاب حفــرة النحــاس التعايشــة والهبانيــة وأمــراء البــلاد الوثنيــة دلقونــا وكواتــواكا صــاروا يدفعــون الجزيــة للزبــير. وعقــد الرزيقــات ، اقــوى رعايــا دار فــور ، معاهــدات مــع الزبــير بطريقــة وديــة. وأصبحــت الــدول حتــى البورنــو تحــس بأنهــا مهــددة بالقــوة المتناميــة لهــؤلاء البحارنــة الذيــن أخــذت حملاتهــم وعملياتهــم الحربيــة تمتــد وتمتــد). [٣٢٠].

ولابــد أن هــذا ســبب كافي لنشــوء كراهيــة بــين الطرفــين. خاصــة بعــد اســقاط النظــام مــن قبــل الزبــير. لقــد كان حدثــا مأســاويا لســلطنة تمتعــت بالحكــم المنفــرد عــدة قــرون ، لتتحــول بــين ليلــة وضحاهــا إلى كيــان بائــد. وفضــلاً عــن ذلــك ، يصبــح أفــراد الأسرة الحاكمــة طريديــن مطلوبــين باعتبارهــم خارجــين عــن القانــون ، والانكــى أن يكــون منفــذوا القانــون هــم الجلابــة. فجــأة جلــس الجلابــة عــلى كــرسي الســلطان المغــدور، وورثتــه قيــد الطلــب. بعــد هــذه المرحلــة تحــول ورثــة الســلطنة إلى مــا عــرف بســلاطين الظــل [٣٢١].وهــم مــن كان يفــترض ايلولــة الحكــم لهــم ، قــادوا المعارضــة ضــد الســلطة الجديــدة التــي كان عــلى رأســها الجلابــة. وكان مــن أبــرز نتائــج ذلــك الــصراع مقتــل الســلطان هــرون

٣١٩ ـ نفس المرجع ، ص ١٠٦

٣٢٠ ـ نفس المرجع ، ص ٧٧

٣٢١ ـ عددهم ٧ سلاطين ظل آخرهم على دينار. تكنه ص٧٠

بـن سـيف الديـن عـلى يـد النـور عنقـره ، الـذي كان مديـراً عـلى مركـز كلكل.ومـن بعـد ارسـل رأسـه إلى السـلطات التركيـة بالفـاشر في مـارس ١٨٨٠م[٣٢٢].

ومـن ناحيـة أخـرى ، تبدلـت الأدوار نتيجـة سياسـة محاربـة تجـارة الرقيـق في عهـد غـردون. ففـي العـام ١٨٧٨م. تمـرد سـليمان ابـن الزبـير باشـا في بحـر الغـزال ، وانتهـى تمـرده بإعدامـه وبعض كبـار قادتـه [٣٢٣]. وكان الضابـط جيـسي الـذي تـولى مطـاردة سـليمان الزبـير ، قـد سـمح للقبائـل المحليـة بتعقـب الجلابـة ونهبهـم والقضـاء عليهـم [٣٢٤]. وكان ذلـك سـبباً رئيسـياً في تدهـور العلاقـة بينهـم والبقـارة "الغرابـة". يصـف بروفيسـور هولـت تلـك الفـترة بقولـه (كانـت العلاقـة بـين الشـماليين، بصفـة عامـة، وبـين البقـارة شـديدة التوتـر منـذ أبـاح غـردون مطـاردة الجلابـة)[٣٢٥]. وهـذا التوتـر كان موضوعيـا وليـس عرقيـا. فأهـل الشـمال كانـوا شـديدي الانفعـال بمـا يحـدث لأبنائهـم حيـث هاجـروا ، خاصـة في بحـر الغـزال وغيرهـا مـن مناطـق جلـب الرقيـق ، ويمكـن تشـبيه ذلـك بانفعالهـم اليـوم بمـا يحـدث لأبنائهـم المغتربـين. ولـم يقتـصر انفعالهـم بمـا يحـدث بـين ابنائهـم والغرابـة ، بـل حتـى مـا كان يحـدث بينهـم كان مؤثـرا عـلى علاقتهـم هنـا عـلى ضفـاف النيـل. فبعـد اسـتدعاء الزبـير باشـا إلى مـصر ، تنـازع قيـادة جيشـه في بحـر الغـزال ابنـه سـليمان ـ جعـلي ـ ونائبـه إدريـس ابـتر ـدنقـلاوي ـ وقـد نشـب صراع بينهمـا أدى إلى توتـر شـديد بـين الجعليـين والدناقلـة عـلى ضفـاف نهـر النيـل. فرغـم بعـد الحـدث إلا أنـه تـرك جراحـا غائـرة بـين القبيلتـين هنـا عـلى ضفـاف نهـر النيـل [٣٢٦].

---

٣٢٢ ـ د يوسف تكنه ، دار فور.صراع السلطة والموارد ص٧٣

٣٢٣ ـ سيرجي سمرنوف دولة المهدية من وجهة نظر مؤرخ سوفيتي.. ص ٢٨

٣٢٤ ـ بروفيسور. م. هولت الدولة المهدية في السودان.. ص ٨٩

٣٢٥ ـ نفس المرجع ، ص ٤٩

٣٢٦ ـ نفس المرجع ، ص ٤٩

وقياسا عليه ، ما كان لنهب شيوخ البقارة لتجار الرقيق الجلابة ، وسلبهم وقتلهم أن يمر مرور الكرام. فقد توترت العلاقة إلى مدى بعيد ، إذ ارتبطت صورة الغرابي لديهم بالناهب ، السارق. وهذا يفسر ما رواه التعايشي في جلسة عفوية لسلاطين باشا ، فقال (وكانت ملابسي ولهجة كلامي تدلان على أنني غريب. وبعدما عبرت النيل كان كلما قابلني أحد قال لي : ماذا ترغب هنا! اذهب الى بلدك. ليس هنا شئ تسرقه . وأهل النيل يسيئون الظن بنا ، لأن التجار الذين كانوا يذهبون للغرب للزبير كانوا يلاقون عنتا كبيراً من العرب. وكنت عندما اسألهم اين المهدي المعروف باسم محمد احمد ، واين يقطن؟ كانوا ينظرون إلى متعجبين ، ويقولون: وأنت ماذا ترغب منه ، إنه لا ينجس شفتيه بذكر اسم قبيلتك. ولكن ، لم الق هذه المعاملة من كل الناس. فإن بعضهم كان يشفق على ويدلني على الطريق. وكنت طوال الطريق عرضه للسخرية. ولولا أن البعض كان يشفق على ويعطيني شيئا من الطعام لمت جوعا) [٣٢٧].

مهما يكن ، كل تلك الأحداث كانت لتمضي على سجيتها ، تأخذ دورتها وتتلاشى لولا حدوث الثورة المهدية ، خلال تلك الفترة الحرجة من تاريخ علاقة الطرفين ، فقد أضافت توترا جديدا للعلاقة المتوترة أصلا! لقد ظلت البلاد منذ انفجار هذه الثورة حتى الآن مكبلة في قيودها التي ، وللمفارقة ، كانت أقوى عامل فرقة بين أطياف المجتمع السوداني. فرغم أن الفضل يعود إليها في جمع السودانيين خلال وقت قياسي ، إلا أنها قطعتهم رأسيا وافقيا. فاحداثها مازالت طازجة تجترها المجتمعات على نحو يثير الكراهية!

---

٣٢٧ ـ السيف والنار. سلاطين باشا.ص٤٠.

الفصل الثالث
بضاعة مردودة

إن أكثر ما يثير العجب اختزال النخبة السودانية - خاصة من الشمال _ كامل تاريخ المهدية ، خلال عهد الخليفة التعايشي في المسألة العرقية! فقد توسعوا في رد معظم الوقائع والأحداث ردا عرقيا. حتى يكاد يكون التسبيب الأساسي لمعظم الوقائع هو (الجفوة بين أهل البحر والغرب/الكراهية التقليدية بين الجلابة والغرابة/........ إلخ). وما يهم هنا هو التأكيد على أن تبني نخب الشمال للتفسير العرقي ، على هذا النحو ، قد أضر بهم لاحقا ، حين انقلب السحر على الساحر ، وتوارث الآخرون هذا التفسير الفطير واستخدموه ضدهم!

كتب بروفيسور هولت:(وكان طبيعيا أن يعمل الحزب السياسي الذي نما تحت قياده الامام عبد الرحمن علي إبراز اهداف المهدي ومظاهر نجاحه ، بينما أهمل خليفته ، إن لم يجرحه. أضف الى ذلك أن معظم الطبقة المتعلمة ذات التأثير في السودان هي في الغالب من سلالة سكان وادي النيل الذين مارسوا نفوذا براقا في عهد المهدي ثم حرموا منه ، بل وتعرضوا للاضطهاد في عهد خليفته. ويجب ألا نغفل الكيفية التي نمت بها ونضجت الأفكار المتواترة عن المهدية. إذ أنها لم تكن مجرد أفكار محلية أو متوارثة ، بل جاءت نتيجة تأثرها بالحكم الانجليزي وما نشره من اتجاهات على مدى خمسين عاما أو يزيد. وقد هاجم معظم الكتاب الاول من الاوربيين المهدي وعهده. ولكن الموقف تغير عقب وفاته ، إذ دوفع عن ذكراه حتى من أعدائه ، وتغيرت النظرة اليه باعتباره رجلا تغالى في تدينه وتفانى

مـن أجـل عقيدتـه ، وإن السـودانيين اضـيروا مـن جـراء ثورتـه. بينمـا وجـه إلى الخليفـة نقـد لاذع ، إذ صـور باعتبـاره رجلا قاسـيا ، جاهـلا ، ولم تجـر محاولـة لإعـادة تقييـم صفاتـه واهدافـه قبـل أن يؤلـف ثيوبولـد A.B.Theobald كتابـه في ١٩٤٩م. وهكـذا ، أصبـح اهمـال الخليفـة او تجريحـه شـيئا عاديـا تأثـر بـه تدريـس التاريـخ في السـودان ، وتأثـرت به فكـرة السـودانيين الحديثـة عـن المهديـة). [٣٢٨].

نعـم ، كانـت للتعايـشي اخطـاءه ، الكبـيرة والصغـيرة ، ولكنـه كان نسـخة طبـق الأصـل مـن المهـدي ، ومـا مـن شـئ فعلـه التعايـشي إلا وفعلـه المهـدي. وبالتـالي ، كان عـلى هـذه النخبـة إنصـاف الرجلـين معـا ، لا تأليـه أحدهمـا وشـيطنة الاخـر. ومـع ذلـك ، بـرز لاحقـا مـن أعـادوا النظـر في شـأنه، ولعـل مـن افضـل مـا قـرأت في ذلـك كتـاب الخليفـة الشـهيد ، لمؤلفـه بروفيسـور سـيد احمـد العقيـد. وأكثـر مـا ميـز الكتـاب ، في نظـري ، كـم الوثائـق الخـام التـي اعتمـد عليهـا. حتـى أن المـرء ليدهـش حـين يقـرأ في حـق التعايـشي عبـارة كهـذه (ويلاحـظ المـرء في كل الخطـابات والوصايـا التـي ظـل يبعـث بهـا الخليفـة عبـد اللـه التعايـشي إلى عمالـه و ولاتـه ، يكـرر ضرورة الالتـزام بالعـدل والانصـاف ، وينهـى عـن ظلـم الرعيـة والرفـق في معاملتهـم ، ويحرضهـم ويحثهـم عـلى تقوى اللـه عـز وجـل. وهـذا منطـوق الوثائـق الخـام التـي لـم يطـرأ عليهـا تغيـير ولا تبديـل ولا تحريـف ، وهـي المصـدر الأول والمـادة التـي يبنـى عليهـا التعليـل التاريخـي العلمـي الموضوعـي المنصـف، والمتجـرد مـن كل هـوى أو غـرض أو تبعيـة لأحد)[٣٢٩].ويقـول في موضـع آخـر (إن روحـا اثنيـة وتمـردا قبليـا وخيانـة وارتـزاق ، كانـت وراء إلصـاق أسـوأ التهـم بشـخصه ، بغيـة حمـل النـاس عـلى بغـض تلـك الفـترة الهامـة مـن تاريـخ السـودان الحديـث ، والاحتفـاء بالفـترة التاليـة لهـا ، وهـي فـترة اسـتغلال واحتـلال وطمـس هويـة...) [٣٣٠].

٣٢٨ ـ بروفيسور. م. هولت الدولة المهدية في السودان.. ص ٩ ــ ١٠
٣٢٩ ـ بروفيسور سيد احمد العقيدالخليفة الشهيد.. ص ٩٧
٣٣٠ ـ نفس المرجع ، ص ١٣١

كان للشماليين سبق الكتابة والتعليق على وقائع تاريخنا المعاصر. وقد نحت معظم الكتابات من قبلهم ، أو بتأثير منهم ، نحو إثبات عرقية الوقائع أكثر من موضوعيتها ، ولم يسلم من ذلك حتى البحث العلمي. ومن أمثلة ذلك ما ورد في سياق تقديم بروفيسور ابوشوك لمذكرات يوسف ميخائيل ، وذلك فيما يتعلق ببعض وقائع الصراع في مديرية كردفان ، قبيل الثورة المهدية ، في مدينة الأبيض. حيث دار صراع بين ثلاثة من زعمائها ، وهم إثنان من الجعليين وغرابي. وكان الصراع أساساً بين الجعليين الاثنين ، ولكن بحيلة ماكرة ورط أحدهما الغرابي في الصراع. وتفصيل ذلك ، أن أحد الجعليين _ إلياس باشا امبرير _ كان قد عين من قبل الحكومة المصرية التركية مديراً على كردفان. فحقد عليه ابن عمه _احمد بك دفع الله _ واراد إزاحته من منصبه ، بأقل خسارة ممكنة. فلجأ الى الغرابي المدعو على كنونة الذي كان زعيما لقبيلة الغديات ذات الشأن في كردفان. إذ ينتسب زعيمها إلى سلالة ملوك الفونج ، وكان للقبيلة نحاسها. وكان زعيمها مهابا ، يدخل إليه الزعماء على حال من التذلل والانكسار داعين له بطول البقاء. يقول يوسف ميخائيل:(وعندما نظر احمد بك دفع الله أن إلياس أخذ وظيفت باشا ، وصار هو الحاكم على مديرية كردفان حصل له غيظ عظيم ، وكمد الدم على القيح ، وصار يدبر في الأمر الذي يوقع به إلياس باشا. عندما جول افكاره قال: ليس لها إلا علي كنونه) [٣٣١].

بمكره ودهائه ، لم يجد احمد دفع الله صعوبة في استثارة هذا الزعيم ، واستغلاله كمخلب قط ، في صراعه مع المدير. ومن باب المودة التي كانت بينه وزعيم الغديات تسلل تحريضه ، فقد خاطبه (يا شيخ على كنونة ، هل وافقك بأن يكون إلياس باشا ماسك زمام الحكم وانت موجود ، ومن أهل الفونج، أهل السلطنة الزرقا ملوك سنار؟) [٣٣٢].

---

٣٣١ ـ بروفيسور/ محمد إبراهيم أبو شوك ، مذكرات يوسف ميخائيل ، مركز عبد الكريم ميرغني.ص١٢

٣٣٢ ـ نفس المرجع ، صفحة ع

ولـم يكتـف بذلـك ، بـل احاطـه بتحريـض إضـافي مـن بعـض أبنـاء عمومتـه المقربـين مـن الزعيـم ، لاشـعاره بمـدى المهانـة والإذلال في تخطـي منصـب مدير المديريـة لـه! وبالفعـل ، مـع وعـد بالمـدد ، أثمـرت الجهـود ، واعلـن الزعيـم التمـرد عـلى المديريـة ، ممـا أدى لانقسـام مجتمـع المديريـة بينهمـا حيـث سـاند كل قسـم فريـق [٣٣٣].

لقـد كان هـذا بعـض مـا حـدث في مديريـة كردفـان قبيـل الثـورة المهديـة. ويبـدو ظاهـرا أنـه افـراز طبيعـي لظـروف منافسـة موضوعيـة. ومـع ذلـك ، لـم يـتردد بروفيسـور أبـو شـوك في تسـبيب ذلـك ب (الكراهية التقليديـة بـين الجلابـة وزعمـاء عشـائر كردفـان التـي يجسـدها الصـدام المسـلح ، الـذي نشـب بـين مديـر مديريـة كردفـان إليـاس باشـا ام بريـر ، والشـيخ عـلي كنونة،الزعيـم التقليـدي لقبائـل وسـط كردفـان) [٣٣٤].

عنـد اسـتقصاء الأحـداث بـترو ، يتضـح خطـأ الخلاصـة المذكـورة. حيـث كان ثمـة أسـباب موضوعيـة ، أعـرض عنهـا البروفيسـور المحـترم ، ويمكـن اسـتعراض شي منهـا كمـا يـلي :

* إذا كانـت المسـألة مـن قبيـل "الكراهيـة التقليديـة بـين الجلابـة والغرابـة ، لمـاذا سـكت هـذا الزعيـم المهـاب عـلى تعيـين الجلابـي ابتـداء في المنصـب المهـم. ولـم ينبـس ببنـت شـفة مـن اعـتراض ، الا بعـد تحريضـه مـن منافـس هـذا المديـر؟!

* كيـف يعقـل أن يكـون أسـاس تمـرد الزعيـم "الكراهيـة التقليديـة بـين الجلابـة والغرابـة" ويصـدف أن مـن أشـعل فتيلهـا هـو احمـد بـك دفـع اللـه ، الجعـلي؟! وطالمـا كانـت الكراهيـة موغلـة في النفـوس ، لدرجـة صيرورتهـا "تقليـدا" كيـف تكـون بينهمـا - دفـع اللـه وكنونـه - هـذه المـودة لدرجـة أن يسـتمع لنصحـه ، بـل ويعمـل بـه لأجـل اتخـاذ أخطـر قـرار في حياتـه عـلى الإطـلاق ، ذلـك القـرار الـذي اودى بـه إلى المـوت؟!

---

٣٣٣ ـ مذكر اتيوسف ميخائيل . صفحة ع

٣٣٤ ـ يوسف ميخائيل. صفحة ع. تقديم وتحقيق د. احمد ابر اهيم ابو شوك].

* الملاحـظ ، أنـه لأجـل اسـتنهاضه ، لـم يذكـر المحـرض – احمـد بـك دفـع اللـه – شـيئا مـن هـذه الكراهيـة التقليدية للشـيخ عـلي كنونـه ، وذلك لزيـادة عزيمتـه ضـد المديـر الجلابـي. وانمـا حـصر حججـه التحريضيـة في أسـباب موضوعيـة ، بـدأت بتذكـيره أنـه حفيـد ملـوك الفونـج ، وآل الحكـم عـلى كافـة ربـوع كردفـان ، وأنـه الأحـق بالمنصـب مـن إليـاس باشـا امبريـر ،وان ظلمـا قـد وقـع عليـه مـن قبـل الحكومـة ، وأن كبريـاءه قـد انتهـك ، و........الـخ. والمؤكـد أن منافسـا حاقـدا مثـل احمدبـك دفـع اللـه ، الـذي وصـف يوسـف ميخائيـل غلـه تجـاه تعيـين ابـن عمـه إليـاس باشـا ام بريـر في المنصـب بقولـه (حصـل لـه غيـظ عظيـم ، وكمـد الـدم عـلى القيـح)! [٣٣٥].مـا كان ليردعـه شـئ عـن اسـتخدام هـذه "الكراهيـة التقليديـة" إن كانـت سـتحقق لـه نتيجـة. ولـكان قـد اعتمـد عليها بشـكل أسـاسي ، بـدلا عـن البحـث عـن أسـباب موضوعيـة يطـول التجـادل شـأنها!

* لـئن صدقنـا بـأن أسـاس التمـرد كان "الكراهيـة التقليديـة بـين الجلابـة والغرابة"كيـف يفـسر انقسـام الغرابـة بـين الحكومـة والمعارضة ، وهـو ذات حـال الجلابـة؟! لقـد كان قائـد التمـرد غرابـي ، يقاتـل الحكومة وفي صفـه غرابـة! وفي الوقـت ذاتـه ، كانـت الحكومـة تدحـر هـذا التمـرد وفي صفهـا غرابـة ، ومنهـم بعـض أبنـاء عمومـة المتمـرد يقاتلونـه لصالـح الحكومـة. وهـو حـال الجلابـة ، الذيـن كانـوا يقاتلـون عـلى الجانبـين في الوقـت ذاتـه!

والمفارقـة، كانـت في ازدواجيـة تسـبيب البروفيسـور المحـترم ، بـأن مـا كان يحـدث بـين الجعليـين _ إليـاس باشـا امبريـر وأحمـد بـك دفـع اللـه _ سـببه الخصومـة المصلحيـة[٣٣٦].وأن هـذه الخصومـة المصلحية تجسـدت في منافسـتهما حـول منصـب مديـر المديريـة! والسـؤال هـو : أليـس هـذا عين

٣٣٥ ـ نفس المرجع ، ص ١١

٣٣٦ ـ مذكرات يوسف ميخائيل، ص ٢٣٥

مـا وقـع بـين إليـاس باشـا امبريـر والشـيخ عـلي كنونـة. أو بتعبـير آخـر ، بـين الغرابـي والجلابـي؟! فمـا الـذي يجعـل خصومـة الجعليـين خصومـة مصلحيـة ، وخصومـة الغرابـي والجلابـي "كراهيـة تقليديـة بـين الغرابـة و الجلابـة , مـع أن موضوعهمـا واحـد؟! انظـر قولـه: [(واوثـق شـاهد يرويـه لنـا يوسـف ميخائيـل في هـذا المضمـار هـو الـصراع الـذي حـدث بـين إليـاس باشـا ام بريـر وأحمـد بـك دفـع اللـه عقـب تعيـين الأول مديراً عـلى مديريـة كردفـان ، فـلا شـك أنـه كان صراعـا محكومـاً بظـروف محليـه صرفـة تتجـلى في الخصومـة المصلحيـة بـين الرجلـين التـي افرزهـا التنافـس التجـاري في سـوق الأبيـض آنـذاك، ويتجـلى أيضـا في الكراهيـة التقليديـة بـين الجلابـة وزعمـاء عشـائر كردفـان التـي يجسـدها الصـدام المسـلح الـذي نشـب بـين مديـر مديريـة كردفـان إليـاس باشـا ام بريـر ، والشـيخ عـلي كنونـة الزعيـم التقليـدي لقبائـل وسـط كردفـان)] (٣٣٧).

في الواقـع ، كانـت هـذه الكراهيـة التقليديـة في أذهـان النخبـة السـودانية أكثـر مـن الواقـع. وظلـوا يجتهـدون في اصطناعهـا ، وإن كانـت هنـاك أسـباب أكثـر جـدارة. نعـم ، قـد يقـول قائـل ، ولكـن عـلي كنونـه بـدأ تمـرده بقتـل موظفـين حكوميـين ونهبهـم ، وتوزيـع المنهوبـات عـلى رجالـه ، وهـو يقـول (تانـي لا ندفـع طلبـة وأنـا حـي في داري ، مـادام الجعـلي يكـون حاكـم علينـا. مـن بعـد بيـع الشـطة والملـح ، صـار في ثـروة كبـيرة ، وأخـذ وظيفـة باشـا ، ويحكـم علينـا الجلابـي...) (٣٣٨).

ظـل كثـير مـن الكتـاب يـرى ضالتـه في مثـل هـذه العبـارات ، ويجدهـا دليـلا دامغـا يثبـت تلـك "الكراهيـة التقليديـة". وبالطبـع ، جانبهـم التوفيـق ، حيـث لا تعـدو كونهـا احباطـات شـخصية ، تخـرج مـن أي سـوداني في ثنايـا هـذه المنافسـة الحاقـدة. وهـي لا تزيـد عـن احباطـات شـخصية لهـذا الزعيـم الـذي ينـزع الزعمـاء الآخـرون في حضرتـه العمائـم

٣٣٧ - يوسف ميخائيل، ص ع تقديم وتحقيق د. احمد ابراهيم ابو شوك، ص ٢٤٠

٣٣٨ - نفس المرجع، ص١١

والطواقــي والأحذيــة! تلــك المــرارة التــي تجرعهــا هــذا الزعيــم ، حــين يــرى شــخصاً فقــيرا "يــكاد يبــين"، وشــيئا فشــيئا بجــد وجهــد ، نمــا هــذا الفقــير وارتفــع ، حتــى تفاجــأ بــه يخطــف حلمــه الأعظــم ، المنصــب الأهــم ، حاكــم عمــوم كردفــان. ولــئن تلفــت حولــك ، الآن ، عزيــزي القــاريء لــن تعــدم رؤيــة هــذا النمــوذج بــين أقــرب النــاس إليــك!

وصــف ســلاطين باشــا اعتــذار المهــدي لشــيخه محمــد شريــف. فرغــم مجيئــه إليــه عــلى حــال مــن التذلــل والانكســار. إلا أن الشــيخ طــرده قائــلاً (اخســأ عنــي يــا خائــن... أيهاالدنقــلاوي الشــقي الــذي لا يخــاف اللــه ، والــذي يخــرج عــلى معلمــه ومــولاه. لقــد حققــت قــول مــن قــال: الدنقــلاوي شــيطان مجلــد بجلــد انســان)[٣٣٩].ومثل هــذه الأقــوال لا تعــدو كونهــا احباطــات شــخصية لا اكثــر ، تجعــل الإنســان يتفــوه بالــكلام دون قصــد. ولعــل ابلــغ دليــل عــلى ذلــك ، مــا نســمعه يخــرج مــن أفــواه الأمهــات ســاعات الغضــب ، تجــاه أبنائهــن مصحوبــا بقــذف النعــال ، ولربمــا بلــغ الشــتم حــد : يــا ود ال.....! مــع أن الإســاءة تلحقهــا قبــل الابــن الــذي يركــض ضاحــكا!

---

٣٣٩ ـ سلاطين باشا ، السيف والنار.. ص٣٧

خاتمه

خلال صفحات الكتاب تتبعنا جذر الأزمة السودانية ، للوصول إليه ومعرفته جيداً ، لأجل البحث عن علاج ناجع يضع حداً لتدهور هذا العملاق الذي يسمى السودان. وقد اقتضت منهجية البحث الوقوف أولا على الجهود السابقة التي بذلت لأجل الكشف عن هذا الجذر. وقد انصب اهتمامنا على رؤية السودانيين أنفسهم لجذر الأزمة. وكان تطور هذه الرؤية مدهشاً ، تأثرت بوجود الاستعمار وخروجه. ففي ظل وجوده كاد السودانيون أن يجمعوا على أن جذر الأزمة هو الاستعمار نفسه.

ورغم اختلاف فترتي ونهجي الاستعمارين التركي المصري والانجليزي المصري ، إلا أن السودانيين لم يتأثروا بذلك ، واعتبروا أن جذر الأزمة هو الاستعمار ولا شئ غيره. وترتب على ذلك اتفاق معظمهم على ضرورة طرده من البلاد ، وهو ما قدم لهم هدفا مشتركا إلى التقديس أقرب ، كان سبب استرخاصهم الدماء في الثورة المهدية(*) وتكبدهم المشاق لإخراج المستعمر الانجليزي.

وبعد خروج المستعمر ، تفاجأوا بسوء الحال أكثر ، ومن بعد اجبرهم الواقع إلى تطوير مفاهيمهم حول جذر الأزمة لتتخطى حاجز الاستعمار. وساعدهم في ذلك تطور الحياة الإنسانية ، بما أفرزته من مدارس ومعاهد وجامعات ، فضلا عن بروز وسائل الإعلام المختلفة وما قدمته من تنوير معرفي مذهل. فخرجت رؤى عديدة جديرة بالفحص والتأمل. كان أبرزها ما قدمنا في هذا الكتاب خلال الباب الثالث ، ”مدرسة ما بعد الاستقلال“.

وجديـر بالذكـر ، أن ثمـة رؤى ثـلاث لـم يشـملها هـذا الكتـاب لا بـأس مـن الوقـوف عليهـا لماما ، قبـل الختـام. وهـذه الـرؤى الثـلاث كمـا يـلي:

الرؤيـة الأولى: تعـود أولاهـا لدكتـور محمـد سـليمان محمد ، وقـد أبرزها خـلال سـفره القيـم ”السـودان حـروب المـوارد والهويـة“. وملخصهـا أن جـذر الأزمـة يعـود إلى التغـيرات الايكولوجيـة التـي حدثـت منـذ أواخـر الخمسـينيات وأدت إلى الجفـاف السـاحلي والتصحـر ، وربـط ذلـك بنهـب المـوارد الـذي كان يقـوم عـلى تصديـق مشـاريع زراعيـة شاسـعة المسـاحة تزيـد أحيانـاً عـن المليـون فـدان لفـرد واحـد أو أسرة ، تطبيقـا لسياسـات البنـك الـدولي. ممـا أدى إلى آثـار كارثيـة عـلى البيئـه والمجتمعـات المحليـة عـلى السـواء ، مـا أدى إلى نقـص المـوارد بشـكل حـاد ، في الوقـت الـذي زاد فيـه عـدد السـكان ، فكانـت النتيجـة انـدلاع الحـروب ، في غـرب السـودان خاصـة ، وزعزعـة الاسـتقرار.

ومما لا شـك فيـه أن لهـذه الرؤيـة أهميـة بالغـة للسـودان والمجتمعـات الأفريقيـة ، بالنظـر إلى مـا بـذل فيهـا مـن جهـد وتميـز. لكـن مـا توصلـت إليـه لا يعـد بالنسـبة إلى خـط هـذه الدراسـة جـذراً للأزمـة. ولتأكيـد ذلـك نطـرح سـؤالاً بسـيطا هـو: مـا هـو تفسـير الرؤيـة لتصـدع المجتمعـات في السـودان قبـل مائتـين أو ثلاثمائـة سـنة وأكثـر؟ فـإذا كانـت الرؤيـة تـرى أن جـذر ألازمـة يعـود إلى نقـص المـوارد بشـكل حـاد ، منـذ أواخـر الخمسـينات مـع زيـادة السـكان، ممـا أدى إلى انـدلاع الحـروب. فكيـف تفـسر لنـا الحـروب الطاحنـة بـين مختلـف قبائـل السـودان ، قبـل أكثـر مـن مائتـي عـام ، حينمـا كان عـدد السـودانيين ضئيـلا جـدا _ مليـون أو مليونـين _ وكانـت المـوارد وفـيرة لدرجـة لا تصـدق. فمـا سـبب قتالهـم يومـذاك؟!

الرؤيـة الثانيـة ، يقـول بهـا د.النـور حمـد في كتابـه ”السـودان وآفـاق الوعـي بالـذات“ . وملخصهـا أن جـذر ألازمـة يعـود إلى القـرن الرابـع

الميـلادي حـين غـزا الأحبـاش مملكـة مـروي واسـقطوها ، ممـا ابعـد الدولـة السـودانية عـن "الفعـل الحضـاري". ويـرى (إن تراجـع السـودان عقـب إنهيـار حضـارة مـروي، مقارنـة بغـيره ، كان تراجعـا كبـيرا). [٣٤٠].

كمـا يـرى أن غـزو محمد عـلي باشـا للسـودان قطـع التطـور الطبيعي للدولـة السـودانية آنـذاك ، الفونـج ، وتـم حشرهـا في فضـاء الحداثـة قـسراً بواسـطة الاسـتعمارين التركـي والانجليـزي. وكان مـن نتائـج غـزو محمـد عـلي "إربـاك نمـو الفعـل السـوداني" ، وتغيـير بنيتـه ممـا يمكـن أن يطلـق عليـه "الإحتـلال العقـلي". [٣٤١].

وقـد اتفـق معـه في جزئيـة صغـيرة تمثلـت في وجـود أثـر مـا لغـزو الأحبـاش قبـل الـف وسـبعمائة سـنة تقريبـاً ، ومـن بـاب أولى وجـوده ضمـن مخلفـات غـزو محمـد عـلي والغـزو الثنائـي. إلا أننـي لا أتفـق مطلقـاً في اعتبـار ذلـك جـذراً للأزمـة. فالغـزو كان الفعـل التاريخـي الأبرز في سـياق علاقـات الأمـم ، فمـا مـن أمـة لـم تغـز أو تغـزو خـلال تاريخهـا الـذي يعـود لمـا يقـرب مـن الألفـي عـام. وإذا اعتبرنـا أن الغـزو وتحطيـم الحضـارات جـذراً لأزمـات البـلاد لمـا نهضـت اليـوم بـلاد!

ومـن ناحيـة أخـرى ، كان فعـل الغـزو مجـرد "ومضـة تاريخيـة" ، وليـس فعـلا متصـلا حتـى يعلـق بالذاكـرة الجمعيـة للأمـة ممـا قـد يسـبب لهـا انتكاسـة تقعدهـا ، ولـولا كتـب التاريـخ لمـا علمـه اليـوم سـوداني أو تذكـره حبـشي ! ومجمـلا ، يصعـب عـلى المـرء رد أزمـة الدولـة السـودانية اليـوم إلى ذلـك الحيـز التاريخـي البعيـد المنبـت . وعـلى ضـوء ذلـك ، لـم أر في هـذه الـرؤى مـا يمكـن اعتبـاره جـذراً للأزمـة.

الرؤيـة الثالثـة :وتتعلـق بمسـألة الإمبرياليـة ، كأسـاس لهيمنـة الـدول العظمـى عـلى فضـاء الـدول الضعيفـة ، واغراقهـا في مسـتنقع الأزمـات تمهيـداً للإسـتمرار في نهبهـا. وهـي كذلـك حجـة قويـة ، لكنهـا لا تعـدو

٣٤٠ ـ د. النور حمد ، السودان وآفاق الوعي بالذات. ص١٠.

٣٤١ ـ نفس المرجع ، ص ١٥

كونهـا وصـف تقريـري للواقـع ، وليسـت جـذراً للأزمـة. وفيـه نقـول: نعـم ، معظـم سـكان الكـرة الأرضيـة باتـوا مدركـين أن ذلـك يحـدث ، لكن السـؤال الـذي يسـتحق الإجابـة ، لمـاذ؟! أي ، لمـاذا منـذ مئـات السـنين ، على الأقـل ، ظلـت القـوى العظمـى تنهـب مـوارد الـدول المسـتضعفة وتسـتمتع بهـا ، وبالـكاد تقـوى هـذه البلـدان المسـتضعفة عـلى فعـل شيء؟! إن مجـرد طـرح السـؤال يؤكـد أن الإمبرياليـة لا تعـدو كونهـا انعكاسـا لجـذر الأزمـة!

وبالعـودة إلى رؤى السـودانيين حـول جـذر الأزمـة ، وفـق مـا ورد في البـاب الثالـث ، خـلال "مدرسـة مـا بعـد الاسـتقلال"، وباسـتثناء جنـاح القوميـين ،نجـد أن القاسـم المشـترك بينهـا جميعـا هـو اعتقادهـا _ بصـورة أو أخـرى _ أن العـرق هـو جـذر ألازمـة. فالهويـة ، الجهويـة ، العنصريـة ، العرقيـة ، المركـز والهامـش ،جميعهـا تنتهـي نهايـات عرقيـة. ولا يقتـصر هـذا عـلى السـودان ، وانمـا يغطـي معظـم أنحـاء افريقيـا ، وبلـدان اخـرى مـن العالـم. وصرخـات الحشـد العرقي هي الأعـلى.وفي ذلـك قيـل (بينمـا يبحـث كل منافـس عـن وسـائل لجـذب الحـد الأقـصى مـن المسـاندة لـه ، فـإن الانتمـاء العرقـي يعتـبر أكثـر صرخـات الحشـد المعنـوي دويـا ، وأن ملاحظـة الباحـث ماركاكيـس فيمـا يتعلـق بـأن مـن بـين كل الأسـلحة الايدلوجيـة التـي اسـتخدمت في الحـروب الأفريقيـة فـإن السـلالية العشـائرية أثبتـت ، إلى حـد كبـير ، أن لهـا القـدح المعـلى كمبـدأ للتضامـن السـياسي ولحشـد المناصريـن ، بالإضافـة إلى كونهـا قـوة سياسـية مسـيطرة. والنتيجـة أن النـزاع حـول الثـروات الماديـة اذا مـا تدثـر برمزيـة الـصراع مـن أجـل البقـاء العرقـي ، وتغـذى بالدائـرة المفرغـة للانتقـام ، فإنـه يمكـن أن يظـل محتدمـا لفـترة أطـول ، حتـى بعـد أن تتـم تسـوية القضيـة التـي كانـت في البـدء سـببا لتفجـير الـصراع).[٣٤٢]

وهي حقيقة ناصعة ، ولكن ، السؤال : لماذا؟!

---

٣٤٢ ـ د. محمد سليمان محمد. السودان ، حروب الموارد والهوية ، ص٩٥.

الملاحق

جدلية التشوهات ومستقبل وحدة السودان*

الحلقة الأولى

* مقال للمؤلف، نشر في صحيفة الرأي الآخر..العدد ١١٩٣. الخميس/٢٩/محرم/١٤٢١. الموافق ٤/٥/٢٠٠٠م.الموافق ٢٩/محرم/١٤٢١

ما اقسى تشطر وطنك أمام ناظريك. وعيناك _ من الهول الأعظم _ تجحظان! لم أر في الشأن الوطني كارثة على رجلين تسعى رؤيتي أهل بلادي عشرة الأيام الماضية وهم فريقين ، شمال ولا شمال!

كان الألم الأعظم انسياق أئمة المساجد والكتاب ، في عصبية ناشزة ، خلف صدى "الكتاب الأسود"! لأول مرة تشتم رائحة الكتابات و "تجغرف " إقليميا ، وتصنف : كتابات شمالية وغربية! كان الألم الأعظم رؤية كتاب متمرسين شامخين بحب السودان يتهاوون كما الشهب ، كلهم إلا قليلاً ، تعصبوا لشمالهم أو غربهم ، جاعلين أصابعهم في آذانهم لتبعد عنهم صدى الحقيقة!

ولا نعني بذلك مطالبتهم بالإنسلاخ عن غربيتهم أو شماليتهم ، فنحن ندرك أنه مطلب يخالف طبع الاشياء ، إذ يستحيل على الإنسان أن يكون "محايدا" لخروج ذلك عن سلطته ، وهو بطبعه منتم شتى ضروب الإنتماء. وانما نطالبه بالتجرد والموضوعية. وبمقدوره ذلك ، وما التجرد إلا أقصى جهد مبذول لمغالبة الهوى ، وقد فرق بينهما _ التجرد والحياد _ الاستاذ.أ.د/ناصر الرشيد ، قسم اللغة العربية ، جامعة الملك سعود ، حيث قال في صفحة ٣٥ من مجلة الفيصل ، عدد ١٨٧: (لا يوجد شيء في الوجود محايد .. إن عدم اتخاذ موقف

هــو في حقيقــة الأمــر إتخــاذ موقــف . ومــن هنــا ينتفــي معنــى "حيــاد"
وهــذا الاضطــراب في الفهــم أدى إلى الخلــط بــين معنــى "الحيــاد " ومفهــوم
"التجــرد". فالتجــرد معنــاه النظــر إلى الأمــر ، أي أمــر ، بعــين العــدل
وتحــري الحــق دون اســقاطات أو تصــورات مســبقة ، أو مؤثــرات خــارج
هــذا الأمــر نفســه).

وعليــه ، كان عــلى جماهــير الكتــاب والأئمــة حفــظ الوطــن مــن التــشرذم
، لا حفــر خنــادق مواجهــة ، ومعســكرات مجابهــة ، والبــلاد عــلى شــفا
هاويــة! ومــا اليــد التــي ســتلقي بهــا إلى قاعهــا الا العنصريــة البغيضــة.
وعليــه ، مــا مــن أمــر شــغل البــلاد طويــلا وقعــد بهــا عــن الركــب كأمر
التمييــز العنــصري الــذي يتبادلــه الشــمال واللاشــمال عمومــاً. والشــمال
والغــرب خصوصــا ، في إتهــام متواصــل ، متواتــر ، جيــل عــن جيــل .

ولمــا فــرض علينــا الموضــوع نفســه واقحمهــا في عمــق حياتنــا ، توجــب
علينــا مرغمــين التعــرض إليــه بالنقــاش الهــادف. وعــلى هــدي ذلــك ، لنــا
أن نتســاءل: هــل في بلادنــا تمييــز عرقــي عنــصري ؟! إن نظرنــا ســطحا
وتعجلنــا الإجابــة ، يمكننــا القــول "نعــم"! ولكــن ، إن تعمقنــا وقدرنــا
ونظرنــا ، نســتطيع القــول ، جازمــين ، بعدم وجودهــا في الســودان! فالتفرقة
أو التمييــز العرقــي ، أساســه القطيعــة الكاملــة والفصــل التــام بــين أبنــاء
الوطــن الواحــد ، عــلى نحــو ناميبيــا وبريتوريــا والجنــوب الافريقي ســابقآ
وغيرهــا. ففــي تلــك البــلاد قامــت التفرقــة العنصريــة عــلى واقــع لا تكفــي
للتعبــير عنــه كلمــات ك "مؤلــم" أو "قــاسي" أو "فــظ" Horible

بــل لا تكفــي للتعبــير عنــه لوصفــه حيــث يســتطيع عــشرات الأشــخاص
مــن دم واحــد تعذيــب رجــل أو امــرأة ، أو طفــل حتــى الممــات ، لا لجــرم
ســوى عرقــه أو لونــه المخالــف ، دون احســاس بذنــب أو ضمــير ، وقــد
رأينــا هــذه الفظائــع ترتكــب في صربيــا ، كوســوفو ، ليبيريــا ، ســيراليون ،
وبورنــدي. حيــث كان ١٤٪ مــن مجمــوع الســكان مــن التوتــسي يتحكمون

في ٨٦٪ الهوتو ، "البابتوا ، والتوا". وكذا رواندا حيث تحكم ٩٪ من السكان ، وهم التوتسي في مصائر ٩١٪ من الهوتو "البابتوا ، والتوا".

لست ادري ، ما سيقوله دعاة التفرقة العنصرية السودانية إن علموا أنه يعد رجسا ودنسا يوجب التطهر في الهند مجرد مرور ظل شخص ينتمي إلى "طبقة سفلى" على أحد أفراد طبقة البراهمة التي تعد نفسها نخبة المجتمع الهندي (س.ج. شريف العلمي صفحة ٣٤٣٥). فليت السودانيين يصدقون أنهم في أكثر بلاد الله آمنا وسلاماً اجتماعياً ، مقارنة بغالب بلاد العالم. بلاد هي من القليل التي فيها يخرج المرء إلى الحضر أو الريف لا سلاح يحمله ، ويعود سالما ! بلاد ترتكب غالبية جرائمها نتاجاً لخلاف الأفراد لا الجماعة. وهو أمر تعرفه كافة تجمعات الإنسان. بلاد تناولت مقتل أميرة الحكيم ، قتيل الهيلتون ، حادث الاكروبول واستهلكته أشهراً عددا . وما ذاك إلا لكونها من قبيل شاذ الحوادث التي لا تقع إلا أزمنة متفارقة متباعدة ، في حين تمثل واقعاً يوميا لمعظم بلاد العالم. الى جانب ذلك ، فإن بلاد العنصريات لا توجد فيها لوحات سكانية تسودها مختلف الالوان ، وان كنت في ريب من ذلك فانظر أقرب مجموعة اليك تجدها مؤتلفة من قبائل عدة من والوان مختلفه.

فهم خاطئ:

أما الذي نراه في السودان ، فهو من قبيل الاستعلاء القبلي والثقافي ، وهو غير التمييز العنصري ، رغم أن كثيراً من المثقفين بينهما يخلط. فالتمييز العرقي يقوم على ركنين "مادي ومعنوي"يمارس كل آن . وهو ما ذكرناه في الفصل التام والقطيعة الكاملة بين أفراد المجتمع الواحد لصالح مجتمع القبيلة. بينما الاستعلاء القبلي أو الثقافي يقوم على الركن المعنوي فقط ، حيث لا تنفصل المجتمعات وتتقاطع كليا لصالح القبيلة ، وانما يتداخل الأفراد في حرية كاملة ، ولكن ، "شئ

مـا“ يبقـى في النفـوس ، ”شـئ مـا“ يسـتمد جـذوره مـن أسـاطير الأولـين ، يتحـدث عـن أصـل القبيلـة الـذي ينحـدر مـن بنـي هاشـم أو عبـد مناف ، أو مـضر ، أو نـزار ، أو بعانخـي وغيرهـم. ويمكـن أن يطلـق عـلى ذلـك ”الإرث التاريخـي الاجتماعـي“. وهـو المحـور الأول للأزمـة السـودانية. أمـا المحـور الثانـي ، فهـو ”الإرث التاريخـي السـياسي“. وقـد لعـب هـذان المحـوران ـ الإرث التاريخـي الاجتماعـي ، والارث التاريخـي السـياسي ـ دورا بـارزا أدى إلى سـيادة واقـع يدعـم متعصبـي الشـمال واللاشـمال عـلى السـواء ، ومـن ثـم يقـود إلى نتيجـة محتومـة وهـي تفتيـت الدولـة السـودانية. ولذلـك سـننحى هـذه المـرة في تنـاول الأزمـة السـودانية منحـى جديـداً لا يقـوم عـلى الالتفـاف حـول جوهرهـا ، وانمـا يخترقهـا مبـاشرة ويصيـب كبدهـا . فقـد مـضى زمـن تغطيـة الدمامـل والقـروح اسـتحياء منهـا ، أو كمـا قالـت الأسـتاذة الفضـلى آمـال عبـاس. وحتـى تتسـنى لنـا فرصـة علاجهـا سـنقوم بكشـف غطائهـا وتعريتهـا لوجـه الحقيقـة ، رغـم أنهـا قـد تبـدو للكثيريـن فجـة ممجوجـة ، ولكـن لا منـاص. بعـد فشـل كافـة محـاولات التسـتر والتغطيـة!

المحور الاول ، جدلية التشوهات:

فالمحـور الأول: وهـو الاسـتعلاء القبـلي الثقـافي كان قـد نتـج عـن طويـل انفصـال وقصـير اتصـال بـين أبنـاء الوطـن الواحـد. ويعـزى ذلـك إلى سـيادة مجتمـع القبيلـة مئـات السـنين ، منـذ غابـر الأزمـان مـروراً بوصـول العـرب السـودان وحتـى قيـام الدولـة المهديـة ، وبدايـة النصـف الأخـير مـن القـرن المـاضي ، وممـا يدعـم ذلـك أنـه حتـى الجنسـية السـودانية ، والى وقـت قصـير كانـت تكتـب عليهـا قبيلـة حاملهـا. وممـا هـو معـروف عـن الحيـاة القبليـة ميلهـا إلى الإنفصـال بعيـدا ، والاسـتقلال بحياتهـا الاقتصاديـة والاجتماعيـة والسياسـية. وكان بعـد ذلك لطويـل الإنفصـال هـذا أثـر هـام تمثـل في جملـة الموروثـات الثقافيـة التـي تمجـد القبيلـة ، ويعكـس ذلـك فخرهـا واعتزازهـا باصلهـا هـي

فقط ، والحط والتحقير ممن لا ينتمون إليها ، وهو ما ينطبق على مجموع قبائل السودان بلا استثناء.

وقد تبلور أول اتصال سودانوي بقيام الثورة المهدية ، التي جمعت لأول مرة ، في المركز ، الشرق والغرب والشمال والجنوب ، فكان طبيعياً أن تطفح ، بعد طويل انفصال وقصير اتصال ، بعض الاحتكاكات التي تفاقمت بعد موت المهدي "عليه السلام". ومهما يكن ، فإن ذلك الاتصال كان الأعظم درجة لما سبقه من طويل انفصال وانطواء ، والأقل مقارنة بيومنا هذا.

وبقيام دولة الحكم الثنائي ، وتبلور العاصمة كمركز ، تزايد حجم الاتصال نتيجة لوحدة الادارة الوطنية ، وما أن قامت ثورة ١٩٢٤م. حتى التف كافة اهل السودان حولها ، غاضين الطرف عن قبائل قادتها. أما يوم إخراج المستعمر فقد كان التحاما سودانويا كاملا. ولكن ، ما أن أخرج حتى عادت ذات المفاهيم الاستعلائية الموروثة ، وهذا ما ينطبق على كافة قبائل السودان بلا استثناء.

وأهل السودان في الاستعلاء كأسنان المشط. خاصة عندما يرتبط الأمر بالقبلية ، الأمر الذي جعل اساطير جداتنا تحلق فوق مستقبلنا ، فهن حتى وإن قعقعت ناخر عظامهن الايام ، وانطبقت عليهن الارماس ، إلا أن اساطيرهن عن قبيلة فلان وعلان ما زالت لها الحظوة. فهن في الشمال قد قلن (اذا لاقيت الشايقي والدابي ، اقتل الشايقي وخلي الدابي). لكن لماذا ؟! الله وحده أعلم !, وكذا الجعليين ، في نظر الآخرين ، (مش ولابد). وبقية قبائل الشمال ، فأيهن تزعم لنفسها السيادة ، وايهن تمجد نفسها وتحط من قدر الأخرى. وربما فسر لنا هذا قتال بعض قبائل ما حول شندي العامين الماضيين ، في عراك دموي!

أما في غرب السودان ، فالفور في نظر العرب ، وبعض القبائل الأخرى

، لهم ذيول ـ ذنب ـ وهم يطيرون لأنهم غربان ، من غراب . انظر عمق الجهالة والغثاء واللامنطق. والعرب في نظر الفور وغيرهم من القبائل غير العربية ، "نصف بشر ". ومما يضرب مثلا لذلك ، أن أحد أبناء بعض القبائل غير العربية ، بعد أن أكمل تعليمه ، وعاد إلى قريته صار يزدري أباه. فاجتمع حكماء القرية "لرأب الصدع" بينهما ، فقال حكيمهم ، حاضا إياه على البر بوالده :(أبوك ده ياهو أبوك. .كان ابلاي ـ قرد قبيح ـ ياهو أبوك. كان كلب ياهو أبوك. كان عربي هوان ذاتو ذاتو ياهو أبوك)!

والنوبه في اعتقاد هؤلاء وأولئك (نوبة بس). أما إخوة الجنوب فهم "(الجانقي) الذين لا يستحقون أن ترفع على ديارهم علم "كناية عن الاستقلال". وأما رأي الإخوة الجنوبيين في بعضهم بعضا ، فحدث ولا حرج. فدينكا بور هم في اعتقادهم شعب الله المختار ، وما عداهم لا قيمة لهم. بينما الشلك هم أهل حضارة نيكانج Niykang وغيث Gyeth ، وغيرهم لا قيمة له. وكذا ، حال قبائل الشرق البيجاوية ، والبني عامر ، والبشاريين ، والهدندوة وغيرهم.

مستقبل التشوهات:

ومما تقدم ، وقفنا على حقيقة الاستعلاء القبلي المتساوي . وهو ما يمكن أن يطلق عليه "جدلية التشوهات" ، وهي وإن كانت واقعا يفرض نفسه ، إلا أن احتمال علاجه أكبر من أي احتمال آخر. بل أنه أمر يدعو إلى التفاؤل ، أن صبر أهل السودان ، وذلك لما ذكرنا من أنها إرث تاريخي متراكم ، مما يجعل الأمر قلة تبصر مجرد المطالبة بإلغاء هذا الموروث القبلي عن طريق استصدار قرار أو تشريع. وهو أمر ينافي طبيعة الأشياء. فكما أن الموروثات والمعتقدات نتاج طبيعي لتراكم قيمي سلوكي متصل لمئات السنين ، فإن زوال الخاطئ منها على وجه التحديد ، يحتاج وعيا متقدما

كبيرا ، وجهدا متصلا ، وصبرا طويلا من جميع الشعب السوداني.

فعلينا جميعا من ناحية العمل على محوها من طول البلاد وعرضها ، باعتراف اينا للآخر "بالادمية " والصبر والمصابرة والاصطبار على النتائج من ناحية أخرى. فمثلها لا يثمر إلا على المدى الطويل. ولا يجانبنا الصواب إن تفاءلنا بمقدم فجر الهوية السودانية. بعد اتصال عميق ، نسبي ، في النصف الأخير من القرن الماضي ، وذلك من افضال دولة المركز التي أوجدت فرص اتصال متزايدة ، سواء عن طريق المؤسسة العسكرية ، والتي أوجدت أحياء عربيه في قلب جوبا ، ولغير الشماليين في عطبرة وغيرها من مدن الشمال ، أو المؤسسة المدنية ، والتي أدت إلى انتشار السودانيين في أنحاء البلاد.

يضاف إلى ذلك ، ظهور عوامل جديده في شأن الامتزاج العرقي "الزواج" فلئن كان في السابق يقوم على الدم ، وهو عامل تقليدي . فقد تغير ذلك كثيرا بظهور عوامل جديده تمثلت في المال والمركز الاجتماعي ، وهذا مشاع لكافة قبائل السودان. وما يؤكد ذلك أنه كان في السابق ما أن ينظر إلى الإنسان حتى يستطاع تحديد قبيلته ، بينما صار ذلك متعسرا بعض الشئ ، بفعل بوادر الانصهار العرقي . ومما يجدر ذكره ، في هذا الخصوص ، تجربة بعض أهالي ام دوم حيث نجد فيها أسر ذات أصل "جنوشمالي" يكون أحد الأبوين جنوبيا والآخر شماليا . وكذا ، اعتماد قبائل الجنوب اللغة العربية لغة تخاطب رسمية فيما عرف بعربي جوبا . فحبذا لو أولت الحكومات هذه البوادر عناية فائقة. لأن بيدها أكثر من غيرها مفاتيح الهوية السودانوية .

بئست الحرب :

ولما وضح لنا أن السودان يعاني وضعا اجتماعيا مهلهلا دعامته الاستعلاء القبلي الثقافي والذي استوت فيه قبائل السودان ، فإن إثارة

أي نعـرة قبليـة سـتقود حتمـا إلى فكفكـة المجتمـع السـوداني وتفـضي بـه إلى الهاويـة. ولذلـك ، مهمـا يكـن ، علينـا رعايـة نبتـة الهويـة السـودانوية التـي بـدأت مؤخـرا جـدا في البـزوغ، فهـي السـبيل الأوحـد للحفـاظ عـلى الوطن..

ومـا يدعونـا إلى ذلـك تجـارب الآخريـن ، ومجمـوع محصلاتهـم ، فمـا يجـدر ذكـره أنـه لـم تتقـدم قـط بـلاد عالجـت قضاياهـا بالتهييـج العرقـي ومـا ينتـج عنـه مـن اصطـدام مسـلح . وانمـا العكـس ، بـدلاً عـن التقـدم خطـى تتقهقـر للخلـف عـشرات السـنين ، إنسـانا وعمرانـا . وتجـارب اليـوم تغنينـا عنـاء البحـث ، فأنظـر ايـن هـي اليـوم روانـدا ، بورنـدي وليبريـا ؟ وأيـن كانـت سـتكون اليمـن ،والتـي راح ضحيـة حربهـا الأهليـة ثلاثـة عشر ألفـاً ؟ وهـل كانـت الولايـات المتحـدة الأمريكية بالغـة شـأوها الراهـن لـولا إنهـاء حربهـا الأهليـة بـين الجنـوب والشـمال وتوحيدهـا عـلى يـد جـورج واشـنطن ؟! وعليـه ، فـإن أي نـزاع مسـلح سـيلحق الهزيمـة بالـكل ، ليخـرج منـه منتـصره منهزمـا ، ومنهزمـه منهزمـا !!

فعلينـا أن نعـي حجـم اسـتهداف كثـير مـن بـلاد العالـم لنـا ، وهـذه الحقيقـة ، رغـم مزايـدة الجبهـة الإسـلامية عليهـا ، عـلى نحـو اسـتعدائي اودى بنـا إلى حيـث نحـن الآن ، إلا أن ذلـك لا ينفـي كونهـا حقيقـة ، ويمكـن لـكل مـن تبـصر ادراك ذلـك: فبـلاد ٤٩٪ مـن أراضيهـا زراعيـة ومرعـى وغابـات ، وبطـول سـاحل ٨٥٣ كيلـو مـتر ، ويشـقها نيـلان ، لابـد أن يطمـع فيهـا الاقربـون والابعـدون . فعلينـا أن نحـذر مـن إشـعال أدنـى شرر وإلا نفـخ فيـه هـؤلاء واضرمـوه .

وعليـه ، فإنـه يكفـي نشـوب أي صـدام مسـلح سـاعة واحـدة في الخرطوم أو مدنـي ، لا سـمح اللـه ، لإنـزال قـوات دوليـة ، ونحـن نعـرف حقيقـة نواياهـا ، خاصـة بإعـادة تفاصيـل الحـرب اللبنانيـة ، والتـي حينمـا

اندلعت ، لم يتصور أكثر الناس استمرارها ثلاثة أيام ، لتغذيها هذه القوات الدولية وقوات الجيران ، فلا تخمد نهائيا إلا بعد سبعة عشر عاماً.

وفي الجانب المقابل كان تعامل الزعيم مانديلا مع واقعه المعقد مدهشا . فرغم وصول السلطة بعد سبعة وعشرين عاما من السجن إلا أنه لم يلجأ إلى التشفي ، وكان بمقدوره ذلك ، فعشيرته تمثل ٨,٧٣ ٪ بينما أعداؤه ٣,١٤٪ من مجموع السكان. وإن كان قد فعل بهم أي شئ لقاء مراراته الشخصية فحسب دون مرارات أهله ، لعذره الناس ، لكنه رفض إلا أن يتسامى ، فعفى عن جلاده دي كليرك وغيره ، لأجل خاطر وحدة الدراكنزبيرج . فهل أخطأ مانديلا أم أصاب؟! قطعا أصاب ، لأنه إن كان قد فعل غير ذلك لتشفى لنفسه وأهله مؤقتاً ، وأهلك بلاده وقومه أبدا ، واورث قادم الأجيال دما ونزفا ، ولذلك داس على كبرياء الجرح ، لأجل خاطر عيون الكيب تاون ، وقادم الأجيال ليرسي في ذات الوقت مبادئ عدل تعيد للمسحوقين كامل حقهم.

المحور الثاني :

أما المحور الثاني أو القطب الآخر للأزمة فهو الإرث التاريخي السياسي. وهذه التركة رغم ايلولتها مؤخرا ، مقارنة بالإرث التاريخي الاجتماعي فعمرها مائة عام فقط ، منذ وصول الغزو الانجليزي المصري ، إلا أن اتكاءها واستنادها على الإرث الاجتماعي دعم مركزها كثيرا , فرغم أن جوهر أزمة السودان هو توزيع السلطة والثروة ، وهو في الواقع شأن سياسي مما يحدث في غالب بلاد العالم ، إلا أن توافر الإرث التاريخي الاجتماعي أدى دوماً إلى إبراز فهم مغاير

لتطفـو عـلى السـطح مـا تعـرف الآن بالأزمـة "الشـمالية اللاشـمالية" صابغـا إياهـا بالصبغـة العنصريـة أو شـبه العنصريـة.

وقـد يعـزى ذلـك إلى اللاتـوازن التنمـوي الـذي خلفـه المسـتعمر ، فمـا هـو مؤكـد أنـه سـعى إلى تطويـر المركـز ، ربمـا باعتبـاره مقـرا لحكومتـه ، وفي ذات الوقـت لـم يسـتطع تطويـر الريـف ، بمـا فيـه الشـمالي . ممـا أنتـج واقعـاً تنمويـا متباينـا ، ومـن ثـم أخطـأت الحكومـات المتعاقبـة عندمـا سـارت عـلى النهـج ذاتـه ، فوضعـت سياسـاتها دون الالتفـات لهـذا اللاتـوازن التنمـوي ليطـل علينـا واقـع مؤلـم ، يمكـن التمثيـل لـه بالآتـي:

أولا ، كل النسـاء ، تقريبـا ، اللائـي يقطعـن نومهـن ، ويبكـرن بافـتراش الأسـواق مـن باعـة للشـاي ، الدكـوة ، الكـسرة ، ومـا ماثلهـا مـن هـوان وجهـد مضنـي وعائـد لا يسـوى مـن غـرب ، شرق ، جنـوب السـودان..

ثانيـا ، كل المشردين ، عـلى وجـه التقريـب ، و الفاقـد التربـوي مـن تلـك الانحـاء.

ثالثـا ، وكـذا الأعمـال ذات المجهـود الخـرافي ، كاعمـال الخرسـانة والبنـاء عمومـا ، والعائـد الـذي لا يسـتحق.

رابعـا ، يسـكن أغلـب هـؤلاء الأطـراف النائيـة مـن العاصمـة ، وفي مناطـق إسـكانية غـير لائقة.

خامسـا ، معظـم الجرائـم التقليديـة ، يرتكبهـا هـؤلاء ، وهـم معظـم نـزلاء السـجون..

سادسـاً ، لا تعكـس وسـائل الإعـلام سـوى نـذرا ضئيـلا جـدا مـن ثقافاتهـم .

علـى أن مـا ينبغـي أن يهـم مـن كل ذلـك مـدى إمكانيـة المعالجـة ، فهـل الواقـع المذكـور ممـا يمكـن علاجـه ام لا؟ وإن كان كذلـك ، فمـا هـي الوسـيلة المثـلى ؟! يمكـن القـول في ثقـة إن اصحـاح هـذا الواقـع أمـر ميسـور للغايـة ، بـل أن احتمـال علاجـه أكـبر مـن أي شيء آخـر. ولكـن مـا ينبغـي أن تكـون عليـه المعالجـة ، حفظـاً لوحـدة الوطـن ، أن يتـم ذلـك عـبر الكيانـات القوميـة ، كالتجمـع الوطنـي الديموقراطـي الـذي سـعى حثيثـاً لإصـلاح ذلـك ، خـلال تمسـكه بالتقسـيم العـادل للسـلطة والثـروة. وكـذا الأحـزاب القوميـة التـي تمسـكت بـذات الطـرح ، أمـا حركـة "جـاد" بقيـادة الاسـتاذ/غازي سـليمان ، فقـد شرعـت بالفعـل في الدفـاع عـن المسـحوقين ، هنـا وهنـاك ، والدعـوة للسـودان الجديـد .

جدلية التشوهات ومستقبل وحدة السودان*

الحلقة الثانية

* مقال للمؤلف نشر في صحيفة الرأي الآخر ، العدد ١٢٠٠/الخميس ٦/صفر/١٤٢١/الموافق ١١/٥/٢٠٠٠م

الغزو نتيجة حتمية:

لم تتعرض وحده البلاد خلال تاريخها في القريب _ المائة والخمسين عاما الماضية _ إلى خطر يهددها إلا مرتين اثنتين: أولاهما إبان حكم الخليفة عبد الله التعايشي ، حين اندلعت في مواجهته ثماني حركات مسلحة في توقيت واحد تقريبا. كان مبتدؤها مؤامرة الاشراف للإطاحة به. والتي اسندها الدكتور حسن احمد ابراهيم ، في مؤلفه تاريخ السودان , ص٦٨ ، إلى الاستعلاء حين قال (الجفوة بين أهل النيل الذين عرفوا باسم أولاد البلد وأهل الغرب جفوة قديمه ، لعل سببها اعتقاد اهل النيل أنهم أعلى منزله ومدنية وحضارة من أهل الغرب).

ومن ثم ، توالت الحركات القبلية. فقد ثار شيخ الرزيقات ، مادبو علي ، مجاهرا بعدائه للخليفة التعايشي ، ابن القبيلة الصغيرة ، في اعتقاده ، الأمر الذي يقضي بخضوعه وقبيلته إليها. وثار الكبابيش لمصلحة ما. وتمرد الأمير يوسف ابراهيم ، لشئ ما ، لعله استعادة ماضي سلطنة الفور. وكذا ابو جميزة والشيخ يوسف المرضى. وقبائل البجة . وهكذا ، دواليك. وعلى ضوء ذلك ، كان سقوط الدولة المهدية السودانية الأولى ، نهاية القرن التاسع عشر ، خلاصه منطقية ، أو نتيجة حتمية ، افضت إليها جملة أفعال وأقوال أبناء السودان

اجمعـــين ، حـــين تعاركـــوا وتطاحنـــوا ، واســـتعلوا عـــلى بعضهـــم بعضـــا ، ليجدهـــم ، بعـــد ذلـــك ، اللـــورد كتشـــنر لقمـــة ســـائغة ، فتحصدهـــم نيرانـــه ، ليلقـــي ثمانيـــة عـــشر ألفـــاً مـــن الســـودانيين النجبـــاء حتفهم(الأرجـــح هـــو إحـــدى عـــشر ألفـــا) في ســـويعات قليلـــة . فهـــل فـــرق كتشـــنر بـــين أولاد البحـــر والغـــرب ؟! وهـــل مايـــزت نيرانـــه بـــين شـــيخ قبيلـــة الرزيقـــات متراميـــة الأطـــراف والتعايشـــة ، الحوطيـــة ، الســـلامات ، الفـــور ، المســـاليت ، الدينـــكا ، وغيرهـــم ؟

قطعـــا لا. لأن الحـــرب عندمـــا تنشـــب لا تغـــرق زيـــدا مـــن عمـــرو .. كلهـــم لهـــا وقـــود وطعـــام مشـــتهى ،كلهـــم دم يســـفك ، جيـــف تتعفـــن ووطـــن يتمـــزق.

مهمـــا يكـــن ، اثبـــت التعايـــشي جدارتـــه ، قبـــل مائـــة عـــام ، في الحفـــاظ عـــلى ســـودان موحـــد ثلاثـــة عـــشر عامـــاً في ظـــل وضـــع دولي واقليمـــي مـــأزوم .فـــق فقـــد تزامـــن قيـــام الدولـــة المهديـــة مـــع اخطـــر وضـــع دولي ، عندمـــا كانـــت فرائـــص الـــدول الكـــبرى ترتعـــد في خـــوف عظيـــم ، خـــوف ان تفتـــك بهـــا أخـــرى. ممـــا جعلهـــا تســـعى لعقـــد اتفاقـــات واحـــلاف سريـــة وعلنيـــة. والحـــق يقـــال ، أن اتفاقيـــة ســـان اســـتيفانو كادت أن تطيـــح بالســـلام العالمـــي ، حـــين تضاربـــت المصالـــح الأوروبيـــة ، لـــولا حكمـــة المستشـــار الألمانـــي بســـمارك ودهائـــه ، الـــذي تفتـــق عـــن فكـــرة الدعـــوة إلى مؤتمـــر برلـــين ١٨٧٨م. بصفتـــه "سمســـارا شريفـــا" الشـــئ الـــذي حـــد كثـــيرا مـــن تـــأزم الموقـــف . ونتاجـــا لذلـــك ، تعاظـــم خـــوف الـــدول ، فهرولـــت إلى عقـــد احـــلاف دفاعيـــة ثنائيـــة وثلاثيـــة. واتفاقـــات لا تحـــصى ، ومنهـــا عصبـــة الأباطـــرة عـــام ١٨٨١م. بـــين روســـيا ، النمســـا ، وألمانيـــا. واتفاقيـــة النمســـا المجـــر عـــام ١٨٨٣م. وكـــذا اتفاقيـــة الحلـــف الثنائـــي بـــين كل فرنســـا وروســـيا عـــام ١٨٩٣م. إلى جانـــب ذلـــك ، فـــإن غـــزو اليابـــان لدولـــة كـــبرى كالصـــين ، واحتلالهـــا لهـــا عـــام ١٨٩٥م. وانـــدلاع الحـــرب العالميـــة الأولى بعدهـــا بزمـــان وجيـــز . كل ذلـــك يؤكـــد لنـــا

بلا شك ، مدى مأزومية الموقف آنذاك. وبالتالي ، مقدرة الخليفة التعايشي الفائقة في ظل وضع كذلك في الحفاظ على هكذا بلاد عقد ونيف من الزمان.

ما قبل الكارثة:

واليوم ، أعاد التاريخ نفسه حين تخندق أبناء السودان ، بعد مائة عام ، في خنادق متواجهة في جاهزية للاقتتال . كأنهم ما افادوا من درس الماضي شيئاً! والحق أنه إذا نظرنا إلى واقع أجدادنا ، قبل مائة عام ، لوجدنا لهم من العذر الكثير، قياسا إلى واقعهم ذاك ، حيث لم تكد افاقهم تتجاوز واقعهم القبلي البسيط. ولكن ، ما هو العذر لاحفاد اليوم ، بعد مائة عام من المدنية والتطور!

إن التاريخ يعيد نفسه ، حين هب بنوا السودان في همة يريدون اقتسامه دويلات متفرقة ، متقوقعة على ذاتها: فأولئك الجنوبيون يطالبون بدولة الاماتونج العظمى ، والتي ربما شملت بعض أجزاء الدمازين...وهؤلاء يطالبون بدولة البقارة ، النوبة ، الفور ،المساليت ، ونبته ، وكوش ، وكلها يطلق عليها. "عظمى "!!

ومما يلاحظ ، أن الشعب السوداني يمتاز ، دون كثير من الشعوب ، بحب السلام والحياة الوادعة. وهو لا يسلك سبل النزاعات إلا كرها. وربما وضح لنا هذا بالمناداة بالدويلات العظمى المزعومة. فهم ، إن تدبرنا لم يفعلوا ذلك شقاء وبطرا ، وانما ليأسهم من دولة المركز ، فطفقوا يبحثون عن مخارج أخرى ، وإن كانت في حقيقتها مهالك ، ودأبوا يحلمون بأي بديل بغض النظر عن مدى ايفائه واضطلاعه بحل اشكالاتهم. وعليه ، يمكن القول في جزم ، إن هذه الدويلات المبتغاة بالإمكان وأدها لصالح دولة السودان الواحد ،باعادة التوازن التنموي لكافة أرجاء السودان ، وهذا دور حكومي أول.

واذا كان الـدور الحكومـي رئيسـا ، فـإن ممـا لا يجـب إغفالـه الجهـد الشـعبي ، مـن كافـة أبنـاء الوطـن ، يسـتوي في ذلـك الشـمال واللاشـمال. وقـد بـات تضافرنـا أمـرا محتومـا ، لاجـل سـودان موحـد ، وذلـك لقطـع الطريـق عـلى متعصبـي الشـمال واللاشـمال. كلنـا ، رأى فائـت الايـام كيـف عـلا قـدر التعصـب بـين الفريقـين ، لدرجـة أن كتـب بعضهـم مقـالا مطـولا ، بعـد أقـل مـن اليـوم الواحـد ، حـول حـدث "الكتـاب الأسـود"! وقـد كتبـوا في عجالـة ولهوجـة ، فطاشـت أقوالهـم وأفعالهـم. مـع أن الأمـر مختلـف جـدا ، إذ لـم يعـد سـجالا بـين حكومـة ومعارضـة ، أو حـزب وآخـر تطيـش جرائـه الأقـوال والافعـال ، دون منتـوج مبـاشر ورد فعـل اكيـد .فـاذ فـإذا كان مـن بـين ردود الأفعـال حـال تراشـق المعارضـة والسـلطة سـقوط الحكومـة غالبـا. فإنـه بـلا شـك ، يـؤدي تصعيـد المواجهـة بـين أبنـاء الوطـن الواحـد ، في ظـل وضـع كهـذا ، إلى سـقوط الوطـن نفسـه.. سـقوط الوطـن كمـا سـقط قبـل مائـة عـام. ولكـن التسـاؤل الـذي ظـل بـلا إجابـة ، هـو هـل سيسـقط الوطـن ، لاقـدر اللـه ، هـذه المـرة موحـداً ، كعهـد التعايـشي ، ام مجـزأ ، منتفـا ، مقطـع الأوصـال ؟!

سـيظل السـؤال بـلا إجابـة ، خاصـة إذا وضعنـا في الاعتبـار أن جميـع الحـركات المسـلحة التـي هبـت في وجـه التعايـشي ، كانـت قـد خلـت وخلصـت مـن شـبهة الايـادي الأجنبيـة.، عـدا الكبابيـش وقبائـل البجـة ، والذيـن تقـول كتـب التاريـخ بمسـاعدة مـصر لهمـا للقضـاء عـلى حكـم الخليفـة في السـودان.(ذات المرجـع ص٧١/٧٢).

سـيظل السـؤال بـلا إجابـة ، أذا علمنـا اطمـاع جيراننـا ، بـلا اسـتثناء ، في المليـون ميـل مربـع. فمنهـم مـن سـيدعم الشـمال ومنهـم مـن سـيدعم اللاشـمال ، بكامـل تفرعاتـه ، وهنـاك مـن لـه مصلحـة في دارفـور وكردفـان ، ومنهـم مـن لـه ذلـك في غيرهمـا. هكـذا ، فهـل سيسـقط الوطـن موحـداً ؟!

وعـلى هـدي ذلـك ، مـا كان لمتعصبـي الشـمال واللاشـمال ، بخطبهـم

الرنانة وكتاباتهم ، تحريك كامن الحزازات والمواجد . دون الوقوف على حقيقة المنعطف التاريخي الخطير الذي يمر به السودان. ولذلك يمكن القول في جزم ، بنجاح هؤلاء في نقل البلاد من حال (عرضة وقوع الحرب) إلى الحرب ذاتها.

الحرب على الأبواب:

جاء في التقرير السنوي للجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الرابعة والخمسين (إن التحول من كون البلد عرضة لوقوع الحرب ، إلى الحرب ذاتها ، يمكن أن تنطلق شرارته بفعل تعبئة مقصودة لمشاعر المعاناة ، أو باستغلال اساطير عرقية أو دينية أو قومية ، أو بنشر ايدلوجيا تنزع عن الآخر صفة الإنسانية الواسعة النطاق ، لما يوصف أحياناً بالسياسة القائمة على الهوية مقترنا بحقيقة أن أقل من ٢٠٪ "عشرين بالمائة" من جميع الدول هي فقط تستمتع بالتجانس العرقي. وذلك يعني أن العناصر الدماغوجية _ كهؤلاء المتعصبين _ تجد بلا صعوبة اهدافا تسوقها المقادير ، وتعبئ التأييد لقضايا شوفينية ، وفي ظاهرة التطهير العرقي التي انبثقت في عقد التسعينيات من هذا القرن بينة ساطعه على فداحة المغارم البشرية التي يمكن أن يسببها هذا الاستغلال الخبيث للسياسة القائمة على الهوية). صحيفة البيان ، العدد ٩٠ ، بتاريخ ١٢/ ١٠/ ١٩٩٩م.

فمن واقع التقرير أعلاه ، علينا ، أبناء السودان ، أن نعي أن بلادنا ليست الوحيدة التي تعاني حالة "اللاتجانس" العرقي . وقد أكد الأمين العام ، خلال تقريره حقيقة أن البلاد التي تتمتع بالتجانس العرقي تمثل أقل من ٢٠٪ "عشرين بالمائة" من مجموع بلاد العالم ، الأمر الذي يؤكد في المقابل حقيقة كون أكثر من ٨٠٪ "ثمانين بالمائة" منها تعاني حالة "اللاتجانس" ، أو وضع الهشاشة الوطنية.

وعليه ، فإن هشاشة المجتمع السوداني ، والتي يمثلها لنا تقهقر المجتمع _رغم خطاه الحثيثة نحو السودانوية _ إلى بؤرة القبلية

، ومـا ينتـج عنهـا مـن اسـتعلاء اجتماعـي ، إن لـم يتـدارك في سرعـة وعقلانيـة ، مـن كافـة أبنـاء الوطـن ، بإخـلاص شـديد ، سـيقود حتمـا إلى الهاويـة، ومـن ثـم يتوجـب عليهـم جميعـا السـير نحـو المعالجـة ، ولأجـل هـذه المعالجـة ، يسـتلزم الأمـر وضـع اسـتراتيجيات وقائيـة تمنـع نشـوب أي صراع مـن هـذا القبيـل. وفي ذلـك يقـول كـوفي عنـان (يتطلـب وضـع اسـتراتيجيات وقائيـة ناجحـة أن نبـدأ بفهـم واضـح للأسـباب الكامنـة. وفيمـا يتعلـق بالكـوارث الطبيعيـة فـإن الاجابـات مبـاشرة نسـبيا. أمـا في الحـرب فهـي مسـألة أكثـر تعقيـداً ، فاسـباب الحـرب اصعـب أساسـاً في تفسـيرها مـن أسـباب الكـوارث الطبيعيـة. فالسـلوك الاجتماعـي لا يخضـع للقوانـين الفيزيائيـه عـلى نحـو مـا تخضـع لهـا الأعاصـير الاسـتوائية ، أو الـزلازل ، فالبـشر هـم الذيـن يصنعـون تاريخهـم ، وكثـيرا مـا يفعلـون ذلـك بالعنـف ، وأحيانـاً بصـورة تسـتعصي عـلى التفسـير).

ويسترسـل قائـلا (بيـد أن باسـتطاعتنا تحديـد بعـض الظـروف التـي تزيـد مـن احتمـالات وقـوع الحـرب . ففـي السـنوات الأخـيرة بـدأ الأمـر وكأن البلـدان الفقـيرة أكثـر عرضـة للوقـوع في دوامـة الصراعـات المسـلحة مـن البلـدان الغنيـة. لكـن الفقـر بحـد ذاتـه لا يبـدو العامـل الحاسـم في هـذا الصـدد. فكثـير مـن البلـدان الفقـيرة مـا زالـت تعيـش معظـم الوقـت في سـلام).

ومـن ثـم ، يؤكـد الأمـين العـام (وثمـة دراسـة أنجزتهـا مؤخـرا جامعـة الأمـم المتحـدة ، توضـح أن البلـدان التـي اجتاحتهـا غائلـة الحـرب تعانـي في العـادة ، أيضـا ، مـن عـدم المسـاواة بـين الفئـات الاجتماعيـة في البلـد، ويبـدو أن هـذا الأمـر _عـدم المسـاواة _ لا الفقـر ، هـو العامـل الحاسـم. وعـدم المسـاواة يمكـن أن يقـوم عـلى أسـاس مـن النزعـة العرقيـة ، أو الديانـة ، أو الهويـة القوميـة ، أو الطبقـة الاقتصاديـة ، ولكنـه يجنـح إلى أن ينعكـس في صـورة عـدم تكافـؤ مـن حيـث سـبل الوصـول إلى السـلطة السياسـية ، ممـا يسـد المسـالك المفضيـة إلى التغيـير السـلمي في غالـب الأحيـان.

ونواصل

جدلية التشوهات ومستقبل وحدة السودان*

الحلقة الثالثة

* مقال للمؤلف ، نشر في صحيفة الرأي الآخر. العدد ١٢٠٦.الخميس ١٣/صفر/١٤٢١.الموافق ١٨/٥/٢٠٠٠م.

حكمة يابانية:

وثمة دراسة أنجزتها ، مؤخرا ، جامعة الأمم المتحدة توضح أن الدول التي اجتاحتها غائلة من الحرب ، تعاني في العادة من عدم المساواة بين الفئات الاجتماعية في البلد. ويبدو أن هذا الأمر ، عدم المساواة ، لا الفقر هو العامل الحاسم. وعدم المساواة يمكن أن يقوم على أساس من النزعة من العرقية ، أو الديانة ، أو الهوية القومية ، أو الطبيعة الاقتصادية. ولكنه يجنح إلى أن ينعكس في صورة عدم تكافؤ من حيث سبل الوصول إلى السلطة السياسية ، مما يسد المسالك المفضية إلى التغيير السلمي في غالب الأحيان.

فما تقدم يمثل جزءا من خطاب الأمين العام كوفي عنان للدورة الرابعة والخمسين للجمعية العامة للأمم المتحدة ، وهو عبارة عن بحث رصين اخرجته جامعة الأمم المتحدة ، بعد عميق درس وتقصي للكوارث التي أصابت العالم عشرات السنين، مع تركيز خاص على عقد التسعينيات من القرن الماضي ، باعتبار أنه من أكثر الحقب التي شهدت حروبا أهلية وكوارث في شتى أرجاء العالم تقريباً. ومع التركيز في الوقت نفسه على أن أفريقيا.

وتاسيسا على ذلك ، يمكن القول في ثقة مطلقة ، إن عدم المساواة هو العامل الأساسي لكافة أنماط الكوارث الإنسانية _الحرب على وجه الخصوص _ التي اجتاحت معظم بلدان العالم. وباعمال

نص المثل الذي يؤكد أن السعيد هو من يرى في غيره لا في نفسه ، نكون نحن الشعب السوداني ذاك السعيد الذي رأى في غيره . إذ ما تزال الفرصة أمامنا لعلاج جدلية التشوهات ، وما زال وضعنا في طور العلاج ، وهو يقبله إن عملنا الشمال واللاشمال في حكمة. وقد تفادت الحكومة اليابانية بحكمة معقولة شرور بركان كاينو الذي انفجر الايام الفائتة ، بعد عشرين عاما من الخمود ، وذلك بتشخيص حاله مبكراً ، ومن ثم الشروع في معالجة الأمر ، باخلاء المنطقة من سكانها ، حتى إذا ما ثار البركان ملقيا حممه التي امتدت آلاف الكيلومترات المربعة ، ما وجد أحدا يقتله!

فهل يمتلك السودانيون حكمة اليابانيين فينقذوا البلاد من خطر محدق ، وحرب أهلية قادمة ؟! إن بركان التباين السياسي الاقتصادي الراهن إن لم يحسم سيكون انفجاره مدويا ، ومما سيزيده اشتعالا ، اتصال الماضي بالحاضر في امتداد واحد. فانعدام المساواة ، كما ذكرنا ، كانت في الأصل إرثا استعماريا ماضويا ، راح ضحيته جيل الآباء ، ومن ثم صار ممارسة وطنيه ، أفلحت فيها حكومات الفرد ، الدكتاتوريات ، كثيرا. فكان نتاج ذلك خلال الخمسين عاما الأخيرة ، تبلور جدلية التشوهات ، باتخاذها مظهر اللامساواة الفاقع ،في شتى مناحي الحياة ، ليفرز ذلك جيلين مثلا امتدادا لبعضهما: جيل الآباء المسحوقين ، وجيل الأبناء والأحفاد الذين سيسحقون فيما بعد!!

•الاباء المسحوقون:

أما جيل الآباء المسحوقين ، فقد عانى مرارات ظل يجترها طويلا ، ومازال ، بل ما فتئ يلقنها لأبنائه وأحفاده ، كلما سنحت المناسبة ، وجاءت سيرة (الجلابي) وهم في ذلك معذورون لما أصابهم من فادح المغارم جراء ما انتهجته حكومات ما بعد الاستقلال ، من سياسات أقل ما يمكن وصفها به هو أنها خبط عشواء ، ولا تبصر.

وما يلاحظ أن تلك المغارم الفادحة كانت دائما تقع في ظل الحكومات الثورية ، وحكومات الفرد المطلق ، التي لا يهمها سوى البقاء على دست الحكم. مما يحملها على سياسة الترضيات ، في أحسن الأحوال ، وإنصاف القوي على الضعيف في اسوئها! ولما كان مغرم الآباء لا يحصى والظلم الذي تواقع عليهم كثير سنكتفي بانموذج واحد يمركز لنا كافة أشكال الظلمات التي عاشوها.وليكن ذلك الأنموذج خطة توزيع الأراضي الإسكانية في المركز. والمركز نقصد به العاصمة وضواحيها.

فقد انتهجت حكومات ما بعد الاستقلال _, الفرد على وجه الخصوص _ بدافع ثوروي غير مدروس كالعادة سياسة ممعنه في الخطأ في شأن التخطيط العمراني في المركز ، كرست لاحقا لفهم محدد رسخ في أذهان الكثيرين من أبناء اللاشمال ، مؤداه تعنصر حكومات الشمال للشمال . ورغم نفينا القاطع للنزعات العنصرية من الخارطة الاجتماعية السودانية. إلا أن مثل هذه الممارسات.. دون وعي ترجح كفة التطرف.

فأما السياسه فهي تقسيم مناطق السكن إلى درجات ، أولى ، ثانية ، ثالثة ، ورابعة. وهكذا ، ولا ينبغي فهم ذلك كاعتراض على سياسة الاحياء المتدرجة ، فنحن نؤمن بضرورة توزيع الاحياء الإسكانية إلى مستويات متدرجة على النحو المذكور ، دفعا للضرر بحيث يؤلف بين الذين يتقاربون في مستوى معاشهم ، فيسكن الموسرين إلى جانب بعضهم ، فيكون بمقدور ايهم ابتناء ما شاء من طوابق ، مثنى ، وثلاث ، ورباع ، وإن شاء ناطحة للسحاب دون أضرار بجار معدم لا يمتلك سوى غرفة أو اثنين من الجالوص . وكذا ، يجمع الفقراء في مناطق سكن واحدة فلا يتطاول أحدهم بالبنيان على غيره.

أما اعتراضنا فجاء مؤسسا على مساحة الاستحقاق. فرغم أن كافة

دساتير السودان كانت تنص صراحة على تساوي أبناء البلاد في الوطن الواحد وترابه ومياهه ....الخ إلخ . إلا أن مسلك سلطات الأراضي جاء سالبا مطلقا لهذا الحق الطبيعي الدستوري.فمايزت بين الناس ، لسبب ما ، لشئ ما ، لعله المنبت الاقتصادي ، فمنحت من صنفتهم مواطنين من الدرجة الأولى خمسمائة متراً مربعاً ، أو زد عليها قليلا. ومن وضعتهم في الدرجة الثانية أربعمائة متراً مربعاً. والثالثة ثلاثمائة متراً مربعاً. وهناك.... في البعيد....البعي البعيد من صنفتهم مواطني الدرجة الرابعة مائتي متر مربع. ومما زاد الأمر تعقيدا ، جعل الكثيرين يعتقدون في المرجعية العنصرية ، كون غالب سواد سكان هذه الأحياء الموبوءة عديمة الخدمات ، ذات المائتي متر مربع ، مخصصة لذوي الأصول اللاشمالية!

السودان الواسع :

فمنذا يصدق أن بلادا بمساحة تقريبية قدرت مليون ميل مربع ، أو تحديدية قدرت (٨١٠,٥٠٥,٢) اثنين مليون وخمسمائة وخمسة الف ، وثمانمائة وعشرة كيلو متر مربع. وكثافة سكانية تعد من الأدنى على مستوى العالم ، بلغت حتى عام ١٩٩١م. حين إعادة توزيع المزيد من الاحياء السكنيه في دارالسلامات _ المنافي البعيدة سوق ليبيا وما وراء جبل الأولياء والحاج يوسف وغيرها _ عشرة نسمة للكيلو متر المربع ! ولما كان تعداد معظم الأسر السودانية عشرة نسمة فأكثر ، كان نصيب كل أسرة كيلو مترا مربعاً بالتمام و الكمال. أي أن نصيب الأسرة الواحدة من الأراضي السودانية كانت آنذاك _عام ١٩٩١م. _ مليون متر مربع لم يمنح منها هؤلاء الكادحون سوى مائتي متر مربع!

ولأجل اتضاح الرؤية للوقوف حول مدى ازدحام أرض السودان سكانيا ، علينا عقد مقارنة بين كثافة سكاننا بالنسبة الكيلومتر

المربــع الواحــد ، وهــي عــشرة نســمة /كلــم٢ . وكثافــة الســكان في عــدد مــن بلــدان العالــم آنــذاك. فــإذا فعلنــا ، وجدنــا وجدنــا كثافــة الســكان للبــلاد المختلفــة حتــى العــام ١٩٩١م. حــين توزيــع تلــك الأراضي كمــا يــلي: الســنغال ٣٨ نســمة/كلم٢ أي أربعــة أضعــاف كثافــة الســودان تقريبــا (راجــع الموســوعة المعلوماتيــة ، الصــادرة عــن الآفــاق العالميــة المتحــدة ١٩٩١م. ص٢٦٠). إثيوبيــا ٤١/كلــم٢ أي أربعــة امثــال كثافتنــا تقريبــا (نفــس المرجــع. ص ٢٤٩). المملكــة المغربيــة ٥٧ نســمة/كلم٢ ، أي ســتة امثــال كثافتنــا تقريبا.(نفــس المرجــع. ص٢٨٠). يوغندا ٧٢ نســمة/كلــم٢. أي ســبعة امثــال كثافتنــا تقريبا.(نفــس المرجــع. ص ٢٩٠). نيجيريا ١٢٥نســمة/كلم٢. أي أثنــي عــشر ونصــف ضعــف كثافتنــا (نفــس المرجــع. ص٣٩٨). بورندي١٩٦نســمة/كلم٢ أي عشريــن امثــال كثافتنــا (نفــس المرجــع). المانيــا ٢١٧ نســمة/كلم٢ أي اثنــين وعشريــن أمثــال كثافتنــا تقريبــا (نفــس المرجــع. ص ١٧٥). أمــا هونــغ كونــغ فتفــوق كثافــة ســكانها كثافتنــا بخمســمائة وتســعة وأربعــين مــرة، إذ أن كثافتهــا للكيلــو مــتر المربــع الواحــد ه ٤٩٠,٥/كلــم٢.

فعــلى ضــوء مــا تقــدم أعــلاه ، راينــا الســودان يصنــف مــن بــين أقــل بــلاد العالــم كثافــة مــن حيــث الســكان عــلى الإطــلاق. أي أن فضاءنــا واســع متســع ، ومســاحاتنا الأرضيــة شاســعة متراميــة. وهــي كذلــك ، حتــى بعــد خصــم اســتعمال الارض مــن حيــث صلاحيتهــا للزراعــة وهــي ٥٪ وكــذا المــروج والمراعــي وهــي ٢٤٪ ولا ننــسى خصــم مســاحة الغابــات وهــي ٢٠٪. وبعــد كل هــذه الخصومــات يتبقــى لنــا ٥١٪ مــن مجمــوع المليونــين وخمســمائة وخمســة ألــف وثمانمائــة وعــشرة كيلــو مــتر مربــع وهــي تســاوي تحديــداً (١,٩٦٣,٢٧٧,١) كيلــو مــترا مربعــا (راجــع الموســوعة المعلوماتيــة المشــار إليهــا).

ولاتضــاح الرؤيــة أكثــر ، نأخــذ هــذا الــذي تبقــى مــن مســاحة بعــد الخصــم الــذي ورد أعــلاه ، ونقارنــه بمســاحة بعــض بلــدان العالــم ليتضــح لنــا الآتــي:

إن المســاحة التــي تبقــت (١,٩٦٣,٢٧٧,١) تســاوي مســاحة جمهوريــة ســوريا كليــا (٩,٦)مــرة. وتســاوي المســاحة الكليــة للعــراق (٩,٢) مــرة. وتســاوي المســاحة الكليــة لجمهوريــة المانيــا (٦,٣) مرة. وتســاوي مســاحة الاردن الكليــة (٩,١٣) مــرة. ومســاحة تركيــا (٦,١) مــرة. أمــا مســاحة قطــر فتســاويها (٢,١١٦) مائــة وســتة عــشر مــره ، واثنــين مــن عــشرة!

عدل إجتماعي:

وبعــد أن وقفنــا عــلى حقيقــة الاتســاع المذهــل لــلأراضي الســودانية ، تــرى وفقــا لأي منطــق وزع الدكتــور شرف الديــن بانقــا _ كأســلافه مــن وزراء الإســكان _ لســكان دار الســلامات وغيرهــم مائتــي مــتر مربــع فقــط؟ وهــل تراهــم _ وزراء الإســكان _ ليرتضــوا أن تســكن أسرهــم في مائتــي مــتر مربع خاليــه مــن الإمــداد الكهربائــي والمــاء؟!

إن المنطــق لينفــي ذلــك ، اذا لمــاذا يحرمــوا عبــاد الله مــن أرض اللــه؟ والحق ، لا احــد ينكــر عــلى الدكتــور شرف الديــن _ عــلى وجــه التخصيــص _ دأبــه وجهــده ونشــاطه لاجــل إنصــاف العبــاد وإعمــار البــلاد. لكنــه أخطــأ مــن حيــث أراد الصــواب. حــين واصــل خطــى أســلافه _وزراء الإســكان _ الممعنه في الظلامــه ، القاضيــه بحــشر أسر يبلــغ تعدادهــا اغلــب الاحيــان عــشرة نســمة ومــا فوقهــا ، في مائتــي مــتر مربــع! كان يمكــن للدكتــور تحقيــق عــدل إجتماعــي غــير مســبوق ، خاصــة أنــه يعمــل وزيــراً لحكومــة كفــرت بــكل القديــم ، مــن فكــر ســياسي ، اقتصــادي ، اجتماعــي ، فــكان يمكنــه ببســاطة الغــاء سياســة المائتــي مربــع. وقــد ألغــى الاســتاذ ســبدرات ، وزيــر التربيــة والتعليــم ، بقــرار صغــير ، طــه القــرشي ، وأخرجــه مــن المدرســة والتعليــم إلى الأبــد.

كان يمكــن للدكتــور تحقيــق عــدل إجتماعــي غــير مســبوق اذا ألغــى الخطة الإســكانية القديمــة التــي قامــت عــلى التــدرج الاســتحقاقي. كان يمكنــه ذلــك مــن منطلــق أن النــاس متســاوون في الحقــوق والواجبــات. فيخصــص

لكافة أبناء السودان مساحة متساوية ، لا فضل لأحد فيها على أحد ، مع مراعاة الفارق الاقتصادي المذكور ، دفعا للضرر ، فيخصص للأغنياء الموسرين ، مثلا ، خمسمائة متر مربع في احيائهم الخاصة بهم. ويخصص ، كذلك ، لاهل دار السلام وما شابهها خمسمائة متر مربع في احيائهم الخاصة بهم. لكن أن يخصص للأغنياء الموسرين ، مثلا ، خمسمائة متر مربع ، بينما لا يستحق الفقير المعدم أكثر من مائتي متر إلا قليلا في بعض الاحايين، ، أو حتى لا يستحق فتلك إحدى الدمامل والقروح. وبعض من شظايا جدليات التشويه التي ستسمم _ لا قدر الله _ جسد وحدة السودان. وهو على الجملة ظلم وقع فيه السابقون وسار على النهج ذاته اللاحقون. فإذا كان الوطن للجميع ، فلم هذا التمايز؟!

وعليه ، لا يجانبنا الصواب أن زعمنا أن السودان بلاد امتازت بقلب الأوضاع. أو كما قال أحمد مطر (تضع الراكب تحت الحمار). ولنفترض جدلا بإمكانية وجود تمايز بين مواطن البلد الواحد من حيث استحقاق الارض. فمن ترى يكون أولى بالاستحقاق الاكبر ؟ من تراه يستحق الخمسمائة متر مربع ومن يستحق المائتي متر مربع ؟ ايستحقها _الخمسمائة متر مربع _ الغني الذي يمكنه إن أراد الزيادة راسيا بالعلوم في البناء ، وافقيا بالشراء ، ام يستحقها عامل المصنع والموظف الغلبان الذي له من البنين نصف دسته ، ومن البنات ماشاء الله ، ولا يستطيع في الوقت نفسه التوسع أفقيا بالشراء ، أو رأسيا بالبناء ؟ ايستحقها الغني الذي إن كبر أولاده اشترى لهم أرضا جديدة ، أو ابتنى لهم أعلى الدار . ام العامل المسكين والموظف الغلبان الذي لا يمكنه أن يقدم لأبنائه سوى الحسرات ؟!

وكذلك إذا سلمنا جدلا بتمييز الناس ، بإسكان البعض في المركز _ العاصمة _ أو قريبا منه ، ونفي الآخرين خارجه وبعيدا عنه . فمن تراه أحق بالسكن داخله ومن لايستحق ذلك ؟ ايستحقه الفقير

الــذي لا يمتلــك ســياره او حتــى دراجــة بهــا يســعى مــن وإلى عملــه ، ام الغنــي الــذي يمتلــك مــن الفارهــات مــا شــاء اللــه ؟

واســتناداً إلى ذلــك ، يمكــن القــول في اطمئنــان إن السياســات المنتهجــة لا تــؤدي إلا إلى افقــار الفقــراء أكثــر ، واغنــاء الأغنيــاء تبعــا لذلــك. وذاك ما لا يخفــى عــلى العيــان ، فلــئن افترضنــا أن إنفــاق أي أسرة فقــيرة للمواصلات فقــط (خمســة ألــف جنيــه) لليــوم الواحــد ، فــإن ذلــك يعنــي أن أفرادهــا ينفقــون في الشــهر الواحــد (مائــة وخمســين ألــف جنيــه) تقريبــا. ومليــون وثمانمائــة ألــف جنيــه للســنة الواحــدة تقريبــا. وثمانيــة عــشر مليونــا مــن الجنيهــات في عــشرة أعوام فقــط ، باعتبــار ثباتهــا واســتقرارها في ذات الفئــات عــشر ســنين! ومــن ذلــك ، نخلــص إلى أنــه بمقــدور اي أسرة فقــيرة ، مهمــا بلــغ فقرهــا ، أن كانــت تســكن في المركــز شراء عربــة جيــدة في ســنوات قليلــة!

وتاسيســا عــلى مــا تقــدم ، يمكــن القــول في ثقــة إن أزمــة البــلاد الحقيقيــة هــي اللامســاواة الواضحــة ، التــي جعلــت قلــة ضئيلــة للغايــة تمتلــك الســودان اجمــع وبقــي وبقيــة أبنائــه مجــرد رعايــا تبــع! فأنــت إن نظــرت معظــم أرض البــلاد ، بــدءاً مــن المركــز انتهــاءا بأقــصى الفيــافي ، وجدتهــا مملوكــة لآل فــلان ،وال عــلان. وربمــا امتلــك آل هــذا الفــلان أو ذاك العــلان عــشرة ألــف فــدان ، أو مشــاريع مشــاريع تربــو مســاحتها عــلى المائــة ألــف فــدان. وغالبــاً لا تزيــد حجتهــم في ذلــك عــن كونهــا ملــك جدهــم عــلان. لــكأن جدهــم المقصــود هــذا لويــس الرابــع عــشر!!

وعــلى ضــوء ذلــك ، فــإن فداحــة المغــارم التــي حاقــت بجيــل الآبــاء الذيــن عاشــوا حــول المركــز ، في مناطــق اســكان غــير لائقــة مــن حيــث المســاحة كمــا ذكرنــا ، والخدمــات كمــا ســنبين ، أودت بهــم إلى الــذروة فتصلــب فهمهــم حــول (الجلابــي) فســكبوا عصــارة مراراتهــم الشــخصية في آذان وقلــوب الأبنــاء والأحفــاد. ولأن التجربــة واحــدة المضمــون نكتفــي بمنطقة

(الوحدة الوطنية ، الحاج يوسف) كأنموذج يمثل كافة المناطق المشابهة (مايو ، العشش ، دار السلام ، كرتون كسلا.....الخ) حيث أن سكانها ينحدرون من أصول لاشمالية (الغرب ، الجنوب ،الشرق).

فرغم أنها وزعت قبل ثلاثين عاما ، أي وقت أن كانت العاصمة قليلة الأحياء ، خاليه ، إلا أنها اختير لها النفي بعيدا عن المركز ، إلى خلاء شاسع كانت تعوي فيه الذئاب . فمنح أهلها رغم ذلك مائتي متر مربع فقط. ولعل من المفارقات أن اختارت لها حكومة مايو إسم الوحدة الوطنية ، تيمنا بالاتفاقية. لتصبح حقيقة الوحدة (من العزلة والانفراد) حيث انقطعت عن العالم ، حين تغاضت عنها كافة الحكومات ، لتمكث خمسة عشر عاماً بلا ماء ، في زمان كان الأمر ميسورا. وكذا بلا طريق مرصوف ثلاثين عاما في زمان كان الأمر ميسورا. ومما يبكي إلى حد الاضحاك أن هذا الطريق الذي ظل ثلاثين عاما بلا اسفلت لم يزد طوله عن الكيلومترين ، ومع ذلك ، استغرق وصوله المنطقة ثلاثين عاما. ومما يؤسف له اكثر أنه لم يقم مشروع في كل المنطقة إلا عن طريق العون الذاتي ، بعد حرمان الاطفال الغذاء والدواء. فأي دستور بعد ذلك يقول "الناس متساوون"؟!

على كل ، فرغم فداحة المغارم التي حاقت بجيل الآباء ، نتاجاً للتخبط السياسي غير مدروس النتائج ، إلا أن جيلهم ظل صبوراً كجمل الصحراء ، تثقله الرزايا فينوء بحملها في صمت مصطبر حتى تكاد لا تسمع له أنين وربما عاد ذلك إلى ارثه الديني الذي كان يملأ عليه نفسه ، رضاء بالمقسوم ، وتمشيا مع تفضيل الله الناس بعضهم على بعض. وربما عاد ذلك ، أيضا ، إلى حقيقة إدراكه لعدم كفاءته مدنياً لارتقاء سلم الوظائف المشتهاة ، فقنع بموقعه المتواضع ، ساعيا في مكتب ، أو عاملاً في مصنع ، مع الاجتهاد والمجاهدة في أبنائه لعلهم يحققوا بعض ما عجز عنه.

فـإذا كان ذلـك حـال جيـل الآبـاء المسـحوقين ، وذاك ختـام أمرهـم الـذي إليـه انتهـى ، واليـوم كـبر كـبر أولئـك الأبنـاء ، فهـل عسـاها تقنـع خلاصاتهـم المسـتكينه هـذه جيـل الأبنـاء والأحفـاد ؟! جيـل مـا بعـد الثـورة والعولمـة ، جيـل مسـاواة المـرأة بالرجـل في كل شيء...نعـم ...نعـم في كل شيء ؟ هـل سـيقتنع الأبنـاء بتفضيـل اللـه النـاس بعضهـم عـلى بعـض ، حتـى بعـد أن شـمرت النسـاء عـن سـواعدهن ؟!

قطعـا لا ، لأن الواقـع الماضـوي غـير هـذا الراهـن ، لأن فكـر سـابق الأجيـال غـير لاحقهـا ، وكـذا حكمتهـم ، واصطبارهـم. هـؤلاء الذيـن يعتقـد أغلبهـم في تولسـتوي وديستوفسـكي وجـان بـول سـارتر. إذا ، فـإن النتائـج المتوقعـة لـذات الفعـل _عـدم المسـاواة _ لا يتوقـع اتحادهـا. فلـئن اصطـبر الأولـون ، فـإن جيـل الآخرين لـن يفعـل ذلـك...ذاك الجيل الـذي ليـس لديـه وقتـا ينفقـه لسـماع خطبـة جمعـة كاملـة ، فيكتفـي بحضـور ختامهـا وملخصهـا ! إن جيـل القلـق لـن يصـبر ، وفي المقابـل لـن يتعامـل معـه الجيـل الجديـد مـن الشـمال بحكمـة الكبـار ، فتكـون دوامـة الـصراع التـي تكلـف السـودان مـا لا يطـاق.

ونواصل

جدلية التشوهات ومستقبل وحدة السودان*

الحلقة الرابعة

* مقال للمؤلف، نشر في صحيفة الرأي الآخر. العدد ١٢١١. التاريخ ٢٥/٥/٢٠٠٠م.الموافق الخميس ٢٠/صفر/١٤٢١

أكثر تفاؤلا بات الأمر بعد رسالة الفريق الركن/عمر البشير للسيد/محمد عثمان الميرغني الأخيرة، بصفته رئيساً للتجمع الوطني الديمقراطي حيث واصل المواطن البسيط احتلامه بقرب انتهاء دوامة الصراع الجهنمية، وما يتبعها من ازمات واشكالات انهكته، واضاعت مكتسباته، فضلا عن سحبها الوطن إلى الوراء. وقد يعزى ذلك إلى ثقل التجمع الوطني الديموقراطي وتأثيره على الساحة السياسية والعسكرية. لذا كان لفتح قناة اتصال كهذه أهمية قصوى، جعلت حل المشكل أكثر توقعا، ومن ثم يكون سراب المؤتمر الدستوري المتماهي أكثر اتضاحا.

وما يجدر ذكره، أن ظلت أشواق شعب السودان تتلهف لانعقاد هذا المؤتمر الموعود وترقبه كل آن. ونحن نشاطرهم ذلك، لأن هذا المؤتمر الدستوري ركن أساسي لحل الاشكال السوداني بعيداً عن دوي القنابل، وازيز المقاتلات الحربية. ولكن، رغم ذلك، ينبغي ألا يسرف القوم في الاحتلام، شأنهم كل حين، وانما عليهم النظر إليه بعين الفحص والاختبار، حتى يصلوا، فعلا، إلى ختام سعيد، يضع حداً للمأساة.

وعليه، لما كان من أهداف هذا المؤتمر مناقشة قضايا أساسية، كالدين والدولة والسلطة والثروة، رأينا تناول قضية الثروة وحدها

هـذه المـرة. الشـئ الـذي لا علـم لنـا بـأن أحـد قـد فعلـه . وذلـك نظـراً لأهميتهـا وتأثيرهـا عـلى مجمـل الـصراع الدائـر ، بـدءاً مـن جذورهـا الاولى ، إنتهـاء مـن إلى راهـن وضعنـا ، آخذيـن في الاعتبـار إسـهام الجميـع في صنـع هـذا التبايـن الفاضـح بـين بنـي الوطـن الواحـد في هـذا الشـأن.

وعـلى ذلـك ، لعلـه مـن المفيـد تذكـر أن رجوعنـا إلى الـوراء مائـة عـام فقـط ، يكشـف لنـا مـدى تقـارب مسـتوى السـودانيين الاقتصـادي لدرجـة تـكاد تمحـي اي خـط تمايـز اقتصـادي بـين الأثريـاء ، آنـذاك ، والفقـراء ، فقـد كانـوا يعيشـون وضعـا إقتصاديـا متقاربـا للغايـة.

فـإذا عدنـا بعـد ذلـك إلى يومنـا هـذا ، وجدنـا خطـه الفاصـل بـين فقرائـه واغنيائـه اخـدودا سـودانيا عظيمـاً. فـرق بينهمـا بشـكل ابعـد أي احتماليـة تقـارب ناهيـك عـن الالتقـاء ، فـكان نتـاج ذلـك ان وصـل البعـض ظهـر الثريـا ، في الوقـت الـذي تحـرك الآخـر مـن موقعـه المتواضـع ، ليـس إلى الأعـلى ، وانمـا أسـفل سـافلين. فصـارت المدينـة مرتعـا للعجائـب ، فيمـوت بعـض سـكانها جوعـا ، وبعضهـا الآخـر يمـوت تخمـة. فلـئن فكـر الآخـر في أن يقسـم بعـض طعامـه لـلأول ، لتفـادى كلاهمـا هـذا المـوت الاسـتثنائي !

ماذا حدث ؟

فمـاذا حـدث خـلال هـذه هـي المائـة عـام ؟ ولمـاذا صعـد البعـض وتهـاوى الآخـر ؟ فهـل ياتـرى يعـود ذلـك إلى الاجتهـاد الفـردي ، ام تدخلـت عوامـل رفعـت اولئـك وقذفـت بهـؤلاء إلى الجحيـم؟ وإن كان الأمـر اجتهـادا فرديـاً ، فهـل تقاعسـت وتكاسـلت كل هـذه الملايـين مـن الفقـراء المدقعـين؟ وإذا كان الأمـر اجتهـادا ، كيـف انزلقـت هـذه الملايـين إلى الأسـفل بينمـا كان ينبغـي ، بفـرض أنهـم كسـالى ، البقـاء في مواقعهـم ، لا يتقدمـون أو يتأخـرون طالمـا هـم عـلى حـال مـن الثبـات ؟ الا تـرى أنـه لـكأن هنـاك يـد فولاذيـة تدفـع هـؤلاء إلى الأسـفل ، في سرعـة مجنونـه؟

وعلى ضوء ذلك ، يمكن القول إن التباين الفاحش بين بني الوطن الواحد _ لا من منطلق شمال ولاشمال وانما من منطلق آخر _ نتج عن توفر سوانح محددة ، تضافرت إلى بعضها ، فانتجت هيمنة "بعيض" المجموعات _ من الشمال واللاشمال _ على مصادر السلطة والثروة.

أموال الأحزاب أموال الشعب:

وتاسيسا على ذلك ، يمكننا الجزم بأن ظرفا تاريخيا بعينه أفرز لنا مثل هذه الظاهرة ، يمكن حصره في: السبق التاريخي السياسي ، السبق التاريخي الاقتصادي ، الوصول _ انتهازا_ إلى مراكز القرار ، وإلى جانب ذلك حركات التحرير الاستغلاليه.

فإذا تناولنا السبق التاريخي السياسي نجده مجسدا في الحزبين الكبيرين ، الامه والاتحادي الديمقراطي ، اللذان استمدا سلطانهما وثروتهما من سبق جدهما الأول الامام محمد احمد المهدي ، والسيد محمد عثمان الميرغني الأكبر ، رحمهما الله. وهما رمزان رئيسيان بذلا جهدا لا تحجبه الشمس ، ولا ينكره إلا مكابر ، لكن ما يلاحظ أنهما رحلا من هذه الفانية وما تركا خلفهما متاع يذكر ، ناهيك عن الأملاك والاطيان والدر المكنون ، وما ذاك إلا لسبب بسيط يتمثل في افتقارهما إليه ، وزهدهما فيه. ورغم ذلك ، أضحى احفادهما ، بعد أقل من الخمسين عاما من انتقالهما إلى الرفيق الأعلى ، أصحاب ضيع وسرايا ومزارع ومشاريع لا يحدها بصر. عمل فيها اولئك الكادحون ، وتصبب عرقهم ودمهم ، فاغتنوا هم ، في الوقت الذي تحولت فيه اجساد الاتباع إلى هياكل هزيلة ، فضلا عن التقاعس في مد يد العون إلى أبناء اولئك الكادحين ، كأن ينشئوا لهم مدارس وجامعات _ وقد كان بإمكانهم _ رفع مستوى وعيهم ، وتجعل منهم مواطنين صالحين ، وربما كان هذا سبب مباشر في ارتماء معظم أبناء هؤلاء الاتباع ، في

خمسينيات وستينيات القرن الماضي ، في احضان الاشتراكية اللينينيه ، لكأنهم وجدوا فيها متنفسا ، وحائطا تتكسر دونه معاول الإقطاع.

وبناء على ذلك ، اذا استثنينا بعض النماذج العصامية ، التي شقت طريقها وصنعت ثروتها ، فإنه يمكن القول إن ثروتيهما هاتين هي ملك شعب السودان ، أيا كانت وسيلة جمعها ، سواء اكانت تركة استعمارية جاءت رديفا للاستقلال ،ام كسبا نتج عن الوصول إلى مراكز السلطة والقرار فيما بعد ، خلال التجارب الديمقراطية الثلاث ، ام بأي شكل آخر من أنماط الاكتساب السياسي الديني . وهذا ما ينطبق على مجموع الأحزاب من التي حذت حذوهما .

أما السبق التاريخي الاقتصادي ، فقد تمثل في وصول زمرة محددة إلى منابع الثروة في البلاد قبل الآخرين ، فعملوا في كل المحافظة على هذا الموقع من ناحية ، والحيلولة دون توسع نطاق دائرتها من ناحية أخرى. فكانت وظيفتها _فقط _ التودد إلى كافة أشكال وألوان السلطات الحاكمة ، داعمة إياها ، دعما مريبا تارة باهدائها اسطولا من السيارات فلكية الأثمان ، وأخرى بالاسهام في مشروع بأرقام تذهل الألباب ، وغيرها من النفائس ، حيث لا نستطيع أن نطلق عليها اعمال بر وتقوى ، لأن من يفعلون ذلك بالضرورة واجدين من هو أولى من السلطة الحاكمة ، ودونك سكان الجامع الكبير وسواهم!

اذا هي تفعل ذلك من قبيل الاحتفاظ بهذه المواقع المميزة. لينتج عن ذلك حلف استراتيجي بين السلطة والثروة ، أو الحكومات والرأسمالية الطفيلية ، وهو محصلة طبيعية لاستيلاء العسكر على السلطة انقلابا ، ليتفاجاوا بين عشية وضحاها بأنفسهم في ارفع مراكز القرار والسلطان ، وبين الدهشة والأحلام يفيقوا على واقع قاس ينتظرهم وهو عزلتهم المفروضة عليهم من قبل العالم ، فقد درجت الدبلوماسية العالمية على التلكؤ في الاعتراف باي فئة

انقلابيـة اسـتولت عـلى السـلطة ، إلا بعـد فـرض نفسـها أمـرا واقعـا ، فهـي تخـاف نتائـج التعجـل بالاعـتراف ، والتـي يمكـن اعتبـار أقـل سـيئاتها الإتهـام "بالحشريـة" أو التدخـل في شـأن الآخريـن ، وذاك مـا رأينـا إبـان انقـلاب الحكومـة النيجيريـة الفدراليـة عـام ١٩٧٠م. حيـث تعجلـت بعـض البـلاد في تأييدهـا فاتهمـت بالفضـول ، وحـشر الانـوف في الشـأن الداخـلي.

ولذلـك يحتـاج الانقلابيـون دومـاً إلى مـدة كافيـة لترتيـب أوضاعهـم ممـا يقنـع العالـم شـيئاً فشـيئا بقبولهـم عضـواً في المجتمـع الـدولي. وقـد يحتـاج الأمـر مـع بعـض البـلاد إلى ذلـك سـنوات طويلـة ليحظـوا منهـا بالتأييـد ، وهـو مـا مارسـته الولايـات المتحـدة تجـاه الانقلابيـين البلاشـفة الذيـن انتزعـوا الحكـم مـن القيـصر نيقـولا الثانـي عـام ١٩١٧م. فمنـذ ذلـك التاريـخ لـم تعـترف بهـم ، إلا عـام ١٩٣٣م. وبعـد اشـتراطات املتهـا عليهـم وفقـاً لمعاهـدة Litvinov وهـي دفـع مبالـغ طائلـة ، وعـدم تهديـد سـلامها .

وبنـاء عـلى هـذه العزلـة الدوليـة يجـد الانقلابيـون أنفسـهم في احتيـاج لئيـم إلى مـا يمنـع مفاصـل ارجلهـم مـن الارتجـاف ، ولا يكـون ذلـك إلا بالمـال ، لتسـيير الحـال ، فتسـتبق قـوى رأس المـال لمسـاعدتهم في ضيقهم . فيفـرح الأولـون بالآخريـن ، ويغتبـط الآخـرون بالاولين ، فيكونـا صديقين يحميـان ظهـر بعضهمـا. فينعقـد بينهمـا تحالـف اسـتراتيجي لـضرب عـدو مشـترك ، هـو شـعب السـودان ممثـلا في كامـل قطاعاتـه المهنيـة والعماليـة ، وغيرهمـا.

ومـا ينبغـي الإشـارة إليـه ، أن أبـرز نتائـج هـذا الحلـف الرأسـمالي السـلطوي هـي انشـغال الانقلابيـين الجـدد بالـرد عـلى الطابـور الخامـس ، وتفـرغ الرأسـماليون تمامـاً ، لامتصـاص ولعـق دمـاء الشـعب ، بفعالية تحسـدهم عليهـا انثـى الانوفليـس . وخـير مثـال ذلـك عمـال المصانـع

الذيـن يكـدون لأجـل راتـب يـكاد يفـي لبـن أطفالهـم فقـط.. صـورة لا تضاهيهـا إلا تصاويـر عهـد الإقطـاع المسـيحي . فـإذا مـا انتفـض هـؤلاء العمـال المسـحوقون مطالبـين باسـتحقاقهم سـحقتهم الدولـة ممثلـة في حكومتهـا ، ونكلـت بهـم شر تنكيـل ، حمايـة لظهـر صديـق الضيـق ، فـاي حلـف شـيطاني ذلـك ؟

وهكـذا ، حكومـة حكومـة ، نظـام نظـام ، حلـف وتحالـف تعاقـدت الرأسـمالية والحكومـات وتواثقـت عـلى انتهـاب الشـعب الصابـر ، وجمعـت الرأسـمالية الطفيليـة ثرواتهـا بالاحتـكار والالاعيـب الاقتصاديـة المكشـوفة ومـا سـواها ، الأمـر الـذي يجعلنـا نؤكـد في جـزم أن غالـب سـواد ثرواتهـم هـي كذلـك ملـك يمـين الشـعب.

وعـلى كل ، فـإن عمـل الفئـة الانقلابيـة عـلى حمايـة صديـق الضيـق لا يمنعهـا مـن خلـق آلياتهـا الدفاعيـة الخاصـة بهـا . وهـي تعلـم سـلفا أن صديـق الضيـق هـذا صديـق للمصالـح أينمـا توجهـت كانـت قبلتـه . وهـو فراشـه لا يهمهـا سـوى الرحيـق ، انـى كان وكيـف كان ، وهـو قبـلا قـد تحالـف مـع الذيـن أطاحـوا بهـم ، وقبـل ذلـك مـع مـن سـبقوهم.وهكذا ، دواليـك فيكـون اقـوى حافـز يدفعهـم إلى صنـع رأسـمالية طفيليـة أخـرى ، هـي كسـابقتها ، أن لـم تكـن أسـوأ ، ولكـن بهـا كمـا مكثفـا مـن الولائيـة .

وعـلى هـذا النهـج رأينـا كيـف استـظهرت الإنقـاذ الشـيخ فـلان كمـورد للدقيـق ، والشـيخ عـلان كمـورد أوحـد لسـلعة الشـاي ، وابـن فلتـكان كمصـدر أوحـد للمـواشي. وهكـذا ، نبتـت شركات عملاقـة مـن حـر مـال الشـعب ، علـت وسـمقت ، وتـلألات ثـم مـا لبثـت أن تحولـت مبانيهـا إلى أطـلال عفـت آثارهـا الريـاح . وهكـذا ، مـا سـأل أحـد :ايـن ذهبـت أموالنـا ؟!

وكهـذا ، اسـتطاعت الجبهـة الإسـلامية ، ويسـتطيع أي تنظيـم يصـل إلى

السلطة انفرادا أن يحتكر أموال الشعب تحت أي مسمى ، ويحولها إلى املاك تخصه هو ، في محاولة لتغييب الذاكرة الشعبية المطالبة بحقها واستحقاقها ، وهكذا ،ايضا يمكننا في ثقة أن نقول إن أموال الجبهة الإسلامية هي أموال شعب السودان كذلك.

حركات التحرير تسرق مال الشعب:

أما الفئة الرابعة التي سرقت مال الشعب فهي حركات الإستقلال ، وهو مصطلح اطلقناه على حركات التحرير . فهي وإن لم تكن في الأساس طرف اصيل في خلق التباين في موازين الثروة في البلاد ، إلا أن ممارساتها اكتسبتها ، فيما بعد ، موقع الشريك فتصدرته ، شأن الفئات الثلاث الأخرى. فهي نفسها قد نتجت عن هذا التباين الفاحش في الثروة ، والذي ذكرناه ، مستغلة تعاطف وسذاجة البسطاء الذين نفاهم المركز عن كافة خططه الاقتصادية والتنموية. فهو بالكاد يعرف عنهم شيئاً: كيف يعيشون ؟ وعلى ماذا يعيشون ؟ وماهو مستقبلهم ؟ والحق ، أنه لم يكن ليعرفهم لولا ذاك الشئ اللعين الذي سمي انتخابات!! فلولا هذه الانتخابات اللعينة لما تعرفت عليهم حكومة أو حزب ، لتأتيهم كل أربع سنين تحمل القليل من جوالات الفتريته والسكر والشاي ، والكثير من الأوراق ، ليتم جمعهم تحت شجيرة ناحله لا يختلف حالها عن أهلها. فيحدد لهم العمدة أو الشيخ أو السلطان بإصبعه الرمز الانتخابي الذي يفترض أن تقترعه جميع القبيلة ، فيرتفع صوته الجهوري :(أدوا صوتكم للقطية ١٠٠٪)!

ونتاج لهذا التهميش المريع والذي عبأ المشاعر ضد المركز ، ينهض فرد أو جماعة منادين برفع لواء الاستقلال عنه ، مستغلين غياب الوعي الشعبي ، فيرهن هؤلاء إرادتهم ، غصباً عنهم ، إليهم ، حتى لا تطالهم التصفيات الداخلية بدعوى العمالة والارتزاق . ومن ثم

يفسدوا في الأرض ملحقين بالمظلومين ظلامات فوادح ، غير ابهين لهم ! وما يؤكد انتفاء اكتراثهم لمواطنيهم الضعفاء المستغل ظلمهم ضد المركز ، أنهم لا يشعلون الحرب إلا في ديارهم...ديار أهلهم ، فتكون عليهم وبالا ، اؤلئك الذين وعدوهم بالانقاذ ، فكان انقاذا من الدنيا وانتشالا إلى الآخرة ، وأما من تشبث منهم بأهداب الحياه الدنيا ، فاحرقوا حرثه ونسله وافقروه .وهذا واقع مؤلم حين يفقر الإنسان أكثر مما كان (فعل الحركة في أبناء الجنوب) بل أكثر مما يجب . فقد حولت الحركة الشعبية أغنياء أهلها إلى فقراء ، وفقرائهم إلى معدمين ، إلى اللاشيء ، فدفعوهم ، اضطرارا إلى المركز الموعود بالاستقلال عنه. في مناظر دامية للقلوب والابصار.

والحق أن حركات التحرير بدلاً من تلبية مطالب أهلها تسحقهم. ولا تكترت سوى لمطامحها هي واعوانها المنتشرين في عواصم العالم والخرطوم.

وهكذا ، انقسم المجتمع الجنوبي إلى طبقتين متباينتين تباينا موغلا: فطبقة ما زالت تنام على الثرى _ وهذه ليست مبالغة بقدر ما هي رصد لواقع _ لا تملك ما تأكله من خشن الطعام. تدافعت نساؤها للعمل في جوف بيوت العرب _الموعود بالتحرر منهم _ فاي سخرية أقدار ، وأي سوء تقدير بعد ذلك ؟! وأما الطبقة الأخرى ، فتعيش في لندن ، نيويورك ، امستردام ، واستكهولم وغيرها من المدائن باهظة الإعاشة. اولادها منعمون ، مترفون ، بالكاد يعرفون شيئاً عن أبناء عمومتهم غير ما ينقل إليهم في صالوناتهم الأنيقة هناك ، وفي جوف الخرطوم ، حيث _ تنحشر _ مساكنهم في قلب أحياء العرب ، وتلتحم بها في تشاكل وحدوي الحائط على الحائط ، والباب على الباب ...اؤلئك العرب الموعود أهلهم في جبرونا وزقلونا بالانفصال عنهم!!

وذاك ما ينطبق على أبناء النوبة ، وغيرهم ممن أشعلوا الحرب ،

وهربــوا مــن نيرانهــا ، زاجــين أبنــاء الآخريــن في اتونهــا فيصليهــم . وهــذا مــا ســيكون عليــه حــال أبنــاء غــرب الســودان اذا مــا دفعهــم إلى الحــرب أشــخاص كعــلي الحــاج وأمثالــه.

وعــلى هــدي ذلــك ، وجدنــا أن جــزءًا مــن أزمــة الســودان التبايــن الفاحــش بــين أبنائــه في الثــروة ، والــذي أفــرز رباعيــة احتكاريــة ، توزعــت نصيــب الثلاثــين مليــون نســمة فيمــا بينهــا ، و هــي الآن تنــوي مواصلــة نشــاطها تحــت زعــم اقتســام الســلطة والثــروة ، وهــو شــعار بــراق جــاذب ، بيــد أن الخــلاف حــول مجمــل المفاهيــم المتعلقــة بــه ، فمــا هــو فهمهــا لذلــك؟ وماهــو دورهــا في هــذا المؤتمــر الدســتوري؟ فهــل ســتواصل ترددادهــا لذات المفاهيــم المتعلقــة باقتســام الســلطة والثــروة ، والتــي تعنــي اقتســامها فيمــا بينهــا الأربعــة ، باعتبــار أنــه كســب تاريخــي وفاتــورة للنضــال ؟ أم أن هنــاك فهــم جديــد ؟

ومهمــا يكــن ، ورغــم عــدم يقيننــا ومعرفتنــا بمــا يفكــر فيــه اؤلئــك الســادة إلا أن مــا يجــب أن يفكــر فيــه الجميــع ، المواطــن الســوداني ، لا أنفســهم ، عــلى الأقــل هــذه المــرة فقــط ، بحيــث ينحــصر جوهــر النقــاش في كيفيــة إعــادة وترميــم هيكلــه وتقريــب الفــارق بينهــم وبينــه ، وبينــه وأبنــاء الشــعوب الأخــرى ، وحبــذا لــو تحلــوا بقــدر معقــول مــن الحيــاء ، عــلى الأقــل هــذه المــرة!

وتاسيســا عــلى ذلــك ، يتمثــل واجبهــم تجــاه الوطــن والمواطــن في خلــق ســودان جديــد مــن ناحيــة ، وخلــق الســوداني الجديــد مــن ناحيــة أخــرى ، وكلاهمــا لا يقــوم إلا عــلى الوعــي المتزايــد. فأمــا الســودان فهــو ذلــك الســودان الــذي يجــد فيــه الجميــع _ بجهــد معقــول _ مــا يأكلونــه ويشربونــه ويلبســونه ، ويركبونــه ويتعلمــون فيــه. أمــا الســوداني الجديــد فهــو ذلــك الســوداني الــذي يمتلــك وعيــا متقدمــاً يحصنــه مــن الوقــوع فريســة للظلــم فتنتفــي تلقائيــا كافــة أشــكاله.

المراجع

قائمة المراجع

أولاً، المراجع والدوريات:

٠١ د. محمد سليمان محمد. السودان، حروب الموارد والهوية. تحقيق واستهلال/د.صلاح ال بندر. الناشر/دار كيمبريدج للنشر. الطبعه الاولى.

٠٢ عبد الجبار محمود دوسه. دارفور وأزمة الدولة في السودان. الناشر/ مكتبة جزيرة الورد. الطبعه الاولى ٢٠١٣م.

٠٣ محمد جلال هاشم. منهج التحليل من الثقافي،الدولة الوطنية السودانية وظاهرة الثورة والديمقراطية. الراوي للنشر والتوزيع. الطبعه الثامنه ٢٠١٨م.

٠٤ د.شريف حرير. ود.تيرجي تفيدت. السودان ، الانهيار أو النهضة. ترجمة/مبارك علي عثمان _ مجدي النعيم. الناشر/ مركز الدراسات السودانية. الطبعه الاولى ١٩٩٧م.

٠٥ ب. م . هولت. المهدية في السودان. ترجمة/د.جميل عبيد. مراجعة/د. احمد عبد الرحيم مصطفى. الناشر،ملتزم الطبع والنشر/دار الفكر العربي. مطبعة الاستقلال الكبرى.

٠٦ د.احمد احمد سيد احمد. تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصري. ١٨٢٠ _ ١٨٨٥م. رسالة دكتوراه تحت إشراف الدكتورين/ محمد فؤاد شكري ومحمد أنيس.

٠٧ محمد ابراهيم نقد. علاقات الرق في المجتمع السوداني. الناشر/

الشركـة العالميـة للطباعـة والنـشر ١٩٩٥م.

٠٨ د.ابكــر ادم اســماعيل. جدليـــة المركـــز والهامـــش. الناشر/منظمـــة حقــوق الإنســان والتنميــة HODOالطبعـــة الثانيــة.

٠٩ د.عبدالعظيـم رمضـان. أكذوبـة الاسـتعمار المـصري للسـودان.الناشر/ مكتبـة الاسرة _ مهرجـان القراءة للجميـع ١٩٩٦م.

٠١٠ عصمــت حســن زلفــو. كــرري. تحليــل عســكري لمعركــة ام درمــان. الناشر/مركــز عبــد الكريــم ميرغنــي الثقــافي. الطبعــة الرابعــة ٢٠١٢م.

٠١١ د.فرانســيس دينــق. D.Francis M. Deng صراع الــرؤى ، نــزاع الهويـات في السـودان. ترجمة/د.عـوض حسـن محمـد احمـد. النـاشر/ The Brookings Institution Washington D. C ١٩٩٥ مركز الدراسـات السـودانية. الطبعـة الثانيـة ٢٠٠١م.

٠١٢ احمـد خـير المحامـي. كفـاح جيـل. ألناشر/الـدار السـودانية للكتـب ٢٠٠٢م.

٠١٣ مزمـل سـلمان غنـدور. مشـكلات الريـاح. النـاشر/ الـدار السـودانية للكتـب. الطبعـة الأولى ١٩٧٤م.

٠١٤ نعــوم شــقير. جغرافيــة وتاريــخ الســودان. النــاشر/دار الحيــاة للنــشر والتوزيــع.

٠١٥ د.يوســف ســليمان ســعيد تكنــه. دارفــور، صراع الســلطة والمــوارد. ١٦٥٠ _ ٢٠٠٢م. دراســة في السياســة والحكــم والإدارة٢٠١٣م. النــاشر/ دار مــدارك للنــشر. الطبعــة الأولى ٢٠١٤م.

٠١٦ د. منصــور خالــد. الفجــر الــكاذب ، نمــيري وتحريــف الشريعــة. النــاشر/دار الهــلال

٠١٧ حســن العبيــد مدنــي. عنــبر جــودة. الناشر/الشركــة العالميــة للطباعة والنشر ٢٠٠٨م.

٠١٨ ١٩٦٢ .Donald Wiedner تاريــخ افريقيــا. ترجمــة/د. راشــد الــبراوي. النــاشر/ مكتبــة الوعــي العربــي. دار الجيــل للطباعــة.

٠١٩ ســلاطين باشــا "كارل رودلــف. الســيف والنــار في الســودان. تعريــب/ جريــدة البــلاغ عــن الطبعــة الأولى "طبعــة البلاغ"ســنة ١٩٣٠م. النــاشر/ مكتبــة الآداب ، القاهره.

٠٢٠ ســيرجي ســمرنوف. دولــة المهديــة مــن وجهة نظــر مؤرخ ســوفييتي. ترجمة/هنــري رياض.النــاشر/دار الجيل، بيروت. الطبعــة الأولى ١٩٩٤م.

٠٢١ روبــرت أو. كولنــز. تاريــخ الســودان الحديــث. ترجمة/مصطفــى مجــدي الجمــال. مراجعة/حلمــي شــعراوي. النــاشر/ مكتبــة الاسرة ٢٠١٥م.

٠٢٢ بروفيســور بــدر الديــن حامــد الهاشــمي. الســودان بعيــون غربيــه. الجــزء الخامــس. النــاشر/ مكتبــة جزيــرة الــورد _ الطبعــة الأولى ٢٠١٥م.

٠٢٣ خــضر حمــد. مذكــرات خــضر حمــد _ الحركــة الوطنيــة الســودانية، الاســتقلال ومــا بعــده. النــاشر/ مركــز عبــد الكريــم ميرغنــي الثقــافي. الطبعــة الثانيــة ٢٠١٤م.

٠٢٤ محمــد محمــد احمــد كــرار. انتخابــات وبرلمانــات الســودان. النــاشر/ شركــة دار البلــد للصحافــة والطباعــة والنــشر والتوزيــع. الطبعــة الثانيــة ١٩٩٨م.

٠٢٥ احمــد محمــد شــاموق. الثــورة الظافــرة. النــاشر/دار البلــد للصحافة والطباعــة والنــشر والتوزيع. الطبعــة ٣/١٩٩٨م.

٠٢٦محمــد محمــد احمد كــرار. العنــف والانقســام في السياســة الســودانية. شركــة دار البلــد للصحافــة والطباعــة والنــشر والتوزيــع. الطبعــة الأولى ١٩٩٨م.

٠٢٧ د.المعتصــم احمــد الحــاج. ازهــر الســودان. المعهــد العلمــي بــأم

درمـــان، تاريخـــه وتطـــوره١٩١٢ _ ١٩٦٥. النـــاشر/ مركـــز محمـــد عمـــر بشـــير للدراســـات الســـودانية _ جامعـــة أم درمـــان الأهليـــة. تاريـــخ النـــشر ٢٠٠٧م.

٠٢٨ د. ابكـــر ادم اســـماعيل. الديمقراطيـــة واشـــكال الهويـــة في الســـودان. الناشر/المجموعـــة الســـودانية للديمقراطيـــة أولا. الطبعـــة الأولى ٢٠١٣م.

٠٢٩ محمـــد ســـليمان صالـــح ضرار. امـــير الـــشرق عثمـــان دقنـــه. النـــاشر/ الـــدار الســـودانية للكتب. الطبعـــة الأولى.

٠٣٠ بروفيسور. سيد احمد العقيد. الخليفة الشهيد.

٠٣١ جوزيـــف قرنـــق. مـــأزق المثقـــف الجنوبـــي، هـــل لـــه مـــن مبررات؟ترجمة/صـــلاح محمـــد الحســـن "القويـــضي". الناشر/تـــو ار للنشر. الطبعـــة الأولى ٢٠٢١م.

٠٣٢ محمـــد محمـــد احمـــد كـــرار. ســـنوات الغيبوبـــة. الحـــزب الشـــيوعي الســـوداني. ســـنة أولى مايـــو. الطبعـــة الأولى. ديســـمبر ١٩٨٧م.

٠٣٣ محمـــد أبـــو القاســـم حـــاج حمـــد. الســـودان ، المـــأزق التاريخـــي وآفـــاق المســـتقبل. "جدليـــة التركيـــب". المجلـــد الاول.النـــاشر/ دار ابـــن حـــزم للطباعـــة والنـــشر والتوزيـــع. بـــيروت. الطبعـــة الثانيـــة ١٩٩٦م.

٠٣٤ د. النـــور حمـــد. الســـودان ، آفـــاق الوعـــي بالـــذات. الناشر/مـــشروع الفكـــر الديمقراطـــي ، سلســـلة قـــرأءة مـــن أجـــل التغيير.رقـــم ١٨ _ الطبعـــة الأولى ٢٠١٤م.

٠٣٥ محمـــد أحمـــد محجـــوب ، الديمقراطيـــة في الميـــزان، دار النهـــار للنـــشر ، بـــيروت ، ١٩٧٣م.

٠٣٦ ســـير ونســـتون تشرشـــل ، تاريـــخ الثـــورة المهديـــة والإحتـــلال البريطاني للســـودان ، ترجمـــة عـــز الديـــن محمـــود ، دار الـــشروق ، طبعـــة دار الـــشروق الأولى ٢٠٠٦م " صـــدر هـــذا الكتـــاب باللغـــة الإنجليزيـــة تحـــت عنـــوان Winston Churchill, The River War .

٠٣٧ فتحـي الضـو ، السـودان سـقوط الأقنعـة ، سـنوات الخيبـة والأمـل ، الطابعـون شركـة سـوتير ، الزيتـون ، القاهـرة ٢٠٠٦م .

٠٣٨ محمـد أدروب اوهــاج ، مؤتمـر البجـا ، النـاشر : دار عــزة للنـشر والتوزيــع ، ٢٠٠٦م

٠٣٩ يوسـف ميخائيـل ، التركيـة والمهديـة والحكـم الثنائـي في السـودان. مذكـرات يوسـف ميخائيل.تقديـم وتحقيـق بروفيسـور/ احمـد إبراهيم أبو شـوك ، ،النـاشر/ مركـز عبـد الكريـم ميرغنـي الثقـافي، الطبعـة الثانيـة.

٤٠. محمـد بـن عمـر التونـسي ، تشـحيذ الأذهـان بسـيرة بـلاد العـرب والسـودان ، حققـه وكتـب حواشـيه/ د. خليـل محمـود عسـاكر ، ود. مصطفـى محمـد مسـعد. راجعـه/ د محمـد مصطفـى زياده.النـاشر/ المؤسسـة المصريـة العامـة للتأليـف والانبـاء والنـشر ، الـدار المصريـة للتأليـف والترجمـة ١٩٦٥م.

٤١. جوسـتاف ناختيقـال، جوسـتاف ناختيقـال وتاريـخ دارفـور ، ترجمة/النـور عثمـان أبكـر ، الناشر/الشركـة العالميـة للطباعـة والنـشر والتوزيــع ، الطبعــة الأولى ٢٠١١م.

ثانيا ،الصحف :

٠١ صحيفة المجهر السياسي . عدد ١٠٩١/ بتاريخ ٢٠١٥/٧/١٢م.

٠٢ صحيفة اليوم التالي. عدد ١٧١٨.بتاريخ

٠٣صحيفةالصيحة.عدد٦٤٠،بتاريخ٣١/مايو/٢٠١٦م

٠٤صحيفةالانتباهة.عدد٤٤٨١بتاريخ١١/١٢/٢٠١٨م.

٠٥صحيفةالرأي الآخر اعداد مختلفة.

٦. صحيفة السوداني.

والله المستعان



وعلى النسق ذاته ، طالما في السودان تشريعات تجرم العنصرية ، وتحاكم وتدين مرتكبها ، وطالما أن عموم الشعب ضدها لا يمكن أن يقال ، في ظل أي حكومة أننا بلد عنصري. نعم ، قد يكون بيننا عنصريون ، لكن مجتمعنا من اقصاه إلى أقصاه ليس عنصريا. فحيثما تفوه أحدهم ببذاءة قام عليه كثيرون، من أنحاء القطر كافة، فكيف يوصم الجميع بالعنصرية ؟!

إذا ،في امريكا عنصريون ، ولكن امريكا ليست بلدا عنصريا. وفي ألمانيا عنصريون ولكن المانيا ليست بلدا عنصريا. وعلى ضوء ذلك ، يصح القول إن في أفريقيا عنصريون لكن أفريقيا ليست عنصرية. وأن في السودان عنصريون ، ولكن السودان ليس بلدا عنصريا. ويصح القول إن في المجتمعات السودانية عنصريون ، لكن المجتمع السوداني ليس عنصريا. وبلادنا لا تدعم أو تربي العنصرية. إن هذا الوطن لم ، ولا يبارك فعل العنصرة ، لكن هذا قدره أن يكون بعض بنيه عاق. فحاربوا العنصريين لا الوطن ، وحاربوا العرقية لا الاعراق!

أحمد آدم المحامي


ISBN 978-99988-802-3-8

